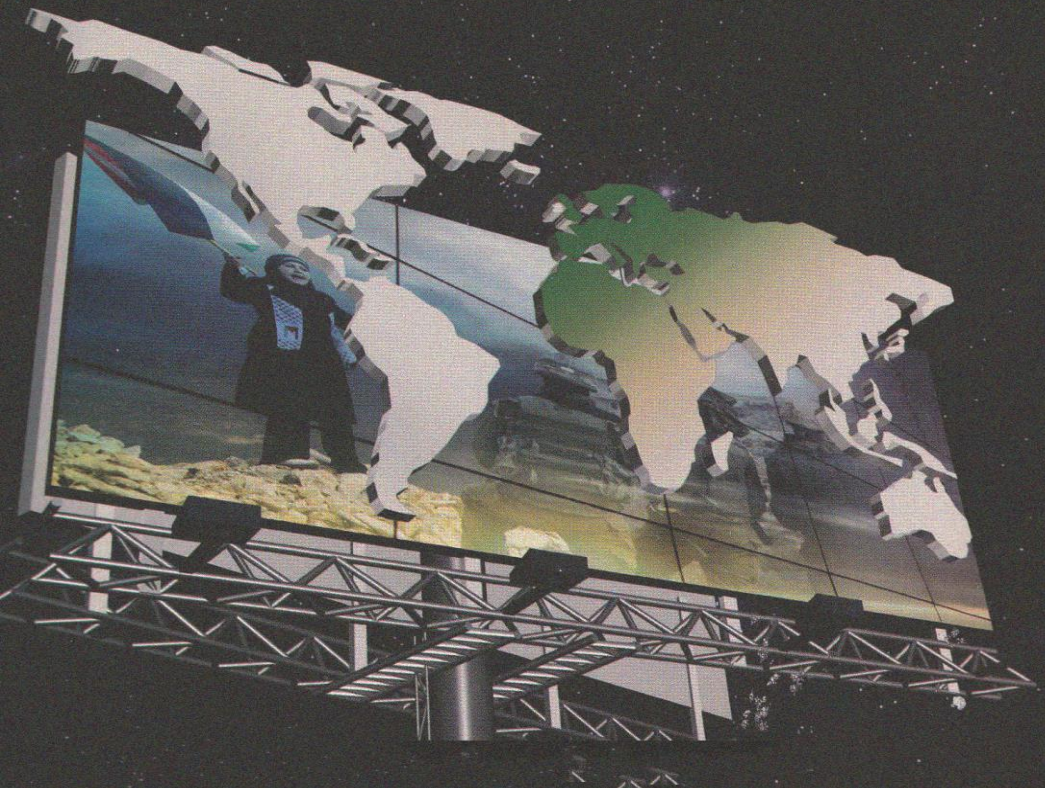




بِشَرِّ مِثْلِنَا

تحريف الحقائق في الشرق الأوسط

يوريس لوندك



٦٠٠
١٥٤٧٥

بِشَرِّ مِثْلِنَا

تعريف الحقائق في الشرق الأوسط

PEOPLE LIKE US

بَشَرٌ مِثْلُنَا

تحريف الحقائق في الشرق الأوسط

PEOPLE LIKE US

يوريس لوندك

Joris Luyendijk

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-858-4

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الطبعة الانكليزية PEOPLE LIKE US

لكتاب HET ZIJN NET MENSEN

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلف
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ، ش . م . ل .

Copyright © 2006 by Joris Luyendijk

All rights reserved under International and Pan-American Copyright Conventions
English Translation Copyright © Michele Hutchinson 2009

تمت الترجمة بدعم من:

Subsidy for Arabic translation by "Foundation for
the Production and Translation of Dutch Literature"

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو
ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية
وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

التنظيف وفرز الألوان: أيجاد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

المحتويات

7 مقدمة: مرحباً جميعاً!

القسم الأول

17 الفصل الأول: صحافة للمبتدئين

37 الفصل الثاني: لا أخبار

51 الفصل الثالث: أحياء المانحين وكوكيتيل هتلر

65 الفصل الرابع: حاميا حراميا

81 الفصل الخامس: كل الأخبار الصالحة للنشر

97 الفصل السادس: 11 أيلول/ سبتمبر والأمور المجهولة

القسم الثاني

113 الفصل السابع: عالم جديد

123 الفصل الثامن: قانون المقصّ

137 الفصل التاسع: إنهم يقتلون يهوداً أبرياء

163 الفصل العاشر: احتلال دموي

185 الفصل الحادي عشر: معضلة الوسيط

195 الفصل الثاني عشر: منافٍ للعقل وغير مألوف

القسم الثالث

209 الفصل الثالث عشر: دمي جديدة، أسلاك قديمة

219 الفصل الرابع عشر: «الراية تدرّ المال»

233 خاتمة

مُقَدِّمَةٌ

مرحباً جميعاً!

«شخص إضافي؟» خرج منسق منظمة أطباء بلا حدود من الكوخ الميداني ونظر إلى جزمته. فأومأت برأسي، وأدركت أنه يتعين عليّ تقديم اقتراح سريع؛ وإلا انهمرت دموعي على وجنتيّ الشاحبتين في الكوخ المجاور، وهذا ما لم أكن أريده.

كان يوماً ممطراً من أيلول/ سبتمبر عندما جبتُ أنحاء قرية واو جنوب السودان سيراً على الأقدام، وهي مكان وصفته الصحف أنه ابتلي بالمجاعة ومزقته الحرب في السنوات العشرين الماضية. في مكان ما من الضفة الأخرى للنهر، كان هناك المتمردون؛ وفي الضفة حيث نحن، أقامت منظمة أطباء بلا حدود مخيماً للاجئين المتضوّرين جوعاً. كان وقف إطلاق النار ساري المفعول حتى يتم خرقه.

«هل أنت على ثقة أنك تريد رؤيتها؟» سألت مراسل متمرّس في العاصمة الخرطوم. «مخيمات الجائعين قد تفسد الأمور داخل قرصك الصلب أي دماغك». ونصح آخر: «قم بالأمر على غرار الطيار الآلي. كل ما تحتاج إلى التفكير فيه هو، هل يمكنني استخدام ذلك لمقالتني؟» ما أراني إياه منسق المنظمة في أول كوخين كان مثالياً لمقالتني:

أطفالاً ذوي بطون منتفخة كنت أعرف منذ تحصيلي العلم في المدرسة الابتدائية أنهم ضحايا الجوع الشديد؛ عظام نائثة تحت جلدهم كسواري خيمة عصفت بها الرياح وخلعتها؛ أطفالاً دارجين شديدي النحول بحيث يتعين على أمهاتهم سَند رؤوسهن كي لا تنكسر أعناقهن. كانت مادة مفيدة جداً لمقالتني.

مررت والمنسَّق أمام مُلصَّق يحمل عبارة لا تشنّوا حرباً على المدنيين فوق صورة جنود ينهبون ومدنيين يبدو عليهم العَجْز. كانت القرية حيث أقيم المخيم مُقفلة: المقهى، مكتب تسجيل العطاءات الفورية والمستقبلية، مدرسة البابا يوحنا بولس المتوسطة، مركز الناصرة لبيع الخضار والفاكهة كانت مصاريعها وأبوابها مغطاة بألواح، وشرفاتها مليئة باللاجئين. لقد وُضع أشخاص من مختلف الأنواع في هذا المكان: لاجئون، قرويون، أشخاص من كل ملة ودين.

سلكنا طريقاً ملتوياً بين الحُفر الموحلة والقمامة في اتجاه الكوخ الثالث. كان هناك خمسون شخصاً آخرون يحدِّقون إلى الفراغ ويحتمون من المطر، لابسين ثياب الحداد على أمواتهم، منتظرين حصتهم الغذائية التالية. لقد بدوا وكأنهم يتفحصونني بعناية كما لو أن أحدهم أطفأ النور في أعينهم. لهذا السبب، يُنسب إلى اليائس تبدُّل حسّه وبطء الفهم لديه. فدوّنت على مفكرتي فاقدو الأمل.

عندما وصلنا إلى الكوخين الأوّلين، لم أستطع كبت مشاعري، فقمّت بانحناء صغيرة لإخفاء حرّجي وكبح دموعي. في هذا الكوخ، رفعت يدي تلقائياً، وأجبرت نفسي على الابتسام، وصرخت: «مرحباً جميعاً!».

حدث الأمر. لقد أشرقت وجوههم فجأة، وقهقهت الفتيات، وبدل رجل مُسنّ وضعته على الكرسيّ، ووكز الأطفال أمهاتهم بمرافقهم

استرعاءً لانتباههنّ. «انظري، يا أمي!». أفلت طفل دارج في الثانية من عمره تقريباً من شقيقته، وتمسك بركبتي يديّ، ووقع أرضاً. انفجرت أمهات الأطفال النحيلين ضحكاً، واستخدمن أياديهنّ الطليقة للتلويح.

هكذا استهلّيت عملي كمراسل لشؤون الشرق الأوسط عام 1998، والذي دام خمس سنوات. عندما انتهت الفترة، وبينما كانت أمتعتي في طريق العودة إلى هولندا على متن سفينة شحن، قمت بجولة وداعية على مصادر معلوماتي وهم أشخاص كنت مديناً لهم بتأثيرات دخول، وتعريفي بأشخاص آخرين، وخدمات أخرى. كان الشخص الأخير على لائحتي سفير دولة عربية. ففي مقرّ إقامته الفخم في لاهاي، العاصمة السياسية لهولندا، احتسنا الشاي، وتباهيت بلغتي العربية للمرة الأخيرة. قال السفير إنه لأمر استثنائي أن تتخلي عن العمل كمراسل في أثناء تقدّم الأميركيين نحو بغداد. فقلت له إنني أردت التوقف قبل الاجتياح الأميركي، ولكنني استمرّيت عملي لمدة أشهر قليلة بسبب الحرب. في تلك الأثناء دخل أحد مساعدي السفير، وهمس في أذنه، فبدّل المحطة التلفزيونية التي كان يشاهدها منتقلاً إلى السي أن أن. فرأينا التمثال الضخم لصدّام حسين يسقط في ميدان الفردوس في بغداد. كان العراقيون المهللون يصيحون أمام عدسات الالات التصوير، ويضربون التمثال بأحذيتهم. «شكراً يا سيد بوش!» وصف المعلق التلفزيوني الأمر بمهابة قائلاً إنها «لحظة تاريخية»؛ انتهت الحرب، وباستطاعتهم وضع كابوس صدام حسين وراءهم. كانت بغداد تحتفل بتحريرها، كما أعلنت الصحف الغربية في اليوم التالي.

بعد ذلك، تحوّل السفير إلى المحطة التلفزيونية العربية؛ الجزيرة. كانت تعرض مشاهد لميدان الفردوس أيضاً ولكن من زاوية مختلفة. ففي

الميدان نفسه، رأينا الجنود الأميركيين يضعون راية أميركية على تمثال صدام فرحين بانتصارهم. شاهدنا بعد ذلك نقاشات محمومة وجنوداً أميركيين يندفعون لرفع الراية. واصلت الجزيرة نقل مشاهد عراقيين متهملين عن السي أن أن مُلتقطة من مسافة أبعد: باستطاعتكم التحقق من قلة الأشخاص الموجودين في الميدان في الواقع من مسافة لا تُخفي الوقائع.

ودَعْتُ السفير، وقمت في الأشهر التالية بما يميل المراسلون العائدون إلى القيام به؛ بدأت العمل على كتاب يتناول المنطقة التي كنت أعطيها. ولكنني أربكت على الفور. فلدى قراءة الصحف أو مشاهدة التلفاز، كنت أجد أحدهم يجادل قائلاً إن الأصوليين هم وراء هذا الحدث أو ذاك، وإنه لن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط «إلا إذا انسحبت إسرائيل من الأراضي المحتلة» أو «توقفت أميركا عن دعم الحكام الدكتاتوريين». فأقول في نفسي، حسناً، هناك براهين مُقنعة على ذلك؛ ومرة أخرى، هناك براهين مُقنعة تُثبت العكس. لم يكن باستطاعتي معرفة الحقيقة، ولهذا السبب لم يكن كتابي يُحرز أي تقدّم.

بعد ذلك، عدت بالذاكرة إلى أسبوعي الثاني كمراسل. كنت قد عدت للتو من السودان، وأنتظر في وزارة الإعلام في القاهرة ليتم ختم أوراقتي. كان يتطلب الأمر قليلاً من الانتظار، فتبادلت أطراف الحديث مع مراسل زميل ينتظر أيضاً. كان شخصاً متمرساً في الواقع، وأخبرني في غضون خمس دقائق بصوت مماثل لصوت مُسرفٍ في تناول الشراب أن صديقه المفضّل توفي في الحرب الإيرانية-العراقية. عندما قلت له إنني كاتب وإنني بدأت للتو عملي كمراسل، ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «إذا أردت وضع كتاب عن الشرق الأوسط، يُستحسن بك القيام بذلك

فوراً. فكلما أطلتَ التّمحّص بالموضوع بات فهمك له أقلّ».

لقد وجدت الأمر قاسياً، وربما كان صحيحاً من هذا المنظور. ولكن بعد عودتي إلى هولندا، بدأت أفهم ما عنى بقوله. فقبل انتقالني إلى الشرق الأوسط، كانت لديّ بعض الأفكار المُسبّقة عن تلك المنطقة مُستقاة بمجمّلها من وسائل الإعلام. وبعد وصولي، استبدلت هذه الأفكار شيئاً فشيئاً بالواقع نفسه الذي ثبت أنه أقلّ ترابطاً مع المنطق وأقلّ قابلية للفهم مقارنةً مع ما وصفه الإعلام. وقد بلغت هذا الاستنتاج للمرة الأولى في ذلك الكوخ الثالث في واو.

عندما ذهبت إلى هناك، كنت استند إلى معلومات مسبقة مستندة إلى تلك الصور التي أشاهدها في نشرات الأخبار عن الأشخاص الذين يبدو عليهم البؤس. ففي الكوخين الأوّلين، شاهدت أشخاصاً بؤساء، ولو لم أبادر إلى القول «مرحباً جميعاً!» في الكوخ الثالث، لغادرت ربما مع فكرة أن هؤلاء الأشخاص بؤساء أيضاً. لقد كانوا بؤساء في الواقع؛ كانوا على وشك التضرّور جوعاً تقريباً. لكن القصة لم تنته فصولها هنا. فالمنطقة المحيطة بواو خصبة بقدر خصوبة هولندا، وكان هؤلاء البؤساء مزارعين يوفّرون لأنفسهم أسباب العيش إلى أن قامت الفصائل المتحاربة بطردهم من أرضهم. فسوء الحظ هو ما يعاني منه بصفة رئيسية هؤلاء الأشخاص المقيمين في مخيم الجائعين.

عندما عدت بالذاكرة إلى سنواتي الخمس كمراسل، تبادر إلى ذهني العديد من الخبرات المماثلة. لقد أصبحت الأمور أكثر إثارة للاهتمام عندما عدت إلى ملفاتي، واكتشفت طريقة قيام الصحف بوصف واو. تضمّنت مقالتي رد الفعل المفاجئ لذوي الآمال المحطّمة في الكوخ الثالث والذين يبدو عليهم البؤس، بالإضافة إلى مقابلة مع الطبيب في مستوصف المعسكر. كان يعالج أسوأ الحالات ويناضل كل يوم

«لتخفيض عدد الوفيات اليومية في واو والبالغة ثمانين حالة». لقد أخبرني أن مشكلته الكبرى تمثلت بمعداتهم المنكمشة: «إذا أكلوا كثيراً تنفجر إمعائهم، وإذا أكلوا قليلاً ماتوا. علينا منعهم من الأكل حتى وإن كانوا يتضورون جوعاً بكل ما للكلمة من معنى. ووفقاً للكتب الطبية الدراسية، يُعتبر هؤلاء الأشخاص أمواتاً».

يدعو المحررون تلك الجملة الأخيرة اقتباساً رائقاً، وقد جعلتها غرفة تحرير نشرة الأخبار العنوان الرئيسي، وزوّدت الخبر بصورة مُنكرة مُرفقة بالتعليق التالي: «في مخيم للاجئين بالقرب من أجيب، وفي مكان غير بعيد عن واو جنوبي السودان، وضعت امرأة مولوداً. في الكوخ الميداني نفسه، يرقد أحد أفراد عائلة تتضور جوعاً على فراش الموت». إلى اليمين، هناك رجل نحيل يحاول ربما اكتشاف مصدر الصوت الغريب الذي تُصدره آلة التصوير؛ وفي الوسط، طفل يبكي؛ وإلى اليسار قابلتان مع والدته حامل قلقة.

كانت صورة معبرة بفضاطة، ولكن كان بإمكان المحررين اختيار صورة أشخاص يتسمون في الكوخ الثالث، واعتماد اقتباس مختلف عنواناً رئيسياً على غرار ما نُقل عن لسان أحد أطباء المعسكر الآخر: «إن قدرة هؤلاء الناس على التحمل لا يمكن تخيلها. ما كان باستطاعة أي شخص غربي النجاة من هذا الوضع، ولكنهم ينتظرون السلام هنا، وسيسيرون مئات الكيلومترات للعودة إلى قراهم، وزرع الفول السوداني، وحفر أرض بالمعول كّفوا عن استصلاحها منذ زمن بعيد».

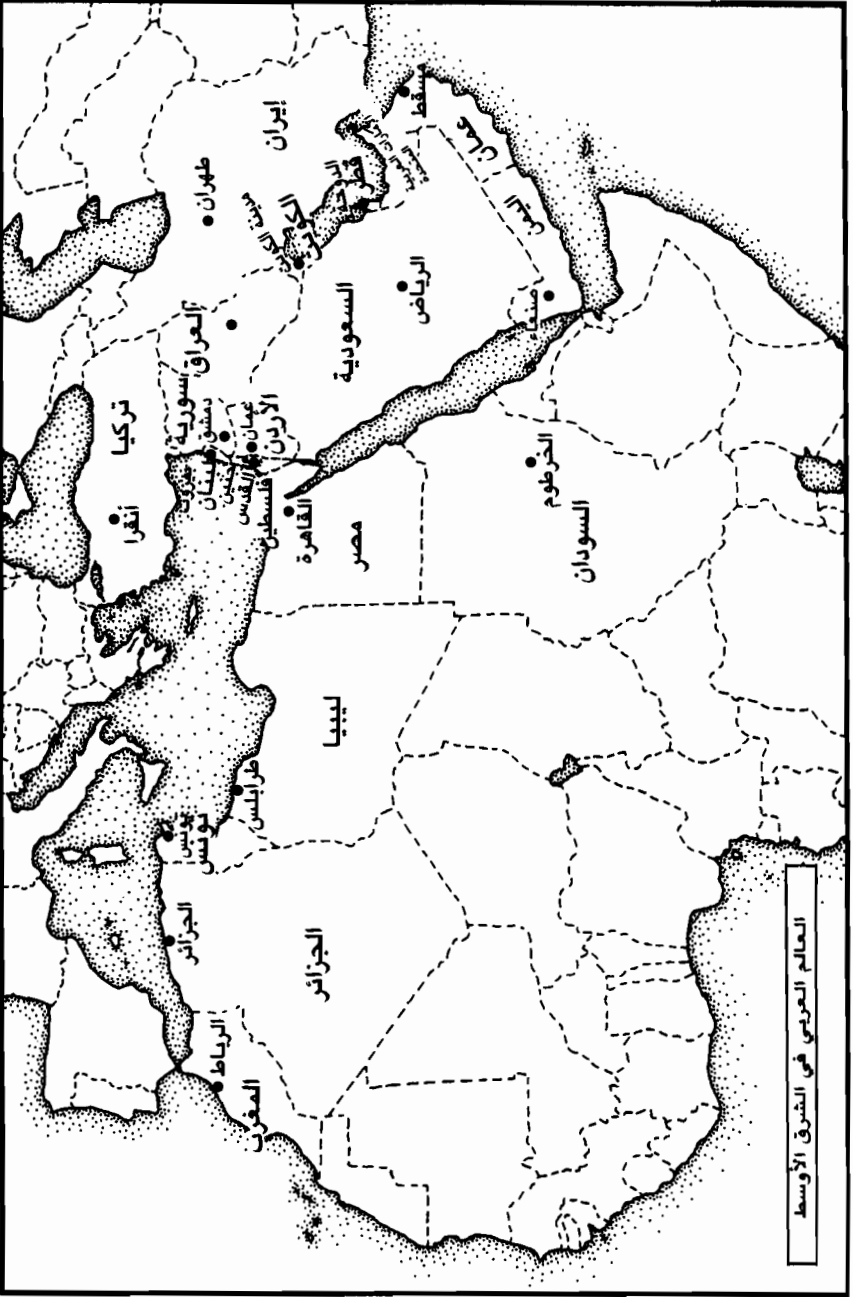
بما أنني مراسل، يمكنني سرد روايات مختلفة عن الوضع نفسه. وكل ما تقوم به وسائل الإعلام هو اختيار رواية واحدة تكون في الغالب الرواية التي تعزز فكرة عامة معتمدة عموماً، كصورة الأشخاص البؤساء

في واو الذين يُعتبرون أمواتاً وفقاً للكتب الطبية الدراسية، وذلك بدلاً من صور أشخاص يتمتعون بقدرة لا توصف على التحمل ويعانون من الكثير من سوء الحظ.

خلال السنوات الخمس تلك، كان لي الكثير من الخبرات المماثلة، مما جعل من أحداث ميدان الفردوس خاتمة ملائمة. لقد رحّب الصحفيون الأميركيون والأوروبيون بسقوط بغداد، وقد أرسلت لهم صور عراقيين فرحين يطيحون بتمثال صدام، وهو أمر ينسجم مع توقعاتهم معتبرين أن العمل قد أنجز. أما قناة الجزيرة فاعتبرت سقوط بغداد بداية احتلال، وبحثت عن صور ترمز إلى وجهة نظرها، وإحدى هذه الصور تُظهر أميركيين منتصرين يرمون رايتهم بشكل عفوي على التمثال.

هكذا، كانت الصورة والواقع يتباعداً. وعندما أدركت ذلك، اخترت الرواية التي أريد سردها. فلم أشأ وضع كتاب يشرح الطريقة التي يمكن للعالم العربي أن يصبح من خلالها مثلنا، أو من هو المُحَقِّق أو المخطئ في النزاع القائم بين إسرائيل والفلسطينيين؟ لقد أردت أن أكتب النقيض؛ كتاب يُظهر مدى صعوبة قول أمور ذات معنى في شأن قضية رئيسية كقضية الشرق الأوسط؛ أم ربما وضع كتاب ببساطة حول كل تلك اللحظات التي وجدت نفسي أقول فيها، مرحباً جميعاً!

القِسْمُ الأوَّل



الفصل الأول

صحافة للمبتدئين

يتعلم معظم المراسلين المهنة في بلدهم الأم ويُرسَلون بعد ذلك إلى العالم. لقد قمت بالأمر بشكل مختلف: لم أدرس الصحافة بل العلوم الاجتماعية واللغة العربية. وكجزء من مقرري الدراسي، قضيت عاماً في جامعة القاهرة. بعد ذلك، وضعت كتاباً عن الأمر، وهكذا، بلغ اسمي صحيفة فولكسكرانت ونشرات راديو 1 الإخبارية.

هذا يعني أنني كنت على قدر كبير من قلة التمرس عندما حان موعد تسلّمي المنصب في القاهرة. وبالرغم من السماح لي بممارسة العمل لأيام قليلة على سبيل الاختبار في مكاتب الصحيفة والإذاعة قبل مغادرتي إلى مصر، استمرّيت بالنظر إلى الصحافة كما ينظر إليها القارئ والمشاهد والمستمع العادي. فالصحفيون على علم بما يجري في العالم، كما كنت أعتقد؛ والنشرات الإخبارية تقدّم نظرة عامة عن هذه الأحداث، ومن الممكن إبقاء تلك النظرة في إطار موضوعي.

لقد بقيت قلة قليلة من هذه الأفكار على حالها من دون إدخال أي تعديل عليها في السنوات التي تلت. لكن إعداد الفقرة الإخبارية المتعلقة بالاسرائيليين والفلسطينيين دمّرت معتقدي بإمكانية وجود أخبار

غير منحازة. في السنوات التي سبقت شغلي ذلك المنصب الدقيق - منذ أسبوعي الأول في واو حتى هجمات 9/11 وما تلاها - تعلمت أن الصحافة الجيدة في العالم العربي ليست سوى تعابير متناقضة، مما يعني أنه ليس باستطاعتك معرفة ما يجري هناك. لا يمكنك معرفة ذلك كصحفي، ولا يمكنك معرفة ذلك في الواقع كمشاهد أو قارئ أو مستمع.

لقد اكتشفت هذا الأمر بالتدريج، ولم تتضح لي بعض الأمور إلا بعد حدوثها، ولكن شكوكي كانت قد بدأت في مرحلة سابقة عندما استيقظت ذات يوم واكتشفت أنني مراسل لشؤون الشرق الأوسط، فأطلق العنان لشعوري بالإجهاد.

في الأسبوع الأول من وجودي في القاهرة، كنت هناك بين حقائبي غير المفتوحة عندما رنّ الهاتف. فقال لي شخص ما من مكاتب الصحيفة: «عليك الذهاب إلى السودان!». كنت قد عثرت للتوّ على شقة، ويات عليّ الآن مغادرتها على الفور إلى بلد لم يسبق لي أن زرته من قبل! كيف تجري الأمور في هذه الحالة؟ هل لديهم أي أمراض هناك يتعيّن عليّ جمع معلومات عنها؟ فشعرت أن قلبي ينبض بأقصى سرعة، ولم أكن أدرك حتى تلك اللحظة أنني سأزور مخيماً للجوع. والأكثر تسبباً بالحرّج هو أنني لم أكن على علم بحدوث مجاعة في السودان. لقد اتصلت بي الصحيفة بسبب قيام ما أطلق عليها اسم «الجبهة الإسلامية في مواجهة اليهود والصليبيين» بتفجير سفارتين أميركيتين في أفريقيا. ورداً على ذلك، قصفت واشنطن معسكرات التدريب الحدودية في أفغانستان ومصنعاً في السودان. وادّعى الأميركيون أن المصنع يُنتج أسلحة كيميائية، ويملكه زعيم الجبهة المدعوّ أسامة بن لادن، ولكن واشنطن لم تقدّم أي دليل، ووفقاً للنظام الحاكم في الخرطوم، كان

مصنع الشفا يُنتج أدوية.

بينما كنا مصطفين أمام السفارة السودانية في القاهرة، شرح لي صحفيون زملاء ما يجري: طيلة سنوات، سمحت حكومة الخرطوم بدخول أقل عدد ممكن من الصحفيين الغربيين إلى أراضيها، إدراكاً منها أنهم لن يكتبوا سوى ما يشير إلى سوء ممارسة الحكم، والاستغلال، وجرائم الحرب. من الواضح أن النظام بات يفترض أن الصحفيين سيكتبون قصصاً مثل «أميركا تدمر منشأة صيدلانية في سودان يزرع تحت عبء فقر مُدقع»، لتخطى الأمر الآن. لقد حصلتُ على تأشيرة الدخول في غضون ساعة.

فحجزت على متن رحلة جوية، واجتزت تيارات هوائية عكسية على غرار الصحفيين الأكثر تمرّساً، وبقيت في الأكروبوليس كمعظم الأوروبيين وهو فندق صغير يمكن تحمّل تكلفة الإقامة فيه، وهو بإدارة عائلة يونانية تُقيم في المدينة منذ أجيال. فالجميع يتناولون الطعام معاً، ولم تكن غرف النوم مزوّدة بخطوط هاتفية دولية، والردهة الرئيسية هي المكان الوحيد الذي يمكنك مشاهدة التلفاز فيه. بالمقابل كان كل الأميركيين، من دون استثناء، ينزلون في فندق الدرجة الأولى، هيلتون، الذي يأوي أيضاً مكتب الصحافة المؤقت للنظام السوداني.

لم أكن أملك أي فكرة عما يُفترض بي القيام به، وفي صباح اليوم التالي، حذوت حذو نظرائي ببساطة. كانوا أنيسي المعشر بمجملهم، واتضح لي بعد فترة قصيرة سبب عدم شعورهم بالقلق في أثناء الرحلة الجوية مساء أمس؛ لقد كان كل شيء مُعداً لنا. ففي المصنع الذي تعرّض للقصف، جمع السودانيون مجموعة من بقايا الصواريخ الأميركية وأدلة على الهجوم مثيرة للمخيلة وملفتة للنظر. كانت لوحات المفاتيح الموجودة بين زجاجات الدواء، وأجهزة الهاتف المسوّدة، وآلات

عرض الشفافيّات، تغطي المكان. قادنا العاملون في وزارة الإعلام إلى المستشفى حيث الجرحى، وإلى التظاهرات الصغيرة الحجم في المدينة التي بدت أكبر حجماً لدى تصوير مشاهد عن قرب كما عرضتها السي أن أن: «حشود غاضبة تحتج على القصف الذي تعرّضت له الخرطوم». كان هناك مؤتمر صحافي يومي حيث لا يتم الإعلان عن أي جديد. بالرغم من كل شيء، ما الذي يمكن للنظام أن يقوله؟ «البلد الأكثر فقراً في أفريقيا يهدد الولايات المتحدة بالعقوبات؟» مع ذلك، فإنه المكان حيث يمكنك تبادل ما يتم تداوله من أخبار ساوّة ومثيرة، وكان مدير التصدير في الشفا يتنقل في الأرجاء بلا كلل مُخبراً قصته لمجموعات الصحفيين المتدفقة. «سيكون على الرئيس الأميركي الاعتذار ببساطة».

هكذا جرت الأمور، وثبت أن القصف كان مادة مفيدة للنشرات الإخبارية طوال ثلاثة أيام: التقرير («صواريخ كروز على السودان»); وردود فعل عامة الناس («كليتون يكذب في شأن الشفا أيضاً»); والتحليل («الخرطوم تستغل الهجوم الأميركي»). بهذه الطريقة، تمت تغطية حادثة القصف، وتقدمت قافلة الإعلاميين بحثاً عن قصة تالية.

لا يمكن أن تكون تلك القصة قصة المجاعة جنوبي السودان، قال صحفيون آخرون، بالرغم من أن المئات يقضون نحبهم هناك كل يوم. ولكنني أردت مشاهدة البؤس على الأرض، فطلبت مني صحيفتي التحقق من مدى إمكانيّتي مقارنة هذا الموضوع. فقامت بالاستفسار، واكتشفت أن الجنوب مفتوح للصحفيين مؤقتاً كجزء من الحملة التي تشنّها الخرطوم. وبما أن هولندا تمنح السودان قدرأ كبيراً نسبياً من المال لغايات تطويرية، تمكنت السفارة من تأمين تصريح سفر لي إلى منطقة الحرب. كان أطباء بلا حدود تواقين إلى بعض التغطية الدعائية

لنشاطاتهم، فقدّموا لي مقعداً على متن طائرتهم في مقابل قيامي بذكر اسم منظماتهم في مقالتي. وهكذا ذهبت.

لقد اعتبرت هيئة التحرير في الوطن أن رحلتي إلى السودان بداية ممتازة لمهنتي. ولكنني كنتُ مُثَقَلًا بالإرباك والانطباعات الجديدة في أثناء عودتي إلى القاهرة. كنتُ أعتبر اللاجئين على الدوام ضحايا، ولكن أكبر المشكلات التي كانت تواجهها منظمة أطباء بلا حدود هي التعرض للّعنف والسرقة. لقد دأب المقيمون في المخيم على سرقة موظفي الإغاثة، وسرقة بعضهم بعضاً، وخوض نزاعات ثأرية، وإتلاف المساعدات الغذائية ما لم يحصلوا على معاملة مميّزة... لم أكن أتخيّل أبداً حدوث ذلك من قبل، ولكن عندما أخبرني منسّق المخيم عن الأمر، قلت في نفسي، ماذا كنت تتوقع؟ وينطبق الأمر نفسه على المسؤولين والبيروقراطيين. كنت قد افترضت أنهم يريدون وضع حدّ للبؤس، ولكن الأمور لا تسير على هذا المنوال. فالمسؤولون الرسميون يعرفون أنه يتعيّن على منظمات الإغاثة الغربية تسليم السلع التي وعدوا بتوفيرها، وأن وظائف العاملين في ميدان الإغاثة ستكون على المحك إذا لم يصل الغذاء للأشخاص المحدّدين في الوقت المحدّد. لذلك، يقوم المسؤولون بابتزاز موظفي الإغاثة؛ يُدفع رسم بقيمة ألف دولار للحصول على ترخيص لتوزيع شحنة غذائية للجنوب؛ من دون هذه الدفعة من المال، يُترك الغذاء في الميناء ليتعفن.

في القاهرة، نمت طيلة أربع وعشرين ساعة، وأفرغت بضعة حقائب، وحلّ بعد ذلك صباح يوم الإثنين. فجلست إلى طاولتي، وصففتُ بطاقات عمل مراسل شؤون الشرق الأوسط الخاصة بي، وتحققت من عمل الفاكس والهاتف وجهاز الكمبيوتر والإنترنت، وفكرت ماذا لو اختُطف سائح غربي في اليمن، أو فُجّر زعيم في لبنان، أو خرجت

تظاهرات غاضبة يدعمها نظام بغداد، أو حوصرت مجموعة أصولية في جنوب مصر حيث أقيم؟... أتى لي أن أعرف ذلك؟ قد تقول لي إنه يتعيّن عليّ متابعة النشرات الإخبارية، ولكنني أنا الأخبار الآن.

لقد انتهى الأمر بالعمل الإخباري على هذا النحو: تشترك كل مكاتب الصحف، والإذاعات، ومحطات التلفزة، في النشرات الدورية التي توفرها وكالات أنباء مثل رويترز، ووكالة الصحافة الفرنسية، والأسوشيتد برس، إضافةً إلى منافسيها الأقل أهمية. وترسل هذه الوكالات مراسلين لتغطية أحداث هامة، ويكون لديها أيضاً بائعو معلومات سرّية على جدول الرواتب حتى في أقصى أقطار العالم. وعندما يقع أحد أولئك المراسلين أو بائعي المعلومات الذين يعملون لصالح رويترز، مثلاً، على خبر جدير بالاهتمام، يتصل بمديره المباشر الذي يقوم بدوره باستشارة رؤسائه. فإذا أعطى هؤلاء الضوء الأخضر، ينطلق المراسلون والمصورون في مهمة التغطية. وترسل صورهم ومعلوماتهم إلى العاصمة المحليّة أو إلى لندن حيث تُحوّل إلى ملحق إخباري يتم إرساله بأسرع وقت ممكن لآلاف المحررين في مختلف أنحاء العالم: مؤتمرات صحافية، مآتم، أرقام قياسية عالمية، عمليات إطلاق نار، نتائج انتخابات، مآثر طبيعية، زلازل، عمليات إنقاذ مثيرة للدهشة، تساقط غير متوقّع للثلوج، حوادث حدودية...

فوكالات الأنباء هي أعين العالم وأذانه، والتعابير المستخدمة في صناعة الخبر للدلالة على فيض المعلومات التي ترسلها هي تدفق الأخبار أو ببساطة الوكالات أو الأنباء. فيقال على سبيل المثال: «هنا استوديوهات هيلفرسام. تفيد الأنباء عن اعتقال بعض الأصوليين في منطقتك. هل لديك أي معلومات إضافية عن الموضوع؟» في البدء، كنت أريد الصراخ أحياناً والقول: «كيف تتوقع مني أن تكون لدي معلومات أخرى عن الموضوع بينما تتحفظ وسيلة الإعلام المحلية على الأخبار

طيلة أيام متواصلة؟» لقد كان بالطبع سؤالاً معيارياً، ولكن معناه الضمني يحمل طابع الإهانة: لو كانت هيلفرسام تتمتع بقدرة أسرع وأفضل من قدرتي لمعرفة ما يحدث في منطقتي، ماذا كان ليحلّ بي؟

إن العرض للأحداث الجارية هي المهمة الرئيسية لكل مراسل كما اكتشفت بعد شهر ونصف عندما هيمنت الأحداث التي شهدتها الشرق الأوسط على الأخبار العالمية لمدة من الزمن. كان صدام حسين لا يزال في سدة الحكم في العراق عندما طرد مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة من بلده، وأصرّت الولايات المتحدة على السماح لهم بالعودة مهذّدةً إياه بالتعرّض للقصف.

حدّد موعد نهائي لتنفيذ الإنذار، فسارع الصحفيون للانتقال إلى الأردن المجاور حيث السفارة العراقية الوحيدة التي كانت لا تزال تزاوّل مهامها. واجتمعتُ مجدداً بالصحفيين الذين تعرّفت إليهم في السودان، ولكن كان هناك العديد من الوجوه الجديدة مما حال دون أن يكون اجتماعاً ودياً. وبما أن قيام أميركا بقصف العراق هو خبر جدير بالاهتمام أكثر من قيامها بقصف السودان، تدفّق المراسلون إلى الأردن من مختلف أنحاء العالم. وانتقلوا من ثم إلى أفريقيا ثم إلى آسيا. كانت هناك بعض المشاهد المثيرة للاهتمام في فنادق الدرجة الأولى في عمّان: دبلوماسيون ورجال أعمال غربيون كانوا يزاولون أعمالهم في العراق انتقلوا من بغداد إلى عمّان على عجلٍ بعرباتهم ذات الدفع الرباعي، وصحفيون وصلوا إلى عمّان على عجلٍ ليتنقلوا بعد ذلك إلى بغداد على وجه السرعة. كان هناك أيضاً عملاء سرّيون عراقيون في فنادق الدرجة الأولى يحاولون وضع تقارير عن الأشخاص الذين يتحدث إليهم النازحون العراقيون.

كان الجوّ عائلياً بالرغم من ذلك الكمّ الكبير من المراسلين الذين يغطون الأحداث التي تشير إلى حرب وشيكة، وهيمنت المسائل العملية على نقاشاتنا. كنا ننشاور مع مصادر معلوماتنا، ونتحدث خلسةً عبر هواتفنا، ونحاول استنطاق أشخاص آخرين بعد تقديم الكثير من الشراب لهم، أو التماس المساعدة من البي بي سي؛ كانت هناك شائعة تتناول وجود موظف تابع لهم في وزارة الإعلام العراقية مُدرج على جدول الرواتب، ويمكنه الحصول على تأشيرات دخول. فالحصول على تأشيرة دخول كان الشغل الشاغل للجميع ولي أيضاً. يا له من كابوس مهين: تملأ الاستمارة، وتقصد السفارة العراقية مرتين في اليوم للاستماع إلى القنصل الجالس تحت صورة كبيرة لصدام حسين المكرّس والظافر يتلو أسماء المحظوظين القلائل. لقد احتكينا بالقنصل كأطفال يتحلّقون حول رجل يحمل سكاكر، وكنت أرى أشخاصاً بالغين دامعي الأعين أمام بوابات السفارة بعد أن يكتشفوا أنهم ليسوا من المحظوظين، ويقتصر عملهم على التحديق عبر السياج. وربما كان هناك بعض العزاء لهم عندما أصيب القنصل بنوبة قلبية بعد فترة قصيرة بسبب الإجهاد، فأرسلت بعض المؤسسات الإخبارية سلال فاكهة.

في الفندق، كنا نتناول المشروبات بأجمعنا. بعد أن نفذت مني الكلمات، شربت معهم لسبب وحيد وهو أن الشراب يساعدي على نسيان حقيقة أنه لم يتم منحي أيضاً تأشيرة دخول إلى العراق، ويتعيّن عليّ تغطية الحرب من غرفة فندقي في عمّان.

بدأت عمليات القصف الجوي، وساد المراسلين، ولا سيما المستقلين منهم، ارتياحٌ غير ظاهر. كان باستطاعة صدام التراجع في الدقيقة الأخيرة وتجنّب القصف، وفي هذه الحالة يبقى المراسلون الذين أنفقوا أموالاً للقدوم إلى عمّان بلا عمل.

وردت تقارير وكالات الأنباء حول عمليات القصف الجوي الأولى، وبدأ راديو 1 الهولندي الإخباري ببث متواصل. ولكن هل هناك أنباء لرفع تقارير بها؟ لم يكن بالإمكان بعد تحديد ما إذا كانت كل الأهداف قد أُصيبت. ولكن إعلان سلاح الطيران الأميركي أن كل شيء يسير وفقاً للخطة الموضوعة، كان مقياساً لكيفية سير المعركة؛ لم يكن باستطاعتي نقل هذا الخبر سوى مرتين. أليس هناك تطورات أخرى؟ لكنني لم أتمكن من مغادرة الفندق. ولم يكن الليل قد انتصف فحسب بل إن جودة الصوت التي توفرها شركة الهاتف الأردنية كانت منخفضة جداً لإجراء حديث تداخلي بواسطة هاتف الإذاعة الخليوي.

كنت أخشى أن يبلغ بي الأمر حدّ أخذ رأي نادل خدمة الغرف في فندقنا، في شأن عمليات القصف الجوي. ولو حدث ذلك، لظن الرجل أنها فرصته الكبيرة، ولقال أمراً مماثلاً: «والله، سيشتد الغضب علي أميركا». بعد عشر دقائق، شاركت في برنامج إذاعي مباشر، وتحدثت أولاً عن خبر تلقيته من نشرة إعلامية لإحدى وكالات الأنباء، قام الاستوديو في الوطن بإرسالها لي عبر الفاكس، ومن ثم عن خبر أوردته الجزيرة يمكن الاطلاع عليه في هولندا، وأخيراً عن رأي المواطنين العرب العاديين. لقد تحدثت بصوتٍ خبيرٍ وقلت: «يصعب الحكم على مجريات الأمور، ولكنكم تسمعون أشخاصاً يقولون إن هذه التصرفات تعود على الأصوليين بالفائدة. على أي حال، إنهم في وضع يؤهلهم للإفادة القصوى من الغضب المتنامي ضد أميركا الذي ستتسبب به الغارات». دعا البيت الأبيض الغارات عملية ثعلب الصحراء، وأدركت شيئاً فشيئاً سبب هذه التسمية. والأخبار، هي أيضاً، نوع من أنواع العمل الاستعراضي. لهذا السبب، كنت في عمان أوجز النشرات الإعلامية الواردة من هيلفرسام حول عمليات القصف الجوي التي تتعرض لها

بغداد، وذلك بدلاً من قيامي بالأمر في استوديوهات هيلفرسام. من عمّان يبدو وقعها أفضل على المسامع. كما تعلّمت تعبيراً صحافياً جديداً: مكان الصدور أي مكان إعداد المقالة أو التقرير: «مراسلنا في العاصمة الأردنية عمّان. جوريس، كيف تبدو الأحوال هناك؟»

يُكوّن رؤساء التحرير رأياً عن مراسليهم من خلال مكان الصدور: إذا كنت «تملك المعلومات» وكنت «هناك»- أي إذا لم تُغفل حدثاً رئيسياً تورده وكالات الأنباء وكنت موجوداً في مكان الحدث - تكون قد أحسنتَ عملاً، وإلا، «تحليل جيد، وأمر مؤسف بالنسبة إلى مكان الصدور». لذلك بكى أولئك البالغون عند بوابات السفارة العراقية في عمّان. ولو كانوا في بغداد، لّلزموا غرفهم على الفور وحُكم عليهم باستخدام وكالات الأنباء نفسها على غراري في عمّان (هذا إذا كانت أجهزة الفاكس تعمل)؛ ولكنهم كانوا ليسجلوا نجاحاً هناك على الأقل بسبب وجودهم في مكان أقرب إلى موقع الحدث.

في الليلة الأولى، بثت الإذاعة ساعات وساعات من التغطية، وشاركت بالتغطية عملياً كل ساعة («هل الغضب لا يزال يتنامى؟»). بعد ذلك، سألتني أحد الأصدقاء عن كيفية تمكّني من الإجابة عن كل الأسئلة التي طُرحت عليّ كل ساعة ومن دون تردد في أثناء تلك الأحاديث المتداخلة. وعندما قلت له إنك تطّلع على كل الأسئلة مُسبقاً كما هو الحال في البرامج الحوارية التلفزيونية، جاء رد فعله عبر البريد الإلكتروني مُرفقاً بكلمات وعلامات تعجّب. كان صديقي يدرك أن ما دأبنا على مشاهدته والاستماع إليه طيلة عقود على النشرات الإخبارية كان عملاً مسرحياً بحتاً.

كنت قد أصبت بالدهشة والإطراء عندما عرضت عليّ صحيفة فولكسكرانت والمحطة الإذاعية وظيفتي مراسل. وبالرغم من افتقاري إلى الخبرة الصحافية أو الاطلاع على سياسة المنطقة، أردت الاعتقاد أنهما يثقان بقدراتي. ولكن السبب الحقيقي لا يرقى إلى مستوى الإطراء عليّ، إن مهمة المراسل ليست بهذه الصعوبة. كان المحررون في هولندا يتصلون بي عندما يحدث أمر ما، ويرسلون النشرات الإعلامية عبر الفاكس أو البريد الإلكتروني، فأعيد سرد مضمونها بكلماتي الخاصة عبر أثير الإذاعة، أم أعيد صياغتها على صورة مقالة للصحيفة. لهذا السبب، اعتبر المحررون أن إمكانية الاتصال بي في المكان نفسه أكثر أهمية من أطلاعي على مجريات الأحداث. فوكالات الأنباء تزودك بمعلومات كافية تمكّنك من كتابة الخبر المتعلّق بأي أزمة أو لقاء قمة، أو سرده بطريقتك الخاصة.

لقد تطلب الأمر الاعتياد على ذلك، وتلقّى المفهوم الذي كنت قد كوّنته عن الصحافة، والأخبار، ووسائل الإعلام، الصفعة الأولى. كنت أتخيّل أن المراسلين هم مؤرّخو اللحظة. فعندما يحدث أمر هام، يقومون بمتابعته، ويكتشفون ما يجري، ويرفعون به تقريراً. ولكنني لم أبرح مكاني لاكتشاف ما يجري؛ كان يحدث ذلك منذ زمن طويل. فما كنت أقوم به هو تقديم تقرير من مكان إقامتي، وما كنت لأرتاب أبدأ بهذه الطريقة، ولكنها منطقية فكل يوم هناك آلاف المؤتمرات الصحافية، والقمم، والمآتم، والتظاهرات، والهجمات، وأعمال الشغب. كيف تتمكن هيئات التحرير من إلقاء نظرة عامة على كل هذه الأحداث؟ بالإضافة إلى ذلك، هناك عدة آلاف من الفرق الإخبارية في أنحاء العالم؛ تخيّل أن الجميع يحضرون مؤتمراً صحافياً أو مأتماً...

بعد فترة قصيرة، وفي أثناء زيارتي الأولى إلى هولندا للاجتماع

بهيئة التحرير، أدركت سبب سماح رؤسائي لأنفسهم بالانقياد بشكل أعمى وراء وكالات الأنباء والتشديد على أن «تكون هناك» و«تملك المعلومات». كنت أظن أن قسم الأخبار العالمية هو مجموعة من الرجال والنساء المطلعين الذين يملكون فكرة عن العالم، ويتخذون قراراً بعد تفكير معمق في شأن الأحداث التي تصلح لتشكيل النشرة الإخبارية. الأشخاص العاملون خارج إطار هيئة التحرير مطلعون أيضاً، ولكنهم لا يراقبون مجريات الأحداث العالمية؛ هم يتابعون وكالات الأنباء، ويقوم مدير التحرير باختيار مجموعة من الأخبار المرسلة من قبل الوكالات التي سبق لها أن اختارت مجموعتها الخاصة وفقاً لأهميتها خبر عاجل، ملحق إخباري، وخبر مفصل.

مرة أخرى، ما كنت لأرتاب بهذا الأمر أبداً، ولكن عندما شاهدت كيفية إعداد النشرات أدركت أن لا وجود لأي طريقة أخرى. فالمحرر الأجنبي لا يملك خبرة مباشرة بالعالم العربي؛ هو يعمل تحت تأثير ضغط الوقت الذي يفرض إعداد النشرة الإخبارية قبل الموعد المحدد لبثها، وعليه تغطية العالم، وإدخال أي تعديل يقترحه رئيس التحرير بعد الاطلاع على الخبر المحرر، ولهذا الأخير معلومات أقل عن العالم العربي، ويتعين عليه الإشراف على كافة أقسام النشرة (المحليات، الرياضة، الاقتصاد، الفن...)، بالإضافة إلى التعاطي مع كم كبير من المهام الإدارية المتزايدة. ما الذي يمكن لرئيس التحرير ومدير التحرير القيام به سوى متابعة وكالات الأنباء ومتابعة المنافس المباشر لوسيلتهما الإعلامية وطرح السؤال التالي: «لماذا لا ندرج هذا الخبر؟» لهذا السبب تقع على الصور والأخبار نفسها كلما تصفحت صحفاً مختلفة أو تنقلت بين محطات تلفزيونية إخبارية. فكل المحررين يحصلون على معلوماتهم وصورهم من المصادر نفسها. لهذا السبب أيضاً، لا يميل الأشخاص

الذين يترجمون النشرات الإعلامية ويعيدون كتابتها إلى دعوة أنفسهم صحفيين بل محررين. فهم لا يسافرون، بل يترجمون الرسائل ويقوم المراسلون بإعادة صياغتها.

لحسن الحظ، لا يقتصر عمل المراسل على سرد الأخبار فقط، بل يُتَوَقَّع منه إجراء تحليل ووضع تقرير أو تحقيق. ولكن كيف يكون باستطاعتي إتمام ذلك من دون الاعتماد على نادلي خدمة الغرف؟ لقد عرّفني مراسلون آخرون بمجلات متخصصة، ومواقع انترنت تتناول الشرق الأوسط، ومنشورات للأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، ومؤسسات استشارية متنوعة. ولكل بلد عربي دبلوماسيّه في الأمم المتحدة، وخبراؤه المحليون، وناشطوه في ميدان حقوق الإنسان، الذين يتحدثون إلى الصحفيين. فتطرح عليهم أسئلة حول مسألة معيّنة وتضع ملاحظاتهم في مقالة: «وفقاً للرأس المتكلم، وهو أستاذ مادة العلوم السياسية في جامعة القاهرة، لا يدرك الناس - كما يبدو - أن عدداً كبيراً من العرب ليسوا ضد أميركا بل ضد السياسة الأميركية المتبّعة». فهذا النوع من الأشخاص يُدْعَوْنَ رؤوساً متكلمة، ويملك زملائي المراسلون لوائح بهم وبأرقام هواتفهم. ويمكنك أيضاً الاستعانة بخدمات شخص محلّي يعدّ لك لقاءاتك ويقوم بالترجمة عند الضرورة، وذلك بتكلفة مئة أو مئتي دولار يومياً.

لقد ساعدني زملائي بتحليلي الأولى، واعتمدت عليهم في تقاريري وتحقيقاتي الأولى. كانت لوائحهم التي تحتوي على قصص جاهزة الأكثر إفادة: «هل أعددت نصاً حول... إساءة استخدام القات في اليمن/ جرائم الشرف في الأردن/ مدى الوعي للأيدز في مصر؟ اتصل بي غداً؛ لقد حصلت على كافة مصادر المعلومات».

كان هناك أيضاً بنك معلومات يدعى لكسيس نكسيس حيث يمكنك

شراء مقالات نُشرت في السنوات الأخيرة في مختلف الصحف الغربية الكبيرة تقريباً. إنه منجم ذهب من الأفكار والمعلومات المتممة، ويجري الأمر عملياً على النحو التالي: في رويترز أو النيويورك تايمز، اقرأ تقريراً للأمم المتحدة حول الأيتام القاصرين الذي يجمعون نفايات 22 مليون مقيم في القاهرة. وبعد ذلك، يرسل لي لكسيس نكسيس بريداً إلكترونيّاً يحتوي على عشرين مقالة تتناول جامعي النفايات، فأبحث فيها عن وقائع وصور متعلقة بموضوع بحثي؛ عدد الأطفال، الأمراض والوفيات بسبب الأدخنة السامة، والتكاليف التقديرية للحلول البديلة لجمع النفايات. بعد ذلك، أدوّن على عجل أسماء موظفي الأمم المتحدة واقتباسات لناطقين آخرين بلسان منظمات أخرى، وأحصل على أرقام هواتفهم من صحفيين آخرين أو من الإنترنت، وأتصل بهم. وعندما كنت أنتظر أياماً قليلة قبل البدء بجمع المعلومات ووضع تحقيقات، كان مراسلون آخرون يتقدمونني في هذا الإجراء. أما المسؤولون الذين يكونون قد قابلوا العديد منا فيكون باستطاعتهم تلاوة اقتباساتهم في أثناء نومهم بسبب كثرة تكرارها. أخيراً، ومراعاةً للجانب الإنساني، أقصد كومة قمامة وأجد هناك طفلاً، فيقول لي إنه يفضل اللعب في الخارج ولكن عليه تناول الطعام؛ فتى يفتخر بكونه يجني مالاً بدلاً من قضاء أيامه في صف مدرسي مليئاً بالتلاميذ، يتلقى الضرب من قبل مدرّسه، وغير قادر على البقاء على مستوى واحد مع الآخرين لأنه شبه أمّي.

قبل ذهابي إلى الشرق الأوسط، مازحتُ أصدقاءً لي قائلاً إنه إذا كان شعار الجيش «شاهد العالم، التقِ أشخاصاً مثيرين للاهتمام، واقتلهم»، يُفترض بصرخة المعركة أن تكون «شاهد العالم، التقِ أشخاصاً مثيرين للاهتمام، واكتب عنهم». ولكن عندما مرّت الأسابيع وكبرت

شهرتي، وأدركت ما يقتضيه العمل، لم أعد أستخدم هذه الدُعاة. قد أشاهد العالم... من خلال نافذة طائرة أو سيارة أجرة ربما، ولكن ما أشاهده في الغالب هي سفارات، وردحات المغادرة، وغرف فنادق، ومكاتب. كان هناك انتظار، الكثير من الانتظار، حتى مغادرة الرحلة الجوية المتأخرة، ووصول الحافلة، والرد على اتصالي الهاتفي باتصال آخر كما وُعدتُ أم يُفترض بي الاتصال مجدداً؟ هل يُعتبر ذلك وقاحة؟ أم أنني ساذج لظنّي أنهم سيردّون على اتصالي من خلال صحفي من بلد ما لا يمكنهم تحديد موقعه على الخارطة؟ هل يُفترض بي الانتظار حتى يجد القنصل أن الوقت بات مناسباً لمقابلتي، أم أنه يعود إلى منزله دون قول أي شيء؟

لم يكن رؤسائي في الوطن يفهمون كما يبدو أن وزارات الإعلام، ووكالات السفر، والسفارات في الشرق الأوسط مختلفة عن تلك الموجودة في الغرب. إذا توجّهت مع حقائبي للحصول على تذكرة السفر كما هو مخطّط له سلفاً، قد يتبيّن لي أن وكالة السفر قد أقتلت أبوابها في منتصف اليوم لسبب غير واضح؛ أم أن التذكرة تكون غير جاهزة بعد، أم يظهر عليها المكان المقصود بشكل غير صحيح أو تاريخ العودة يكون غير صحيح. وأصبح المصور الفوتوغرافي الموجود عند زاوية الشارع حيث أقيم والذي يُعدّ صوراً لجوازات السفر صديقي المفضّل، أم أنني أصبحت صديقه المفضّل على الأقل، وبدأت بعد وقت قصير أدوّن مرات عدة المعلومات المتعلقة بجواز سفري بحيث إنني حفظتها عن ظهر قلب. وكنت أشعر أحياناً أنني فتى كشّاف أكثر من كوني مراسلاً.

بعد ذلك حان وقت الأشخاص المثيرين للاهتمام الذين يُفترض بي وضع تقارير عنهم... لقد التقيت أشخاصاً رائعين بلا ريب مثل حسن

نصرالله، أمين عام حزب الله في لبنان. لكن مقابلة مع شخص مشير للاهتمام لا تساعد على أن تكون المقابلة مثيرة للاهتمام أيضاً كما ثبت في النهاية.

فغادرت إلى بيروت جواً، وعلمت من وزارة الإعلام أن لحزب الله قسم علاقات عامة خاصاً به. فقالوا لي على الهاتف إن باستطاعتي القدوم على الفور، وكان مقر قيادتهم في محلة حارة حريك في الضاحية الجنوبية للعاصمة، «أي سائق سيارة أجرة سيعرف مكانه». كل ما كان عليّ القيام به هو الذهاب إلى آخر الشارع، والاستدارة يساراً تحت لافتة تحمل عبارة أميركا شر مُطْلَق، والدخول بعد ذلك في طريق إلى اليمين موجود على بُعد خطوات من اللافتة، فأبلغ المقر الذي يشغل طابقين بسيطين فوق متجر ملابس نسائية؛ علماً أن ذلك التفصيل لم يُذكر لدى وصف الطريق. تم تعريفني بالمسؤول عن قسم العلاقات العامة حسين نابلسي الذي كان يجيد الإنكليزية أكثر مني لأنه قضى بضع سنوات في نيويورك. ما هي الصحيفة التي تعمل لصالحها؟ هل يمكن للصحيفة أن ترسل تأكيداً عبر الفاكس يتضمن مدى انتشارها وعدد النسخات التي توزعها، بالإضافة إلى ما يشير إلى خطها السياسي؟ هل باستطاعة السفارة تأكيد هذه الأمور؟ وطلب حزب الله أن تكون المقابلة على صورة سؤال وجواب، ويتطلب هذا الأمر أيضاً تأكيداً عبر الفاكس. فاتصلت بهيئة التحرير، وتوسلت السفارة أن تزودني بكتاب تأكيد.

بعد أسبوع وكثير من العناء، وقفت داخل مقر قيادتهم بجانب جهاز للكشف عن المعادن. لقد تم تفتيشي في بادئ الأمر، ومن ثم كان عليّ تسليم هاتفي الخليوي، ومحفظة جيبتي، والساعة، والحزام، والمفاتيح، والحقيبة. في الوقت المتفق عليه - وهو أمر استثنائي تماماً في الشرق الأوسط - تمت مواكبتني إلى غرفة مفروشة. فطرحت أسئلة

حول سياسات حزب الله، وأعطى نصرالله إجاباته المدروسة. كان باستطاعتي الحصول على كل شيء بسهولة من نابلسي أو من موقعهم على الانترنت، ولكنني كنت أدون كل ما يقوله نصرالله إكراماً للتقليد الصحافي. فأنا لست شخصاً تافهاً من هولندا.

مرة أخرى، كان الأمر منطقياً تماماً، فكّرت في لحظة من الزمن بالاعتراف بعجزني عن إدارة الحديث وفقاً للوجهة التي أحددها، كل ذلك العناء في إجراء اتصالات وتوجيه رسائل فاكس لبلوغ هذه المرحلة مع حوار يمكن توقعه. ولكن مقابلات كهذه المقابلة تُعتبر في الوطن نجاحاً؛ فلا أحد هناك يعرف شيئاً عن قسم العلاقات العامة، ناهيك عن متجر الملابس النسائية، يظنون أنه من الخطورة بمكان إجراء مقابلة مع شخص كنصرالله. لكن هذه المقابلات قد تكشف عن أمور ثانوية إذا ما قرأ المرء بين السطور، ولا تكمن الأهمية في ما قيل بل بطريقة قول الأمور. في السودان، كنت قد أجريت مقابلة مع حسن الترابي، الشخص الإيديولوجي في النظام الأصولي. لقد قرأت بعض خطبه، ولكن تبين لي في النهاية بعد مقابله شخصياً أنه رجل يحب إطلاق الدُعات، وتوجد على جدار مكتبه شهادات دبلوم من جامعة السوربون الباريسية مما يشير إلى المفارقة أو التناقض في السياسات الغربية: «لا معنى لذلك، هي هي هي!»

تلك كانت الوظيفة المختلفة عما كنت قد توقعته، ولكنها لا تقلّ إشارة عن الوظائف الأخرى. فقد تتصل الصحيفة أو الإذاعة بي: «رأينا شيئاً ما على البي بي سي حول مصنع في بيروت يُنتجون فيه دمي لقادة غربيين بهدف إحراقها. علينا تغطية هذا الحدث!» أم أقرأ خبيراً ما وأقول في نفسي، سأقوم بمتابعة هذه القصة، فأسافر إلى تلك المدينة أو ذلك

البلد على نفقة مستخدمِي. لقد ساومتُ في شأن قاذفة صواريخ بازوكا في إحدى أسواق اليمن، وحضرت مأتم الملك في المغرب. وعندما كنت ذات مرة في بيروت، حدثت عمليات إطلاق نار على الحدود اللبنانية-الإسرائيلية. فتوجهت إلى هناك بأقصى سرعة، وجمعت معلومات ملائمة حتى التاسعة والنصف ليلاً، وكتبت مقالة على مفكرتي في أقل من نصف ساعة، وأجريت اتصالاً هاتفياً بهولندا وتلوت المقالة، مدركاً أن أكثر من مئتي ألف شخص سيجدونها في صباح اليوم التالي ملقاةً على ممسحات الأحذية عند مداخل بيوتهم. ذات مرة كنت في طهران التي تتعرض لحرارة شديدة، في حين أن حرارة الطقس في هولندا كانت عشر درجات تحت الصفر، واقفاً بجانب صندوق انتخابات وأصغي إلى المنتج في هيلفرسام يقول، «خمسة ثوانٍ قبل البث المباشر»، وأخبرت بعد ذلك عدة مئات الآلاف من المواطنين عن إيران.

لقد ارتكبت أخطاء مبتدئين بالطبع، ولا أزال أحمرّ خجلاً كلما تذكرت تلك اللحظة عندما سألت مراسل النيويورك تايمز عما إذا كان بإمكانني الحصول على رقم هاتف الرجل الذي كتب عنه في الأسبوع السابق. فنظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدميّ للتحقق على الأرجح مما إذا كان بإمكانني مبادلته المعروف، وتمتم قائلاً إن ذلك قد يحمله على الشعور ببعض الانزعاج، وغادر.

كان ذلك جزءاً من العمل أيضاً، ولكن رد فعل مماثل هو استثناء؛ فمعظم زملائي الصحفيين مدّوا لي يد المساعدة لأنني ربما المراسل الوحيد من هولندا الذي يعمل بدوام كامل ولم أكن أسعى إلى اقتناص الفرص من الآخرين. كانت هناك لائحة واحدة فقط يحتفظ بها الجميع لأنفسهم: أسماء وأرقام الأشخاص الذين يكونون على صلة بهم ويمكنهم أن يوفروا لك تأشيرة دخول إلى بلد آخر في غضون ساعات قليلة، وبسعر

مرتفع، لدى توافر فيض من الأنباء العاجلة.

على مرّ الأشهر، كبرت لائحة الرؤوس المتكلمة لديّ: مرشدون سياحيون، رجال أعمال، دبلوماسيون، بَحّاثَة، عاملون في ميدان التطوير، ومبشرون دينيون. وللمعلومات المتّممة والتحليل، استندت إلى السي أن أن، والنيويورك تايمز، والجزيرة، ووسائل إعلام كبيرة أخرى. وكوّنت من هذه المصادر تصوّراً دمجته مع التصوّر الذي اكتسبته من أطلاعي على مواقع الانترنت والمجلات، وقمت باختباره: هل يتلائم مع انطباعك؟ هل أغفل أي أمر؟

وجدتُ شقّة أفضل في القاهرة حيث يملك صاحبها نظرة إنسانية وليس فقط لافتات بقيمة الإيجار، ولا أزال أتذكّر النظر إليّ في أثناء مؤتمر صحافي بعد حوالي ستة أشهر من تلك الرحلة الأولى إلى السودان، والقول في نفسي بسعادة، أجل، لقد وصلت أخيراً. في الوقت نفسه، لا يمكنني الفرار من شعورٍ متنامٍ بالقلق.

الفصل الثاني

لا أخبار

من الطبيعي أن يتبنى الأشخاص وجهات نظر المؤسسة التي يعملون لها من دون الانتباه إلى ذلك، وهذا ما حدث معي. كنت أعمل بكّد لتلبية متطلبات مستخدمي وتوقعاتهم من دون أن يكون لديّ الوقت للتفكير فيها ملياً. وعندما ظهرت مقالي بعنوان الجبهة الإسلامية تهدد الولايات المتحدة بشن هجمات جديدة على رأس الصفحة الأولى، أشرق وجهي فخراً. كانت المقالة خلاصة نشرات إعلامية منقولة عن وكالات الأنباء، وأخبار محلية، وقد تمكنت من كتابتها بسهولة تامة في أمستردام بفضل الإنترنت، محققاً نجاحاً على صعيد العنوان الرئيسي، فاستحقيت تهنئة زملائي! لقد منحتني نجاحات مماثلة شعوراً جيداً في الأشهر الستة الأولى. بعد ذلك، أصبح الأمر روتيناً، وبات لديّ الوقت للتفكير ملياً في ما أقوم به وبمصدر ذلك الشعور بالقلق.

في وقت سابق، وعندما كنت طالباً، قضيت بعض الوقت في الشرق الأوسط. لقد جرى لقائي الأول غير المتوقع بالعرب في أواسط التسعينيات عندما كنت شاباً في العقد الثالث من العمر أجوب أنحاء سوريا. كنت أعتبر العرب أشخاصاً غير منطقيين يضرمون النار بالرايات

والصور، ويهتفون بأمور مريعة عن الغرب. على كل حال، لقد شعرت أنهم شديدي الغرابة؛ قد لا يكونون أدنى مستوى ولكنهم مختلفون بالتأكيد.

لكن عندما زرت سوريا، لم أشاهد أي رايات مشتعلة، ولم أسمع أي شعار مناهض للغرب. قد تكون سوريا أكثر فقراً من هولندا بثلاثين مرة، ولكنني كدت لا أرى أي مظهر من مظاهر التخريب، أو التسوّل، أو التشرد. ولم يكن هناك وجود لأي جرائم وإن ثابته؛ كان باستطاعتي ترك أمتعتي عند موقف حافلات أو موقع آثار، وأعود لاحقاً لأخذها. كان الناس يدعونني للبقاء معهم، ولم أختبر يوماً في شوارع هولندا أو في أي مكان آخر من الغرب جواً متساهلاً ولطيفاً كما هو الحال في الشوارع السورية.

كانت هناك مناطق لا يختلف فيها السوريون البتة عن الغربيين، فيدهشني سماعهم يُطلقون دُعابات. بالطبع، كنت أستعيد رباطة جأشي على الفور، ولكن أين سبق لي أن رأيتُ عرباً يُخبرون دُعابات؟ فالفكرة التي كوّنتها عن العرب مصدرها أفلام هوليوود السينمائية، وكتب التاريخ، والأخبار، حيث يُختزّل العرب على أنهم إرهابيون في معظم الأحيان، أو أثرياء نفظ، أو جماهير تطلق صيحات، أو ضحايا مجهولو الهوية؛ وليسوا أشخاصاً يضحكون. ولكن أينما ذهبت في سوريا، كان الناس يحاولون إضحائي وإضحاك أحدهم الآخر.

بعد عام من التنقل في أنحاء سوريا، أُجريت بحثاً في جامعة القاهرة على طلاب مصريين لم يتحدث العديد منهم إلى غربيّ من قبل. سنحت لي الفرصة لدراستهم بإسهاب، فصُغت بأوجه الشبه بينهم وبين الغربيين، وبدرجة أكبر مما هو الحال في سوريا، بالرغم

من الفوارق: لقد بدا لي أن الغربيين يشبهونهم. ومواضيع الحوار الأكثر شيوعاً بين الطلاب المصريين هي الرياضة والمهن والعلاقات الحميمة، وليس السياسة أو الأخبار. في مصر أيضاً مجالات للفضائح، وبرامج مقابلات، وهوس بالمشاهير وبالأعمال الاستعراضية على نطاق واسع. والناس أيضاً يطلقون الدُعابات.

كان زملائي الطلاب المصريون أقل غرابة مما تصوّرت، وفي الوقت نفسه، كانت بعض الأمور مختلفة في الواقع عن هولندا - بخلاف توقعاتي. لقد بلغني أن 9 ملايين من أصل 22 مليون مقيم في القاهرة يعيشون بما يوازي يورو واحد يومياً، ولكنني لم أتوقع أبداً أن يؤدي الفقر إلى زيادة في احترام الذات؛ فالأكثر فقراً بين أصدقائي هو أكثرهم اعتزازاً بالنفس.

عندما كنت طالباً، رأيت للمرة الأولى الفرق الشاسع بين المزاعم والواقع في الشرق الأوسط، وغالباً ما كنت أطرح على نفسي السؤال التالي: كيف يُعقل أنني أتابع أخبار المنطقة منذ سنوات ولا أزال أصادف أماكن مختلفة كلياً عن توقعاتي؟ ولدى عودتي إلى هولندا، خفّت حدة هذه الدهشة لأن الأشهر الأولى من عملي كمراسل كانت محمومة جداً لدرجة أنني لم أفكر في ذلك أبداً.

لكنني تمكنت من إعادة الاتصال بأحد أصدقائي القدماء في الجامعة، عماد. فنحن لم نتمكن من الجلوس معاً من قبل لأسباب مختلفة: ذات مرة، لم يحضر إلى مكان اللقاء؛ وكان عليّ المغادرة فجأة مرة أخرى. بعد ذلك، لم نتمكن من الاتصال ببعضنا لفترة من الزمن لأنه لا يملك جهاز كمبيوتر محمولاً، وهكذا جرت الأمور. الصبر جميل يقول المصريون، وأخيراً، تصافحنا مجدداً وشعرت بالذنب، ولكنه قال: «هيا بنا! دعنا لا نذهب إلى مقهى؛ لنذهب إلى مطعم حقيقي على متن

مركب في النيل. أكسب المال الآن، لذلك سأستضيفك». وتبادلنا أطراف الحديث، وتذكرت سبب محبتي له واعتباري إياه غيباً، ومن ثم وصلت الفاتورة. وقبل أن أدرك ذلك، أخذها عماد بسرعة، وفتحها، وتسمر في مكانه. لم يكن بالإمكان مناقشة التكلفة، وهكذا، جلست مثل عماد بأكبر قدر ممكن من التكتّم، وجمعنا أوراقاً مالية من الفئات الصغيرة أخرجها كل منا من جيبيّه. الله أكبر، صاح عماد، وأنقذت الأُمسية. ولكنه قضى الشهر التالي في المنزل لأن نصف راتبه أنفق على أكواب عصير الفاكهة تلك.

بينما كنت عائداً إلى المنزل سيراً على الأقدام، تذكرت الانطباع الذي تركه الفقر في نفسي عندما كنت طالباً في القاهرة. لم أكن أتصور شيئاً مماثلاً حتى رأيته بأَم عينيّ وفهمت أنه عليك اختبار ذلك بنفسك. خذ على سبيل المثال طفلاً يكون أمر رعايته مُنطابك - ابن أو ابنة، ابن أو ابنة شقيق أو شقيقة، شقيقة صغيرة، ابنة الجيران - وحاول أن تتصوّر حالة هذا الشخص فيما لو كان يعاني معاناة حقيقية. فكر في شعورك العاجز حينئذٍ وضاعفه: إنه يشعر بألم مريع، ومرضه مميت، وهو يذوي في السرير مطلقاً صيحات لأنه لا يفهم ما يجري. تخيّل الآن وجود مستشفى على بُعد خمسمئة متر حيث يمكن إنقاذه؛ ولكنك لا تستطيع تحمّل كلفة العلاج.

إنه الفقير. عندما رأيته عن قُرب في عماد وآخرين، دخلت في جدل شائك ومُربك مع نفسي حول سبب عدم حصول حالة مماثلة بالرغم من اهتمام الصحافة. كيف يكون باستطاعتك فهم أي شيء عن الشرق أوسطيين من دون امتلاك فكرة عن مدى عُرضة هؤلاء الأشخاص للأذى؟ تخيّل أنك لا تملك حق الانتساب إلى الضمان الاجتماعي، والحصول على راتب تقاعدي من الدولة وعلى قروض للطلاب،

ومساعدات للأطفال، وإيجار ثابت... ومع ذلك تشتري مشروبات لشخص غربي فاحش الثراء بالنسبة إليك. وكوني قارناً مواظباً للصحف ومتابعاً للأخبار، لماذا لم أكن أملك أي فكرة عن الفقر أو عن طريقة قيام هؤلاء الأشخاص بالتعاطي معه؟

ذكرني عماد وشعوره بعزة النفس بأمر أخرى حدثت عندما كنت طالباً، وبدأت أشتهه بالسبب الذي أدى إلى تنامي شعوري بالقلق. ففي أثناء عملي كمراسل، كنت أروّج لتلك الصورة نفسها عن العالم العربي التي اعتمدها خطأً عندما كنت طالباً. على كل حال، وبعد ستة أشهر، كتبت قصة وحيدة عن الفقر، ناهيك عن الاعتزاز بالنفس الذي يشعر به الفقير. وفي الوقت نفسه، كانت محفوظاتي الخاصة تحتوي على قصص تحمل عناوين رئيسية على غرار العناوين التالية:

«العقوبات تمسك بجناحي صدام بإحكام كما هو مفترض»

«أوراق صدام حسين الراحلة»

«لوكربي مُعضلة بالنسبة إلى ليبيا»

«إسرائيل تتهم وسائل الإعلام المصرية بمعاداة السامية»

«إسرائيل لا تزال العدو الأول لمصر»

«العالم العربي عند نقطة تحول»

وواقع الحال هو أنني كنت أعطي لقاءات القمم فقط، أو الهجمات، أو التفجيرات، أو الخُدع الدبلوماسية. «شعور الشرق أوسطيين بالفخر بالرغم من الفقر»، «معدلات جريمة أكثر انخفاضاً وإدمان أقل على الشراب في دول الشرق الأوسط»، و«الشرق أوسطيون أقل إصابةً بالإجهاد من الغربيين»... لم تكن هذه الأمور أخباراً بل رواية للوقائع

أو مقالات خاصة، ولم يكن لها أي وقع على أفكار الناس في المنطقة، ولكن من دونها لا يمكنك فهم العناوين الرئيسية أو الرواية الإخبارية للوقائع.

لم تبقَ خبرتي الإيجابية عن الشرق الأوسط غائبة عن مقالاتي فحسب، بل كنت أساهم أيضاً في رسم صورة عن الشرق أوسطيين تصفهم بالغرباء، والسيّئين، والخطيرين. عندما كنت أكتب خبراً عن أشخاص غاضبين يحرقون رايات ويُطلقون شعارات، لم أكن أخبر القراء عما يحدث خارج إطار المشاهد المصوّرة. فعلى التلفاز أو في الصور الفوتوغرافية، قد يبدو أن هناك حشد، ولكنك تشاهد قليلاً من الأشخاص الغاضبين على أرض الواقع لا يرفعون ولاّعاتهم إلا عندما تستدير آلات التصوير لالتقاط صور لهم، ويعودون بعد ذلك إلى منازلهم لتناول الشاي. في غضون ذلك، وفي مكان آخر من المدينة، يكون الأطفال ذاهبين إلى المدارس، والقطارات تقوم بجولاتها، ويجري عرض خاص على البندورة في الأسواق.

إن الأكثر إثارة للاستياء هو قيامي بتشويه الحقائق المحيطة بالنساء في مقالاتي. فبعد عودتي إلى مصر، كان هناك اهتمام كبير بوضع النساء، ويمكنك الحصول على اقتباسات معبّرة حول الموضوع.

لقد لقيت المقالات التي تناولتهنّ قبلاً جيداً، ولكنها أعطت كلها الانطباع بأن النساء المصريات بائسات ومقموعات؛ وهو أمر منافٍ تماماً لخبراتي اليومية عنهنّ. وأذيع خبر جاء فيه إن البرلمان المصري أصدر قراراً بعدم تمكّن النساء من السفر إلى الخارج دون موافقة أزواجهنّ، ولكن طريقة تصرّف النساء المصريات حيالي عندما كنت أتسوّق في القاهرة لم يكن خبراً بل اختباراً على أرض الواقع. فخبراتي اليومية هي التي وجدت طريقها إلى دفتر يومياتي:

خرجت اليوم لتمديد إجازة الإقامة. ما زال عليّ الذهاب إلى المجمع، ذلك العنكبوت القائم وسط الشبكة البيروقراطية المصرية في ساحة الحرية. لقد شعرت بالارتياح لأن كل شيء باقٍ على حاله منذ كنت طالباً. موظفون مديون يغلبهم النعاس، أكداس من الملفات المغطاة بالغبار، خزائن طافحة بمحتوياتها، شبان يُعدّون الشاي في الممرات، جنود متكونون على أسلحتهم غير الملقّمة، صفوف من الناس المنتظرين وكل منهم يصيح فوق رأس الآخر، مكيفات هواء لا تعمل البتة أم أنها تعمل بسرعة مضاعفة... حتى عندما يتعيّن عليّ التوجه إلى الغرفة التي يُفترض بي أن أكون في داخلها، يتطلب الأمر وقتاً طويلاً من المسامرات الودّية قبل الوصول إليها. ويتجه نحوي رجل بساقٍ ونصف ساقٍ يتكئ على قُرمة بذراعه اليمنى ويبيعي قسيمة ويختمها. وبعد ذلك، مزيد من الانتظار، واستراق السمع إلى النساء القائمات من حولي واللواتي يُغطين رؤوسهنّ بوشاحات:

ما رأيك بذلك الأبيض لك، فاطمة؟ عليك الزواج يوماً ما.

فاطمة أكبر سنّاً منه بكثير! لن يرغب فيها!
لا يمكنني أن أحزر أبداً عمر البيض. يبدوون كلهم مماثلين بالنسبة إليّ.

بعد ذلك شراء القمصان. «هل يلائمني؟» سألتُ الفتيات وراء المنضدة. «أنت أشبه بنجم سينمائي!» قالت إحداهنّ مقهقهة، وضحكنَ بأجمعهنّ. «عليك الذهاب الآن، المدير آت!» والتوجّه إلى شركة الهاتف الخليوي لدفع فاتورة كان الشيء الأخير على لائحة تبصّعي. فقال لي الفتى الذي يساعدي: «سندخل إلى تلك الغرفة ومن ثم أكلّمك بالإنكليزية». ودخلنا الغرفة وقال: «لماذا

لا تأتي وتقف هنا؟»، وطرح سؤالاً على زميلة له متبرجة بشكل مُفرط، في السنوات الأولى من عقدها الثالث، ولا تضع وشاحاً: «زينب! ماذا تريدان أن تفعلين بهذا الغربي؟» فرمته زينب بنظرة مُدَّة وقالت: «تقبيل يده، أيها الغبي». وفتحته زملاؤهما، وأوماً الفتى برأسه، وقلت بصوت مرتفع وواضح وكأني موافق: «دي مجاملة حلوة جداً، شكراً جزيلاً». فاحمرّ وجه زينب كالبندورة، ودخلت الحمام مُسرعة.

كنت أفكر على الدوام في أن الأخبار هي تجميع للأحداث الأكثر أهمية في العالم. ولكن بعد ستة أشهر من عملي كمراسل، فرض الواقع نفسه. فالأخبار هي تلك الأحداث المختلفة تماماً عن الأحداث اليومية؛ الاستثناء عن القاعدة. ولهذا الأمر أثر محرّف للحقيقة بالنسبة إلى عالم مجهول كالشرق الأوسط. فعندما تُطلق النار على شخص ما في ساحة دام في أمستردام، يُعتبر الأمر خبيراً، ولكن الشعب الهولندي يعرف أن إطلاق النار على الناس هناك ليس أمراً طبيعياً. لقد كانوا هناك بأنفسهم، أم أنهم يعرفون شخصاً ما قصد ذلك المكان وعاد سليماً معافى. ولكن إلى أي مدى يملك الشعب الهولندي معلومات عن الحياة اليومية في الشرق الأوسط؟ قبل ذهابي إلى سوريا، شاهدت تظاهرة غاضبة في سوريا ضمن نشرة الأخبار؛ فمن غير المستغرب الاستنتاج أنهم يكون الكره لنا، وأن سوريا مكان غير آمن. وإذا تمّ إطلاعك على الاستثناء فقط، فإنك ستعتقد أنه القاعدة.

تمثّل السؤال المطروح بما إذا كان بالإمكان القيام بأي شيء حيال الأمر. فإذا نظرت إلى صور فوتوغرافية أو مشاهد فيديو عن الشرق الأوسط - على سبيل المثال، الشوارع المكتظة في القاهرة، أو دمشق، أو

الإسكندرية - ما تلاحظه هي الحروف العربية المتراقصة في كل مكان. يبدو الأمر غير عادي، حتى يقال لك إن هذه الحروف الغربية تهجئة عبارات مثل «المتحف المصري عبر المخرج المجاور»، «شاي لبيتون- الشاي الألدّ في العالم»، أو «اثنان بسعر واحد، عرض خاص». وإذا كففنا عن تسمية صحف مثل الحياة، الشرق الأوسط، والأهرام، بأسمائها المجازية، مستبدلين هذه الأسماء بمعناها الحقيقي، فتغدو الحياة البشرية، والشرق الأوسط منطقة الشرق الأوسط، والأهرام الأهرام التي بناها الفراعنة، ألن يُحدث ذلك فرقاً؟ وماذا لو أُسمينا قنوات تلفزيونية عربية مثل الجزيرة، المنار، والمستقبل، الجزيرة العربية، ومنارة لبنان، ومستقبل لبنان؟ وإذا تكلمنا عن حماسة المناضلين، وعن حزب يحمل راية المقاومة والله، وعن أسس الإسلام، بدلاً من حماس، وحزب الله، والقاعدة، ألن يُحدث ذلك فرقاً أيضاً؟

لقد حاولت لمدة من الزمن ترجمة أسماء وسائل إعلام عربية في مقالاتي، ولكن المحررين قاموا بحذفها؛ لقد وجدوها مُربكة. إنهم ربما على حق، تماماً كما رفضوا اقتراحي باستحداث باب للدُعابات في الصفحات الأجنبية للتذكير بأن الشعوب تضحك أيضاً في نواحٍ أخرى من العالم.

بالطبع، لا يمكنهم القيام بذلك؛ فلا يمكنهم إقحام دُعابات بين صور أشخاص متنازعين وقادة عالميين متمرّسين يملكون شخصية محبّبة. ولكن باستطاعتهم إضافة أمور أخرى، أقلّه في صفحات التّمات والعوامد التي تحتوي على ما يهّم القراء في الصحيفة. ومذاك الحين، حاولت وضع مقالات تنفي صورة العرب كأشرار غربيي الأطوار. فأجريت مقابلة مع مقدمات النسخات العربية لبرامج توب أوف ذي بوبس، بيغ برادر، وذي ويكست لينك - للتذكير بأن هذه البرامج تُبث

هناك. وكتبت مقالة عن الشيف رمزي، وهو المسيحي اللبناني الذي كان لمدة من الزمن الطاهي التلفزيوني الأكثر أهمية في العالم العربي. إنها الفكرة الرئيسية - لديكم طهارة مشهورون في العالم العربي، وأموال، وبرامج كاميرات خفية، واستوديوهات مليئة بأشخاص جديين وناضجين يرتدون بذلات ويناقشون موضوع كرة القدم.

لقد اختار المحررون أنواع المقالات تلك من دون تردد ليم نشرها في الصفحات غير الرئيسية التي تكاد لا تحظى بنظرة ثانية من القراء وفقاً للمعلومات المتوافرة؛ أم أنها تُنشر في الصفحة الرابعة في العمود الذي يحتوي على ما يهّم القراء والذي يدعى في فولكسكرانت على نحو بارز «إنه عالم صغير».

كان عليّ الدخول في تفاصيل الأخبار، فأدركت مدى صعوبة محاولة نقض الفكرة المبتدلة القائلة إن كل العرب مماثلون ويمكن اعتبارهم كياناً واحداً. لقد أسهمت في تلك الفكرة بنفسني عندما كتبت عن العالم العربي؛ الجملة الوحيدة المتوافرة لوصف تلك المناطق التي يقطنها سكان يُدعون عرباً. ومن ثم، هناك الجامعة العربية بياناتها الرسمية عن الأخوة والوحدة، وتصاريح الحكومة الإسرائيلية عن بحر العرب.

يضاف كل ذلك إلى الانطباع الذي تركه مقولة إن المنطقة القائمة بين الرباط وبغداد تأوي 260 مليون شخص مماثلين. ولكن خذ الحروب التي خاضتها الدول العربية في السنوات الخمسين الأخيرة، ليس ضد إسرائيل بل ضد بعضها بعضاً.

هناك فوارق كبيرة بين الشعوب ضمن الدول العربية، وتكتشف ذلك في الدُعابات التي يخبرونها عن بعضهم بعضاً: السوريون يُطلقون دعابات عن سكان مدينة حمص؛ ولا تنتهي الدُعابات التي يُخبرها سكان

القاهرة عن سكان مصر العليا الذين تقول الشائعة إنهم يُفردون في الاعتراف بالنفس؛ ويسخر الفلسطينيون من سكان الخليل. لقد جاء في إحدى القصص إن رجلاً من الخليل دخل متجر أدوات كهربائية في القدس، وسأل: «هل باستطاعتك إصلاح هذا التلفاز؟» فنظر صاحب المتجر إلى الرجل وقال: «لا بد أنك من الخليل»، فهرب الرجل. كيف عرف من أين أتيت؟، تساءل مدعوراً. لا بد أنهم يظنون أن باستطاعتهم خداعي. وقصد متجراً آخر، فحدث الأمر نفسه؛ وتكرر الأمر في متجر ثالث. والآن، لم يتبق سوى متجر واحد وإلا اضطرَّ للذهاب إلى رام الله. ولكنك لن تصدق ما جرى. فما كاد يسأل إذا كان بالإمكان إصلاح تلفازه حتى تمت المصلح قائلاً: «هل أنت من الخليل أو ما شابه؟» فنفذ صبر الرجل وسأل بعينين دامعتين: «كيف يعرف الجميع أنني من الخليل عندما أسأل عما إذا بإمكانهم إصلاح تلفازي؟» فأجاب المصلح قائلاً: «إنه جهاز راديو، يا سيدي».

إن العالم العربي هو على هذا القدر من التنوع وأكثر، ولكن الزملاء والأصدقاء في الوطن لا يملكون أي فكرة عن الأمر. أتى لهم هذه الفكرة؟ فهم يتابعون الأخبار بأمانة ويعرفون كل المناورات السياسية. ولكن ما لا يعرفه الزملاء هو أن العالم العربي يُنسب إلى لغة، وهي العربية، وليس إلى معتقد، وأن هناك ملايين المسيحيين العرب أيضاً، بمن فيهم رئيس دولة؛ ناهيك عن وجود مئات آلاف اليهود العرب الذين اعتادوا العيش في مختلف أنحاء الشرق الأوسط حتى قيام دولة إسرائيل.

بعد زلزال كبير في تركيا، اتصل بي معلق أجنبي مشهور ليسألني عما إذا كنت أريد الذهاب إلى موقع الكارثة. «لماذا؟» سألت مندهشاً.

«حسناً، لأنك تجيد اللغة العربية...» وكان عليّ أن أشرح أن اللغة الهولندية أقرب إلى التركية منها إلى العربية. وصادفت سوء الفهم هذا في وقت لاحق في إيران حيث يتكلمون الفارسية، ويكون الانطباع الذي تُحدثه لدى تكلمك العربية مماثلاً للانطباع الذي يُحدثه المرء لدى تكلم الألمانية في هولندا.

إن جهل القراء الأكثر إخلاصاً للمنشورات التي يتابعون الأخبار فيها يكون كبيراً جداً أحياناً لدرجة أنه يبدو غير قابل للعلاج. ولكن كانت تظهر فرص من حين لآخر، على سبيل المثال، عندما تحولت القمة العربية التالية إلى شجار. وعندما سألت مذيع الأخبار كالعادة عن «الانقسام الميؤوس منه»، تمّ تخطي النزاعات الدبلوماسية التي جرت في أثناء اليوم وعُرض للفوارق بين الدول العربية العشرين التي لم تكن منقسمة بقدر ما كانت مصالحتها متضاربة. فهناك فرق بين أن يكون لديك آبار غاز أو نفط، ومقدار كافٍ من الماء أم لا، وإذا كنت واقعاً تحت احتلال القوى الاستعمارية، أو عليك مشاطرة الثروات المائتة للأنهر، أو إذا كانت لديك حدود مع إسرائيل، تركيا، إيران، أو مضيق جبل طارق.

فجمع معلومات من هذا النوع يُعتبر إنجازاً ولكن ليس كبيراً. يجب على الأخبار أن تكون سريعة وموجزة، ولذلك كان على المقالة التالية حول اللغة الانتظار سنوات على جهاز الكمبيوتر في ملف البيانات المتممة قبل أن تجد لها مكاناً في الصحيفة:

يُنظر إلى العرب أحياناً كوحدة، ولكن واقع الحال هو أنهم لا يفهمون بعضهم بعضاً. إنهم لا يتكلمون اللغة نفسها؟. في الواقع، تتألف العربية من ثلاث لغات مختلفة. هناك العربية التقليدية التي لا يعرفها أحد تقريباً ولا يمكنك إجراء محادثة طبيعية بواسطتها. لذلك، هناك العربية وفقاً للمعيار الحديث، وهو شكل مبسّط

للسنسخة التقليدية يُستخدم للقراءة والكتابة، والأخبار، والخطب،
والعناوين الفرعية، والكتابات الأدبية. وحسنة هذه اللغة معتمدة
في كل مكان من العالم العربي، أما سيئتها فهي أنها لغة جامدة
ولا يمكن استخدامها للأحاديث العادية كالعربية الكلاسيكية، هناك
سيئة ثانية إذا كنت تعرف ذلك: نصف الشعب العربي لا يجيد
القراءة والكتابة. ففي أحاديثهم مع بعضهم بعضاً، يتكلم العرب
لغاتهم المحلية، وهي مختلفة جداً لدرجة أنه لا يمكنك التحدث
عن لغة واحدة. على سبيل المثال، «جيد» تعني جيد وفقاً للعربية
التقليدية، وكويتس بالمصرية، وزين بالعراقية، ومنيح بالفلسطينية.
«أريد أن أشتري خبزاً» يقابلها:

بريد نشري خبز بالمغربية

أريد أن أشتري خبزاً بالعربية التقليدية

عايز أشتري عيش بالمصرية.

قابل بين الفوارق السبعة وتذكر أن اللفظ يختلف أيضاً.
فعلى سبيل المثال، يتلعون في القاهرة حرف «القاف» الذي
يصعب لفظه، في حين أنهم يلفظونه جيداً أو بطريقة مشوهة في
دول عربية أخرى.

لقد استفدتُ على الأرجح من جهل البعض للعالم العربي. فهم
لم يعترفوا بذلك أبداً، ولكن لدي انطباع أن فولكسكرانت كان لديها
شكوك في شأن إرسال شخص غير متمرس إلى العالم العربي. وأتخيل
رئيس التحرير يشير إلى إجادتي العربية، وهذا ما رجح تعيني مراسلاً.
فهم لم يدركوا ربما أنني أكاد لا أستطيع فهم كلمة من اللغات المحلية
المتنوعة خارج حدود مدينة القاهرة.

الفصل الثالث

أحباء المانحين وكوكتيل هتلر

ظننت لمدة قصيرة من الزمن أنني أفهم مشكلة الصحافة في العالم العربي: تُظهر النشرات الاخبارية ما يخرج عن المقياس فقط، وإذا كان المقياس غير معروف تحصل على صورة محرّقة.

لكن قلقي استمر، وظننت أنه قد يكون شعوراً بالذنب؛ كنت قد توقعت إعادة إحياء صداقاتي التي تعود لأيام الدراسة، ولكن ذلك لم يحدث. فعندما كنت طالباً، تمكنت من تقليص الفارق إلى الحد الأدنى بيني وبين زملائي الطلاب الفقراء من خلال استئجار غرفة في ضاحية سكنية للطبقة العاملة، ولم أعد أبالي بالمغتربين الغربيين المقيمين في الزمالك، وهي جزيرة النخبة في النيل. ولكنني أقمت هناك عندما أصبحت مراسلاً. عندما كنت طالباً، كان اعتماد نمط الحياة العربي أمراً رائعاً: تخصيص وقت لأشخاص آخرين، الحضور في وقت متأخر، إجراء اتصالات بلا انقطاع للوقوف على مجريات الأمور. أما الآن فهناك محررون في الوطن، ووسائل الإعلام منظمة كمصنع، أو بالأحرى كجيش؛ لا نستخدم عبارة الموعد الأخير عبثاً.

عندما التقينا، لاحظت كم أن القواسم المشتركة قليلة بيني، كغربي

مثقّف، وبين أصدقائي القدامى. وكان هناك ذلك الفارق المالي الكبير الذي لا يمكن إزالته. فالإيجار الذي كنت أدفعه كل شهر يساوي ما يمكن بعض الأشخاص من العيش طيلة ثلاث سنوات. أتقل إذاً إلى مكان آخر، قد تقول: ولكن بعد يوم عمل شاق، كنت أشتاق إلى هدوء ورفاهية الزمالك.

لم يكن توفير الوقت ممكناً أيضاً لإنشاء صداقات جديدة. كنت أغطي عشر دول مما يتطلب القيام بزيارات دورية إليها. فقد يحصل انقلاب في أي وقت، أو يموت زعيم ما، أو يحدث انفجار، فيكون عليّ حينذاك العمل حتى وقت متأخر أو الإسراع إلى هناك؛ إنه أمر لا يساعد كثيراً في بناء صداقات. في وقت فراغي، لم أكن أشعر ببساطة بالرغبة في التفكير في الأشخاص الذين كنت أضع تقارير عنهم. فكم عملية تنديد جماعية برئيس أميركي أو برئيس وزراء إسرائيلي يمكن للمرء أن يغطي؟ إنه وضع مماثل لـ كاتش 22: كنت بحاجة إلى مصادر معلومات محلية بهدف متابعة ما يجري، ولكن لا يمكنني الحصول على هذه المصادر إذا كنت أعيش بطريقة غير منسجمة مع حياة مراسل.

غير أن الواقع كان أكثر من مجرد شعور بالذنب، وقد ازداد الأمر سوءاً عندما اكتشفت أمراً غريباً. كانت فرق الأخبار الهولندية، وأنا من ضمنها، تتغذى من اختيار أخبار تبثها وسائل إعلام نوعية مثل السي أن أن، والبي بي سي، والنيويورك تايمز. كنا نقوم بذلك مفترضين أن مراسليهم يفهمون المنطقة ويملكون فكرة عنها؛ ولكن ثبت في النهاية أن العديدين لا يجيدون العربية، أم أنهم لا يجيدون إجراء محادثة بهذه اللغة على الأقل أو متابعة وسيلة إعلام محلية. فالعديد من ذوي المناصب العليا في السي أن أن، والبي بي سي، والإنديبننت،

والغارديان، والنيويورك، والنيويورك تايمز، يعتمدون في غالب الأحيان على مساعدين ومترجمين.

كان مراسلو وسائل الإعلام النوعية يقيمون، على غراري، في أفضل مناطق المدينة. ماذا لو قلبنا الأدوار. لتتخيل أن مراسلاً مغربياً لا يجيد الإنكليزية أو أي لغة أوروبية يرسل إلى لندن، فيستأجر منزلاً فخماً في كسينغتن للإقامة فيه، ممضياً وقت الفراغ في التعرف بأصدقاء يتحدثون كلهم العربية. ويرتاد أطفاله مدرسة عربية، وتنضم زوجته إلى جماعة النساء العربيات. ما هو الانطباع الذي يكونه هذا المراسل عن المملكة المتحدة؟ فهو لا يفهم برامج المقابلات، والسجلات الانتخابية، وخطب الملكة أو رئيس الوزراء، ومدرب الفريق الوطني لكرة القدم. كما أنه لا يفهم الحوارات الدائرة في الشارع، والنشرات الإخبارية، وعواميد الشؤون الراهنة، والتملقات، والدعابات، والكوميديين. إنه يحاول متابعة الصحافة من خلال الحصول على خدمات المترجمين، فيبقى غافلاً عما لا يقومون بترجمته. ولا يستطيع كذلك التحدث إلى البريطانيين العاديين؛ بل إلى المهاجرين العرب فقط، والعرب البريطانيين، والبريطانيين العرب، والبريطانيين المتزوجين من عرب، وبالطبع، إلى زملائه الصحفيين من العالم العربي. يحدث كل هذا في بلد حر حيث لا يتعين على الأشخاص الذين تُجرى معهم مقابلات القلق من أن مُجري المقابلة يعمل في أجهزة المخابرات.

العديد من المراسلين الغربيين في الشرق الأوسط يعملون ويعيشون كما يبدو هذا الاختبار الفكري الذي مرّ به المغربي في المملكة المتحدة. لقد سافرت ذات مرة جنبا إلى جنب مع أحد أبطال البي بي سي. فاصطحبه معاون المحلّي إلى المطار حيث انتظر موعد الصعود على متن الطائرة والجلوس في المكان المخصص لرجال الأعمال. وعندما

وصل إلى وجهته، قدّم له أحد المعاونين المساعدة لإنهاء معاملاته الجمركية، ونقله سائقه المعتاد إلى المكتب للتمكن من دراسة الأبناء بدقة في قسم الترجمة. كانت طريقة فعالة للقيام بالأمر، وكان مراسل البي بي سي يملك معلومات أكبر من معلوماتي بالتأكيد. ولكن ما هو عدد الأشخاص العاديين الذين تحدّث إليهم، وما الذي يعرفه عن الحياة اليومية؟ لقد قضيت ساعة على الأقل أتعرّق في صف الأشخاص الذين ينتظرون دورهم ليتم التحقق من جوازات سفرهم، وانتظرت بعد ذلك في صف آخر، ومن ثم كان عليّ إحضار أمتعتي عن الحزام الناقل...

لقد آلمني وآلم زملائي أن نكتشف أننا كنا ننظر إلى المناطق التي نغطيها وعلى أعيننا غماتان، ولكن هذا الأمر لم يفسّر ذلك الشعور بوجود خلل ما. بدأت أشتبّه بعدم وجود خلل فحسب في ما أغفلناه من إطار تغطيتنا للعالم العربي، بل في ما كان موجوداً داخل الإطار أيضاً. هل تذكر تلك القوائم التي يملكها المراسلون عن الناشطين في ميدان حقوق الإنسان، والبحاث، والرؤوس المتكلمة؟ لقد بدت عملية عرض وجهات نظرهم في النشرات الإخبارية عملاً صحافياً يسيراً، ولكن هل هو كذلك؟

تقوم أجهزة المخابرات في العديد من الدول العربية بمراقبة البحاث قبل توظيفهم، ويعود الفضل في حصول العديد من الأكاديميين على وظائف إلى علاقاتهم وليس إلى قدراتهم، وهو سر مكشوف. وتتابع العديد من السفارات العربية في الدول الغربية أيضاً وسائل الإعلام عن كذب لأن نقل كلام عن لسان الأكاديميين هو أمر محفوف بالمخاطر بالنسبة إليهم؛ ولكنه أمر جذاب. فالأكاديمي العربي الذي يظهر تكراراً في صحف ومجلات غربية مشهورة أو على شاشات التلفزة يتلقى

دعوات إلى مناسبات فتيّة متعددة الثقافات، ومن قبل مؤسسات استشارية وأكاديمية في الغرب. هذا يعني تأشيرة دخول، والحصول مستقبلاً على تأشيرات دخول بسهولة أكبر؛ ويعني كذلك رحلات جوية مجانية، وتسوّق مُعفى من الضريبة، واتصالات مع ناشرين، أصحاب رعاية، ومؤسسات توفّر أعمالاً وأسفاراً ومنحاً دراسية تتضمن تكلفة الإقامة. وغالباً ما تزيد قيمة المخصصات اليومية في المؤتمرات الغربية عن مرتّب شهر يتقاضاه الأكاديميون في الدول العربية.

فالأكاديمي في العالم العربي مختلف عن الأكاديمي المقيم في الغرب، وينطبق الأمر نفسه على الناشطين في ميدان حقوق الإنسان. فهم يتقاضون في الواقع أجراً جيداً لأن الحكومات الغربية تقوم بتسديده (المانحون باللغة الاصطلاحية). ويستشهد المراسلون بناشطين محليين في ميدان حقوق الإنسان أكثر من سواهم لأنه - والحق يقال - من المشوّق أن تتم الإجابة على أسئلتك. ولكن كلما زاد عدد هؤلاء الناشطين الذين ألتقيهم، خفّت حدة حماسي؛ بسبب قيامهم بتسليم بطاقاتهم على الفور للتأكد من أنني سأنقل أسماءهم وأسماء منظماتهم بطريقة صحيحة. تتضمن المقابلات التي يُجرونها تكراراً تعابير مثل «الطريق أمامنا طويل، ولكننا نعمل لتحقيق الهدف» أو «الاستسلام غير مطروح ببساطة». بدأت أظن أنهم قرأوا مقابلاتهم على الإنترنت في وقت لاحق، وقالوا في أنفسهم، هاي، أولئك الصحفيون الغربيون ينقلون دائماً عن لساننا عبارة عدم الاستسلام، لنستمر بقولها إذاً.

هذه هي مشكلة الناشطين في ميدان حقوق الإنسان في العالم العربي. فالأثرياء العرب يهبون بلايين الدولارات كل عام لمنظمات تبشيرية إسلامية ولبناء مساجد، ولكن الناشطين في ميدان حقوق الإنسان مستمرون بسبب المعونات المالية الغربية. وتزداد فرص حصولهم

على هذه المعونات مع ازدياد شهرتهم، ويمكن للصحفيين الغربيين أن يساعدهم بالطبع على تحقيق هذه الشهرة. تكون النتيجة مصالح متبادلة بين الصحفيين الباحثين عن اقتباسات جيدة وبين الناشطين في ميدان حقوق الإنسان الباحثين عن الدعاية. وفي أثناء دراستي، لم يكن أي طالب على معرفة بأي ناشط في ميدان حقوق الإنسان، وقد ترك ذلك الأمر أثراً كبيراً في نفسي.... وما أثر فيّ بطريقة مماثلة هو الاسم الذي يُطلقه الدبلوماسيون الغربيون على الناشطين المحليين في ميدان حقوق الإنسان: «أحباء المانحين». فلدى السفارات أموال تنفقها على دعم حقوق الإنسان، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تمنحها إلا لمنظمات تملك برنامج عمل غربي، ومحاسبة شفافة، و ضمانات أخرى ضد الغش. كان أحباء المانحين يلبّون هذه المتطلبات ويكون لديهم ما يقدمونه في المقابل. فأعضاء مجلس النواب الهولندي، مثلاً، يقومون برحلات دورية خاطفة إلى بعض الدول العربية. وتقوم السفارة بإرسالهم لزيارة عدد قليل من أحباء المانحين الذين يروون قصة رائعة بلغة إنكليزية طليقة تضغط على الأزرار المناسبة: تطوير، الجنسّين، التفويض، المجتمع المدني، وإدارة الحكم على نحو جيد. ولدى عودتهم إلى الوطن، يكون بإمكان عضو في البرلمان وضع تقرير حماسي عن زيارته: تعلمون، يريدون حقاً أن يكونوا مثلنا!

لقد فقدت الثقة تدريجياً بالرؤوس المتكلمة، وحدث الأمر نفسه مع وسائل الإعلام المحلية؛ مصدر آخر كنت أتوقع استشارته تكراراً. وهناك محطات تلفزيونية كالجزيرة قيل إنها مستقلة نسبياً، ولكن أخبارها تتناول السياسة الدولية عادةً، ومشاهديها المرتقبين هم كل شعوب المنطقة. وبالنسبة إلى الأخبار المحلية، كنت أعتمد على الصحف والمحطات

التلفزيونية الحكومية التي تبالغ بخضوعها على نحو مثير للسخرية. في بعض الدول العربية الأخرى صحف مستقلة، ولكنها غالباً ما تزخرُ بالهراء: «ممرضات أجنبيات تحقن أطفالاً ليبين بالآيدز». ويمكن إغلاق هذه الصحف في أي وقت وإن بسبب قيام الحكومة بمراقبة المطابع، ونظام التوزيع، وموّن الورق والحبر. وأشيع أيضاً أن بعض الصحف المستقلة هي أدوات لأجهزة المخابرات، أو لقيادة عرب آخرين. ويمكن للصحيفة أن تكون مفيدة جداً عندما تريد إلقاء خطبة ومهاجمة أخصام ومناوئين.

وتوجّه وزارات الإعلام للمراسلين مقالات عبر الفاكس. ففي أسفل رسالة فاكس التي وصلتني عن حادثة تعرّضت لها سائحة يابانية حيث قام طالبان بمساعدتها على استرجاع محفظة نقود كانت قد أضاعتها ورفضاً أي هدية شكر منهما في إحدى الدول العربية، أضاف موظف مدني بحروف واضحة: «انتباه، هذه هي حقيقة بلدنا». ولم يمر وقت طويل حتى أجرت هذه الدولة استفتاءً عاماً حول منصب الرئاسة مع وجود مرشح واحد. ونشرت أكبر صحيفة في الدولة، التعليق التالي الذي وضعه رئيس التحرير، وهو أحد المؤتمنين على أسرار الفائز في الاستفتاء العام:

جرت الحادثة التالية معي شخصياً. حاول أحد الأصدقاء - طيلة سنوات - الحصول على تأشيرة دخول إلى إحدى الدول العربية النفطية ليتمكن من جني ما يكفي من المال ليتزوج. أخيراً، تلقى رسالة أراحته من كربه وعرضاً للعمل في عاصمة تلك الدولة العربية النفطية. فقفز صديقي فرحاً وأطلع الجميع على النبأ السعيد. ولكن كان هناك استفتاء عام يوم رحيله، ويتعين على الشعب التعبير عن شكره لقائدنا المستعدّ لقيادة بلدنا لست سنوات أخرى. فأدرك

صديقي كم أن بلدنا محظوظة بوجود رئيس مماثل، ومزق تأشيرة سفره لأنه ينتمي إلى هذه البلد.

غالباً ما يطلب محرريّ في الوطن اقتباسات- ندعوها آراء الشعوب- من الشخص العادي في الشارع. ما هو رأيه بالاستفتاء العام؟ فجلست هناك مع شخص يدعى نبيل في العقد الثالث من العمر، وكنت قد قضيت معه يوماً في العاصمة. هنا اقتبس بعضاً من آرائه أو آراء الشعوب كما يسميها المحررون في هولندا «وراء كل ثورة، كل كارثة، وأزمة اقتصادية وحرب، وأفلام إباحية... هناك اليهود كما ستكتشف. تتمثل المشكلة بأن اليهود يعتبرون أنهم بشر من دون سواهم. هذا هو حال اليهود، إنه في ثقافتهم». وحرّك إصبعه في الهواء. «ولكن دون رجاء أنني لا أكره اليهود. كان لديّ صديق يهودي صالح في أميركا». وأخبرني عن دراسته وإجازاته في أميركا، وكيف كان يدرّس أطفاله الإنكليزية. طلبنا مشروبات غازية، وشرح قائلاً إنه ما كان يمكن لإبادة اليهود الجماعية (الهولوكوست) أن تحدث أبداً لأن «الأفران كانت صغيرة جداً». هل تعلم أن اليهود كانوا يمولون هتلر؟ هل تعلم الفائدة التي كانوا يطلبونها؟ «ثلاث وثمانون بالمئة، لأن كل شيء مرتبط بالمال في النهاية بالنسبة إلى اليهود».

ما كان يُفترض بي القيام به بعد سماعي هذه القصة؟ هل هو أخرج أم أن نصف السكان يفكرون على هذا النحو؟

في محل لتناول العصير وسط بغداد، دفعت بخمسة دينار عبر المنضدة وقلت: «كوكيتل هتلر، من فضلك». ونادى أمين الصندوق شاباً يحمل خلاطات، وأطبق فاكهة، وزجاجات حليب: «أحمد! كوب كوكيتل هتلر من فضلك لهذا السيد». وتتضمن قائمة المشروبات كوكيتل هايتي، ومانديلا، ونوريغا. ويحتوي كوكيتل

هتلر على أناناس، وفراولة، وعصير البرتقال، وقشدة، وعسل.
«إنه اسم غير عادي»، قلت. «لو كان متجرك في أوروبا
لأفقل». فأوماً أمين الصندوق برأسه.
«اليهود، أه؟ نقوم بذلك للفت الانتباه. نحن ندعو أيضاً ثمر
النخيل مونيكا لوينسكي».

«ولكن هتلر قتل ملايين الأشخاص».

فأوماً أمين الصندوق برأسه. «لقد وضع اليهود في القرن،
أليس كذلك؟» إن كلمة هولوكوست، مُحرقَة، تعني نار أو
إحراق.

«سته ملايين يهودي، وقتل الملايين من شعوب أخرى أيضاً.
هل هناك كوكبيل شارون أيضاً؟»

فلم يتمالك أمين الصندوق نفسه عن الضحك. «لقد خسرنا
زباننا. قصف شارون بيروت، صبرا وشاتيلا... هناك عدد كبير من
ال فلسطينيين المقيمين هنا».

«أجل. واعتبر هتلر العرب دون البشر كاليهود تماماً.
والسبب الوحيد لعدم وضعكم في القرن هو عدم وجود عرب
في أوروبا».

مرّر لي أمين الصندوق كوباً مليئاً جاعلاً إياه ينزلق على
المنضدة، وقال بتجهّم: «لكن إسرائيل قتلت ملايين العرب».

بقيت رواية هذه الحادثة مسوّدة على جهاز الكمبيوتر الخاص بي.
ولو قمت بنشرها لحققت نجاحاً بواسطتها لأنها ستسبب صدمة للقراء
الهولنديين. ولكن إلى أي مدى يمكن اعتبار رأي بائع عصير الفاكهة
مماثلاً لرأي قسم كبير من مواطنيه؟ كيف يُفترض بي وضع حوار مماثل

في السياق المناسب؟ في الدول الغربية، يستخدم المراسلون حوارات مع أشخاص عاديين لإظهار التوجهات. كنت قد استعنت ذات مرة باقتباسين هائمين لشخص يدعى جون التقيته عند زاوية أحد الشوارع، فقيل لي: «جون ليس النيويوركي الوحيد الذي يتتبه هذا الشعور. هناك 60 بالمئة على الأقل يعتقدون...» ولكنني لم أتمكن من الحصول على أي استطلاعات للرأي يعولّ عليها، وأبقيت كل الإحصائيات المتعلقة بالموضوع سرية. وهكذا، لم يكن لديّ سوى تعليقات رجل واحد أو امرأة واحدة في الشارع.

قد تقترح أنه يُفترض بي البحث عن مصادر يمكنني الوثوق بها. لقد حاولت ذلك بالفعل، ولكن كلما حاولت كتابة قصة من دون استخدام وكالات الأنباء، أو سيلة الإعلام الأنكلو ساكسونية، أو رؤوس متكلمة، كنت أفشل في ذلك. إحدى هذه المحاولات قصة ناجحة عن مشروع تطوير هولندي في الفيّوم، وهي واحة على بُعد ساعتين بالسيارة من جنوب القاهرة. وكان ملحق نهاية الأسبوع يُعدّ إصداراً عن المعونات التطويرية، ومن المواضيع المطروحة روايتان عن مشروع أخفق وآخر تكلّل بالنجاح. «يمكنني القيام بذلك»، قلت، وأجريت اتصالاً بمهندس مائي هولندي من خلال السفارة يدعى رولند. كان شخصاً لطيفاً بسني تقريباً، ودعاني على الفور لإجراء لقاء معه.

كانت الواحات تحملني على الدوام على التفكير في ثلاث أشجار، وكوخ، ومِعْزاة، ولكن الفيّوم كانت مرجاً ممتداً بحجم اللوكسمبورغ يقطنه ثلاثة ملايين شخص. كانت الأمور تسير على نحو غير صحيح في الفيّوم: يزداد عدد السكان على نحو كبير، في حين يزداد نظام الريّ سوءاً. «يحصلون على كمية كافية من الماء، ولكنهم لا يستخدمونها

بشكل صحيح»، قال لي «رولند في مكتبه في وزارة الري. وكما هو الحال في الوزارات في القاهرة، كان الموظفون المدنيون في قيلولة، أم يحدّقون بالفراغ، أم يتلهّون بأعمال تافهة في الجوار ويُجرون اتصالات هاتفية باسترخاء». كانت غرفة رولند الغرفة الوحيدة التي تحتوي على مكيف هواء وجهاز كمبيوتر يعمل. فاتجھنا بسيارته الرباعية الدّفع إلى الريف، وأشار إلى النفايات: «لم يعتد الناس استخدام أكياس نايلون. هم لا يزالون يتصرفون وكأنّ النفايات تتحلّل بمفردها. إن السماد الاصطناعي والمبيدات ممتازة، ولكن عليك تعليم الناس كيفية استخدامها. لديك هنا مهندس واحد تابع للوزارة لكل خمسمئة مزارع، والمهندسون ينظرون إلى المزارعين بتعالٍ. فلاحون أم مزارعون؟ إنهم أشخاص فقراء وبسطاء.

«هكذا تسير الأمور على نحو غير صحيح»، وأشار رولند إلى قناة ريّ مسدودة. «يتخلص المزارعون من نفاياتهم ومبيداتهم. هناك أعداد متزايدة من النزاعات الدموية حول سرقة الماء، والموظفون المدنيون لا يتدخلون لأنهم شديدي الكسل أو فاسدون». وأوجز الحل: «إذا أراد المزارعون إقامة برك مائية كما فعل الهولنديون منذ قرون في أراضيهم المنخفضة، يمكن لهذه البرك أن تساعد المزارعين على تأمين مياه الريّ لهم، والحفاظ على قنواتهم، ورفع مستوى وعيهم، وحل النزاعات القائمة».

كان مواطنو رولند قد اختبروا هذه الفكرة التي حققت نجاحاً. خرج رولند من السيارة، واتجه نحو مزارعين، وسأل أحدهما بفخر عما يحدث إذا أمسك بأحد سكان الفيومي يسرق ماءً. «نهشّم وجهه!» قالا. وقام المزارعان بما يقوم به كل المصريين بعد إطلاق دُعابة؛ لقد تصافحا. «ولكننا بعد ذلك ندعو إلى اجتماع طارئ للمجلس»، قال المزارع الآخر:

«نيابةً عن الشعب المصري، أرغب في شكر الهولنديين لما قدّموه من مساعدة»، قال بوقار يبعث على الثقة. «لقد قلّ عدد محاولات سرقة الماء الآن، وبات لديّ محصول أكبر».

فودّعناهما، وأمطرتُ رولند بوابل من الإطراء. كانت لديّ قصتي الناجحة؛ من يقول إن المساعدة التطويرية مضيعة للوقت؟ وابتسم رولند. ولكن بعد أسابيع قليلة من نشر مقالتي، أطلعني أحد زملائي على القصة الحقيقية. إن الغاية من المساعدات التطويرية هي جعل المتخصصين الغربيين غير ضروريين ويمكن الاستغناء عنهم بأسرع وقت ممكن. على الناس تولّي شؤونهم بأنفسهم. لذلك، دفع مدير شؤون المياه الهولنديون في اتجاه الخطوة التالية: منح مجالس المياه حقوقاً، وإجراء انتخابات لاختيار الأعضاء، وتوفير نُصح استشاري للمجالس، وزيادة مساهمات الموظفين. ولكن هؤلاء سيكونون مدراء منتخبين ويتلقون أجراً من المزارعين أنفسهم، أليس كذلك؟ لم تكن هذه الغاية المرجوة من المشروع، كما أوضحت وزارات البناء والريّ في القاهرة؛ كان يجب أن يبقى النفوذ بين أيديها، فحُكم على مجالس المياه بالفشل.

في بيروت، ادّعى طبيب عراقي كان قد فرّ من بلده أن نظام صدام يصادر المواليد الجدد من المستشفيات ويضعهم في الثلجات ليبدوا كأنهم «ضحايا للعقوبات» يعاينها مراسلون أو برلمانيون أوروبيون يساريون عندما يزورون العراق. إنها قصة مريعة أخرى، ولكن كيف لي أن أتحقّق من أن الطبيب يقول الحقيقة؟

كان نضالاً في سبيل بلوغ الحقيقة حتى عندما أظن أنني حصلت على الوقائع من مصدر موثوق، فأقول في نفسي، لا، هناك أمر غير

صحيح هنا بصفة رئيسية. وقضية سعد الدين ابراهيم هي مثال على ذلك. كان حبيب المانحين الأكثر أهمية في بلده، وقام طيلة سنوات بحملات تجتذب الإعلام حول الوضع الطارئ، والتميز الذي يلقاه المسيحيون على مختلف الأصعدة ولا سيما على الصعيد الوظيفي، وسوء استخدام النظام للسلطة، ومسائل حساسة أخرى. فقبل عام من الانتخابات، تلقى إبراهيم أموالاً من الاتحاد الأوروبي لإنتاج فيلم يشرح كيفية إجراء الانتخابات. وتضمن الفيلم مشهداً عن طريقة الاقتراع، فثارت نائرة البلد. بعدها حُرِّم ذكر اسمه في وسائل إعلام بلده طيلة سنوات، وها هي الصحافة الحكومية وما يُدعى صحافة مستقلة تخرج عن طورها: لقد ارتكب إبراهيم «غشاً انتخابياً» واستخدم مالاً أجنبياً «لتشويه سمعة الدولة». وطيلة أسابيع متواصلة، هاجمت الصحافة مركز ابن خلدون التابع لإبراهيم: «نجمة داود في ابن خلدون»، «ابراهيم يريد أن يجعل من لحم الجياد مأكلاً للمسلمين». وجريدة صغيرة مستقلة وناطقة بالإنكليزية هي الوحيدة التي نشرت تقريراً حول ما إذا كان هناك دليل يُثبت ارتكاب غش انتخابي، وحللت دوافع النظام: إبراهيم رجل شهير ويملك جواز سفر أميركي، والتخلص منه رسالة واضحة لأي مواطن يفكر في التعبير عن آرائه على شاشة السي أن أن.

لقد بدا تفسير الصحيفة الأكثر إقناعاً بالنسبة إليّ بحيث إنني استندت إليه لوضع مقالتي. قد تعتقد أن القضية قد أفلتت إذ إنني، وبعد إرسال المقالة، قصدتُ في فترة بعد الظهر الجامعة الأميركية ذات التكلفة الباهظة في العاصمة لحضور احتفال تخرُّج الطلاب.

فجلست بجانب رجل يدعى حازم في السنوات الأولى من عقده الثالث، قادم من منطقة فقيرة. كان يرتدي بذلته اللاتقة الوحيدة لأنه وجد فرصته الكبيرة. كان عمّ أحد الطلاب ذا منصب رفيع في وزارة

الإعلام، ويريد حازم طرح سؤال عليه لإعداد مقالة يمدحه فيها وينشرها في الصحيفة، والعودة من ثم إلى العمّ طلباً لوظيفة. لسوء الحظ، لم يظهر العمّ، وشعر حازم بإحباط. فتبادلنا أطراف الحديث قليلاً وتطرقت إلى موضوع سعد الدين إبراهيم. وأوماً حازم برأسه: «أمر لا يصدّق، أليس كذلك؟ ترى كم يتعيّن على نظامنا أن يكون حذراً على الدوام؟ لا تريد أن تعرف عدد أعداء هذا البلد؛ آخر ما بلغني هو خبر تلك الفتيات الإسرائيليات اللواتي نشرنّ الأيدز في صحراء سيناء». فنظرت إلى حازم وقلت في نفسي، هل يُفترض بي أن أكتب عما يحدث في بلدك فقط، أم عما يحدث هنا أيضاً وفقاً لاعتقاد الناس؟ ولكن كيف يمكنني مجدداً معرفة رأي المواطن العادي؛ من دون الاطلاع على استطلاعات للرأي يعول عليها؟

الفصل الرابع

حاميتها حراميتها

لدى استعادة الأحداث الماضية، أتساءل عن سبب مرور وقت طويل قبل أن أدرك أن مفهوم الصحافة الجيدة في الشرق الأوسط ليس سوى تناقض في التعابير. لقد أغفلت ذلك طيلة سنوات لأنني لم أكن أملك أي فكرة عن الصحافة، أولاً؛ ولأن أحداً ممن يمارسون المهنة لا يتحدثون عن الأمر، ثانياً؛ ولأن معنى كلمة دكتاتورية لم يكن واضحاً بالنسبة إليّ لمدة طويلة من الزمن، وهو السبب الرئيسي الثالث.

بالطبع، لقد قرأت عن الدكتاتوريات. فعندما كنت طالباً صغير السن، صادفت عباراتٍ مثل «يتمسك الحكام الدكتاتوريون بالسلطة من خلال مزيج من الترهيب، والتعيين، والتضليل»، أو «في إطار الدكتاتورية، يؤدي انعدام سلطة القانون إلى مجتمع فاسد بشكل مزمن وغير شفاف على الصعيد البنيوي، ويغدو الرأي العام غير منسجم بشكل جوهري مع واقع الحال».

لم أفهم الأمر جيداً في الواقع، وبقيتُ على هذه الحال مدة طويلة من الزمن. وفي أثناء العام الذي قضيته في الدراسة الجامعية في المنطقة، علمت أن الناس يُرسلون إلى السجن من دون محاكمة، ورأيت صور الرئيس، وكان هناك دبابة مدرّعة تحمل مدفعاً رشاشاً أمام الحرم الجامعي.

أنت تعتاد هذه الأمور. لقد علمت أن النظام لن يمسنني بسوء كوني غريباً - ستكون دعاية سيئة للمستثمرين وتؤدي إلى امتناع السياح عن زيارة البلد - لذلك يبقى الحال بالنسبة إليّ سؤالاً مثيراً للاهتمام أطرحه على نفسي: هل يكون أصدقائي الطلاب والأشخاص الذين أراهم ثلاث مرات أو أكثر في الأسبوع مخبرين لأحد أجهزة المخابرات؟ وعندما عدت إلى البلد الذي درست فيه كمراسل، عرفت أن أسوأ ما يمكن للنظام أن يقوم به هو ترحيلي؛ أمر لم يسبق أن حدث هناك منذ سنوات. لقد عشت حياة ممتعة، وهكذا بقي الوجه الحقيقي للنظام الذي كنت أعيش وأعمل في كنفه مستوراً. وبدا لي أن شيئاً لم يتغيّر في الصور الرئاسية، والدبابات، والانتخابات المتكررة بالرغم من كل شيء.

ولكن بعد أقل من عام، لم أعد واثقاً من ذلك تماماً.

وبما أنني أتوق إلى الأفضل، استمررت بالتقرب من الرؤوس المتكلمة للحصول على آرائهم في شأن أخبار الساعة: نزاع بين العراق والولايات المتحدة («إشارات أكثر عدوانية من بغداد»); تراجع أم اختراق على صعيد عملية السلام («جيران إسرائيل متفائلون بحذر»); الخطبة الأخيرة للرئيس الأميركي أو وزير الخارجية («يبدو أنها كُتبت في القدس»).

يستمتع العرب بالتحادث مع بعضهم بعضاً، لذلك شاركت في الحديث بعد إحدى مقابلاتي من دون أن أستخدم جهاز الكمبيوتر المحمول. عندها، سمعت عبارة حملتني على التفكير في أحداث ماضية، مرحباً جميعاً! لقد أخبرني أستاذ في إحدى الدول العربية أنه كان قد توقف عن مناقشة الشؤون السياسية مع زوجته حول مائدة العشاء، وكفّ عن إطفاء التلفاز عندما يظهر الرئيس على الشاشة. وبلغ ابنه سنّاً يقوم فيه بتقليد الوالد؛ في ملعب المدرسة، مثلاً، حيث يجول أبناء العملاء السريين. وأقرّ

محام من بلد آخر أنه يتسلم قضايا زبائن أثرياء من دون غيرهم لأنك إذا لم تكن قادراً على تسديد أتعاب القاضي (تعبير مجازي لأن القضاة لا يتلقون أجراً من المتخاصمين بل راتباً من الدولة) فإنه لا جدوى من إقامة دعوى قضائية. وقال رجل أعمال إن شرطياً أوقفه في اليوم السابق بسبب إقفال الطريق لأن الرئيس ذاهب في ذلك الاتجاه. «قبل أن أتمكن من الاستدارة بسيارتي»، قال رجل الأعمال، «عرضت ابنتي البالغة من العمر أربع سنوات على الشرطي ورقة نقدية تكفي لشراء قطعة من الشوكولا. لقد اعتادت الحصول على كل شيء من خلال الرشوة».

يحظر في العمل الصحفي إجراء مقابلة مع سائقي السيارات مخافة أن يقولوا ما يريد الزبون أن يسمع. ولكن في العديد من دول الشرق الأوسط، يعمل سائقو السيارات في النهار كموظفين مدنيين، فتكون سياراتهم مكاناً آمناً لتبادل أطراف الحديث مع الناس العاديين. وبعض السائقين حذرون في كلامهم، في حين يكون آخرون أكثر انفتاحاً: قال أحدهم إن باستطاعة رجال الشرطة إجراء صفقات رابحة عند تقاطعات الطرق المزدهمة، وذلك من خلال تحرير محاضر ضبط بغرامات مالية مرتفعة تذهب إلى جيوبهم الخاصة. وتجد حصة كبيرة من الأرباح طريقها إلى جيوب المسؤول المباشر عنهم، وهكذا دواليك، مؤلفين هرمًا من الطفيليين. يعمل بعض السائقين في الجمارك، أو جباية الضرائب، أو التعليم، أو السجن، ويبدو أن الهرميات نفسها موجودة في كل مكان. «لا خيار آخر لي»، يقول السائقون. «راتبي منخفض جداً ولا يفي بمتطلباتي الحياتية».

لقد أخبرني سائقي المعتاد في الأردن أن شقيقه قصد عاصمة دولة مجاورة بسيارة مرسيدس جديدة لقضاء نهاية الأسبوع مع عائلته. وفي صباح اليوم التالي، اختفت السيارة. فأبلغ عن عملية السرقة في مركز الشرطة، وقام بزياراته متنقلاً بسيارة أجرة. ولكنه رأى في اليوم الأخير

سيارته المرسيديس تحمل لوحة حكومية. تتبّع مركز الشرطة اللوحة، وبعد ساعة من الزمن، ظهر عميد. «هل كانت تلك سيارتك؟» سأل بفضاظة. «لقد وجدنا فيها أسلحة ومخدرات بما يكفي لسجنك إلى الأبد». فأوماً الشقيق برأسه، واستأذن، وغادر.

في أثناء إحدى فترات إقامتي في هولندا بعد عودتي إليها، أخبرني سائق تاكسي من أصل عربي أفريقي أن شخصاً ودوداً دنا منه في أحد المقاهي في أثناء رحلته الأخيرة إلى الوطن، وبدأ بطرح أسئلة عليه، ودار بينهما حوار شعر سائق التاكسي نتيجة بانزعاج كبير لما آل إليه الحال في بلده، وتذمّر من بعض الأمور. فقال الشخص الودود: «اسمع، أنت وغد، أنا أعمل لصالح الشرطة السرية. سأعفو عنك هذه المرة، ولكن عليك الانتباه أكثر لما تقوله. أعرف أين أجدك وعائلتك».

إليك قصة «وليد». لقد التقيته بعد زيارة البابا إلى إحدى الدول العربية التي نجمت عنها مقالة كتبته حول الأماكن التي قام البابا بزيارتها، وزيتتها باقتباسات للرئيس ورجل الدين المسيحي الأعلى رتبة في ذلك البلد تناولت التسامح الديني والسلام العالمي. وبطنتها باقتباسات لمسيحيين مواطنين عاديين تناول اهتمامات الناس. لقد ملأت المقالة الصفحة الأمامية، وأرسل لي زملائي في الوطن تهنتهم.

شكراً، ولكن يبدو أنني كنت أستقي الكثير من المعلومات عن ذلك البلد من وليد. لقد نصحتني به قائد فريق سياحي. لم يكن يرغب في بادئ الأمر بالتكلم بسبب خبراته السيئة مع الصحفيين الغربيين. كان وليد في العشرينيات من عمره، ويعتمد قصة شعر حديثة ويرتدي ثياباً أنيقة، وكان والده قد أقام في إنكلترا لمدة من الزمن. فتناولنا الشراب معاً في مقصف الفندق، وتمشينا إلى ملهى ليلي. كيف يكون عليه حال

شاب مؤيد للغرب يقيم في هذا البلد؟ فنظر إليّ كما لو أنني أسأله ما إذا كانت دولته ستفوز يوماً بكأس العالم. «الأمر مُملّ حقاً. مملّ، مملّ، مملّ. كل يوم ترى الشعارات نفسها؛ وتسمع الهراء نفسه المثير للفتن عن إسرائيل، علماً أن الجميع يعرفون أننا لن نتمكن أبداً من القيام بأي شيء للفلسطينيين. الجميع يتحكمون. إنهم يبيعون شهادات في الجامعة بقيمة ثلاثمئة دولار لكل تخصص. ويُجبر الأساتذة الطالبات على ممارسة الجنس معهم في مقابل الحصول على علامات مرتفعة. ويُهيئ أبناء الآباء الذين هم على درجة من الأهمية كل تخصصاتهم دون إجراء أي امتحان. أنت تعمل بكّد ومثابرة بخلافهم، وتحصل على علامة جيدة ولكنه يحصل على علامة ممتازة لأن والده أجرى اتصالاً بالأستاذ. أَلن يحملك الأمر على الجنون؟

ما الذي تشعر به عندما ترى صورة الرئيس؟ «لا شيء - الاشمزاز ربما. هؤلاء الأشخاص يدمّرون بلدي. إنهم يسرقون أموال النفط، ويدمّرون الآثار التاريخية، ويلوثون المحميات الطبيعية، وينون على الشاطئ. إنهم الأشخاص الذين يكون باستطاعتهم القفز فوق مخطط تمهيدي دام إعداده ثلاث سنوات من خلال توجيه رسالة ليس إلا». وشرح وليد سبب تجنّبه الصحفيين الغربيين. إنه يعزف مع فرقة موسيقية، وقبل عام أجرى معه مراسل من لوس أنجلوس تايمز مقابلة بهدف إعداد مقالة. في أثناء المقابلة ألقينا دعابات تتناول النظام. لقد اقتبس ذلك فقط وأغفل كل شيء عن موسيقانا. واتصل جهاز المخابرات بعد ذلك، وكان عليّ الحضور يومياً إلى مركزهم طيلة أسابيع؛ الأسئلة نفسها على الدوام، وساعات انتظار. إنه أمر مُملّ، مملّ، مملّ. لماذا أضع موسيقى غريبة؟ لماذا كنت أقصد مقاهي الإنترنت؟ كما لو أن ذلك ينطوي على سلوك منحرف! لا يملك أولئك الأوغاد أي فكرة عما يبدو عليه العالم خارج البلد. إنهم يحملوننا

على الشعور بالملل حتى الموت بكل ما للكلمة من معنى.

أحضر لنا النادل مزيداً من الشراب. ودخل رجلان لهما شاربان يرتديان سترتين جلديتين، واتجها للجلوس إلى الطاولة الأمامية الأقرب إلى الفتيات الراقصات. فعلى مقربة من المكان، وفي الشارع نفسه، يقع مركز التحقيق الأكثر أهمية، من الواضح أن الرجلين يعملان هناك. لا بد من أنها الطريقة لاسترداد أنفاسهما بعد عمل يوم شاق يشمل واضع منخسات كهربائية على أطراف الناس. كيف تشرح زوجات من مثلهم ذلك لأبنائهنّ وبناتهنّ؟ العم محمد مدرّس، والعم ياسر مهندس، والبابا يُخضع أعداء الرئيس للتعذيب. «أخبرني أمراً إيجابياً»، قلت بعد تناول كوب آخر من الشراب.

أخبرني وليد عن جارٍ له بنى جداراً كبيراً حول حديقته. «اغتاظ الحي بأكمله واتصلوا بأنسابهم. وبعد أيام قليلة، قدم عقيد في الجيش، ولكن قدومه جاء متأخراً جداً. كان الجار قد رسم صورة ضخمة للرئيس على الجدار وعبارة...! كان العقيد عاجزاً عن القيام بأي شيء حيال الأمر».

لقد بلغني أكبر قدر من المعلومات عن أنظمة المنطقة من غربيين. كانوا يعملون في مراكز مرموقة في الدول العربية، ولم يكن باستطاعة الأنظمة أذيتهم، ويحب العديد منهم تناول مشروبات ليتحدثوا بسهولة أكبر. ففي إحدى حفلات العشاء، أخبرني مستشار في الاتحاد الأوروبي أنه ساعد إحدى الحكومات العربية المشرقية في مسألة الشفافية. وتمثلت الفكرة بإدراج لائحة على الإنترنت بكافة المستندات التي قد يكون المدنيون بحاجة إليها كلما أرادوا الحصول على موافقة لخطتهم أو مشاريعهم. لقد حال الموظفون المدنيون دون ذلك على الفور، قال المستشار. وبما أن المواطنين لا يعرفون بالتحديد المستندات التي

يتعيّن عليهم اصطحابها معهم، كان الموظفون المدنيون يستمرون بابتكار متطلبات جديدة قائلين «عودوا غداً» حتى يُعرب المواطنون عن استعدادهم لدفع رشوة.

في أثناء لقاء قمة عربية، تعرّفت بغرهارد، وهو مدير ألماني لفندق من الدرجة الأولى. قبل ساعات من انعقاد القمة، دخل رجل من الأجهزة الأمنية، وسأل غرهارد إن كان يريد الحصول على 150 راية ثلاثية الألوان؟ «ظننت أنه يُفترض بي تعليقها في مكان ما»، روى غرهارد السكران. «ولكن، ظهرت فجأة ثلاث عربات مقفلة أمام الباب، وكان عليّ السماح لنحو 150 موظفاً بالخروج للتهديل للرئيس في أثناء مروره في الشارع. كان الفندق مليئاً بضيوف حلّوا فيه بمناسبة انعقاد القمة والذين تُركوا من دون أي شخص يقوم بخدمتهم طيلة الفترة التي استغرقها الترحيب بالرئيس».

الشراب يكتسب مزيداً من الفعالية، كنت أقول في نفسي في أغلب الأحيان، وظهرت فعاليتها عندما التقيت المهندس الهولندي رولند، من شركة الماء القائمة في واحة الفيوم، في حفلة شراب أقامتها الجالية الهولندية في القاهرة. كان قد أخبرني في وقت سابق بأن وزاراتي الرّي والأشغال خرّبت المشروع.

بعد تناول عدد منعش من عبوات شراب الشعير، أضاف: «تكمن المشكلة في الكلمات. نحن نقول وزارة لأن النظام يستخدم تلك الكلمة، ولكنه أمر مختلف تماماً في الواقع. فليس من مهام الوزارة جعل مشاريع الرّي أكثر فعالية وأقل فساداً، بل يتعيّن الحصول على دعم آلاف المزارعين من خلال عرض الأرض والماء والأسمدة عليهم. في مقابل ذلك، يُخضع هؤلاء المزارعون مزارعين آخرين للمراقبة، ويخرج الجميع إلى الشوارع للتهديل عندما يأتي الرئيس أو أحد الوزراء في زيارة. في

الوقت نفسه، تُبقي وزارة مماثلة آلاف وآلاف من العاملين في أعمالهم في المدن. في هذه الحالة، يكون أداء الوزارات أفضل إذا أرسلت ثمانية موظفين مدنيين إلى منازلهم واحتفظت باثنين منهم ليعملا براتب عشرة موظفين. فهذان الإثنان سيكسبان مالاً كافياً لعائلتهما. ولكن عندها، يكون هناك ثمانية أشخاص بلا عمل. ما الذي سيفعلونه؟ هذا صحيح، النظام فاسد. ولكن الأمر يتعدى ذلك - النظام هو الفساد بعينه. لديك عشرة أشخاص لا يقدمون الكثير لقاء راتب منخفض جداً - منخفض لدرجة أنهم لا يستطيعون تأمين متطلبات الحياة بواسطته، ولكنه كبير جداً بحيث أنه لا يخولهم التذمر. بهذه الطريقة، أتم تجعلونهم متواطئين وعُرْضة للأذى، مما يعني أن عليكم إبقاءهم تحت السيطرة».

لقد وضعتني هذه القصة على المسار الصحيح: الأنظمة غير الديمقراطية هي أنظمة مختلفة بشكل جوهري، ولكن هذه الحقيقة غير معروفة لأن وسائل الإعلام الغربية والمتخصصين الغربيين يكتبون عنها كما لو أنها ديمقراطيات. بالرغم من إجراء انتخابات لا يمكن دعوة هذه العملية انتخابات حيث لا يُسمح لك بتأسيس حزب، ولا يمكنك القيام بحملة مفتوحة، ولا يمكنك الاستفادة من الصحافة الحكومية، ويتعين عليك الاقتراع في ظل رقابة مشددة؛ يسود الغش بعد ذلك عملية فرز نتائج الانتخابات.

بفضل صدام حسين، أصبحت الأنظمة غير الديمقراطية مفهومة بالشكل الصحيح. في بلده، لم أشاهد أفعال هذه الأنظمة فحسب بل شعرت بها أيضاً، وقارنتها بالجنس: يمكنك قراءة كل ما تريد عن الجنس، ولكنك لن تحصل في الواقع على أي إلماعة حول سبب استمرار الناس بممارسته إلا عندما تمارسه بنفسك.

كان العراق في ظل حكم صدام الدكتاتورية المعزولة كلياً إلى حد ما على الصعيد الدولي، لأن البلد خضع منذ العام 1990 للعقوبات

التجارية الأشد في التاريخ. ولم يهتم صدام بصورته - لم يكن يُسمح للسائح والمستثمرين بدخول العراق - ولم يكن للمراسلين الغربيين وضعٌ خاص. والنتيجة هي أن العراق كان البلد العربي الوحيد الذي يعامل فيه صحفي غربي كأى شخص آخر.

بدأ الأمر مع تأشيرة الدخول. كنت قد وجهت رسائل فاكس، وأجريت اتصالات هاتفية طوال أشهر، وجمعت معلومات رئيسية من نشرات إعلانية دورية، وقيمت برحلات جوية غير ذات جدوى بين القاهرة وعمّان. وفي المرة الوحيدة التي تمكنت فيها من دخول بغداد، قالوا: «لقد أرسلنا الموافقة منذ زمن طويل، يا رفيق. اذهب إلى عمّان». فقيل لي هناك: «غداً، ربما». أخيراً، ساعدني صحفيون آخرون على الاستعانة بخدمات مصري ذي صلات ليؤمن لي تأشيرة دخول مقابل ألف دولار جديدة سدّتها فولكسكرانت. «لقد حصلنا عليها»، قال لي بعد أسبوعين. «لم أستلم الموافقة إلا بعد أسابيع؛ لقد تطلّبتني الأمر فترة من الزمن لأعرف من يجب أن أرسو».

كانت تأشيرة الدخول جاهزة، ولكن يتعيّن عليّ دفع رشوة؛ كلمة أخرى لم يسبق لي أن استخدمتها قبل وجودي في الشرق الأوسط، وإذ بي أحصل على مقرّر دراسي سريع: تضع ورقة مالية من المصرف المركزي الفدرالي الأميركي (في هذه الحالة، مئة دولار) داخل مغلف مع طلب تأشيرة الدخول. فيومئذ الموظف برأسه دلالة على رؤيته الورقة النقدية الخضراء، ويكون هذا الأمر بمثابة إيصال لك.

كان هناك أمر شخصي مرتبط بعمليات الرشوة، وقد حصلت على كفايتي من هذا الأمر. «اختبار الأيدز»، قال موظف الجمارك عند الحدود الإيرانية-العراقية «يحتاج العراق إلى حماية نفسه من الأمراض الغربية». لكن مقابل خمسين دولاراً، يمكنهم أن يغضّوا الطرف عن الأمر. «انتظر

هنا حتى ننهي العمل المكتبي»، قال لنا موظف جمارك آخر يجلس تحت لوحة كتب عليها صدام حسين، قائد رائع لشعب رائع. فأوماً سائقي برأسه؛ لقد حان الوقت لإعطاء الموظف دولاراته الخمسة والعشرين ليقوم بختم الأوراق في الحال وليس بعد نصف ساعة. «هاتف يعمل عبر الإرسال الفضائي»، قال موظف آخر أثناء قيامه بتفتيش أمتعتي: كنا بحاجة إلى كدسة من المال. للحصول على إذن من وزارة الإعلام للتمكن من إدخال هذا الهاتف فمئنا الموظف مزيداً من السجائر، والمشروبات الفوارة، والمال. ولكل عقبة سعرها، والطريقة التي يشير فيها موظفو الجمارك إلى أنهم يريدون مالاً هي بقول التالي: «نريد ارتشاف الشاي».

أخيراً، فتحت الطريق إلى بغداد، وشققنا طريقنا عبر الصحراء التي لا بد من أن تكون كلمة مهجورة قد ابتكرت لأجلها. وبعد خمس ساعات، لاحت في الأفق مدينة ألف ليلة وليلة. فمررنا بسوق الحرامية حيث بيعت غنائم سُرقت من الكويت، ومن ثم تحت قوس النصر الذي كان يريد صدام في البدء تزيينه بجماجم الجنود الإيرانيين القتلى بدلاً من خوداتهم. ومررنا بوزارة الدفاع أيضاً؛ كنت قد أجريت بحثي، لذلك عرفت أنه المكان حيث تمدد فيه الرئيس قاسم ذات يوم من العام 1963 عندما تعرّض للقصف من قبل قوّته الجوية الخاصة، واعتقله جنوده، وأعدموه. كانت رويترز قد أرسلت برقية تعرض فيها مبلغ أربعين ألف دولار لقاء صور للجنث، ولكن منظمي الانقلاب رفضوا ذلك.

وصلنا إلى فندق الرشيد حيث بدأت أشعر في الواقع بما يكون عليه الحال عندما تخضع لنظام لا حقوق لك فيه. فعامل مقسّم الهاتف لا يجري اتصالات لصالحك إلا إذا دفعت له بعض المال؛ وكذلك للحارس المسؤول عن الخزائن الفولاذية لاحتفظ بتجهيزاتي أيضاً. فرمق البواب بنظرة محزونٍ ورقة الدولار الواحد التي أسلمه إياها، ومن ثم

نظر إلى وجهي المتعرق: «هل لديك المزيد؟» سأل. كان يعلم أنني أعلم بوجود مفتاح معه للغرفة، وأن باستطاعته سرقة كل شيء عندما أخرج. لهذا السبب، هم يملكون خزائن معدنية، ولكن لم يكن بإمكانني وضع حذائي، وفرشاة أسناني، ومؤونتي من الماء هناك. لذلك، كان عليّ رشو الخادومات، ورجال الأمن، والمنظفين، وكل من يمكنه دخول غرفتي.

في صباح اليوم التالي، قمت بزيارتي الإلزامية لوزارة الإعلام، وتعرّفت بمازجدي من البوليس السري. فكل صحفي أجنبي يحصل على أحد هؤلاء العملاء. نحن ندعوهم معتون؛ بهذه الطريقة، يبدو واقع الأمور أفضل. وكنت هناك بعد فترة قصيرة مع جهاز الكمبيوتر المحمول، جالساً مع مديرة مركز صدام حسين الثقافي. كنت قد دخلت في شجار مع مازجدي لأنني لم أكن أريد الذهاب إلى المركز الثقافي. وعانيت بعد ذلك، وبتهذيب، خمسمئة صورة مرسومة للشخص نفسه من قبل عشرين فناناً مختلفاً. وجلسنا ثلاثنا لارتشاف الشاي، وسألت المديرية عن سبب قيام الفنانين برسم صدام حسين فقط. كانت امرأة شاحبة الوجه في أواسط عقدها الخامس وتكلم لغة إنكليزية غير سليمة. «هل أنت مجنون؟» صاحت. «كيف تشك بحبنا لقائدنا سيادة الرئيس صدام حسين؟ هناك مؤامرة عالمية ضد العراق! هل هناك أفضل من قائدنا، حماه الله، ملهماً للفنانين؟»

أوماً مازجدي لي. كان يريد في الواقع الانتقال إلى ملجأ العامرية حيث قتلت قبيلة أميركية 403 عراقياً في أثناء حرب الخليج. «كل الصحفيين الغربيين يقصدون العامرية. إنها قصة هامة، أم أنك لا تريد إخبار الشعب الهولندي عن جرائم الحرب التي ارتكبتها الأميركيون؟» كنا قد تجادلنا في السيارة لأنني أردت الذهاب إلى مدرسة ابتدائية بدلاً من ذلك؛ فلا نافذة إلى القلب أفضل من رسوم الأطفال. ولكن

الحصول على إذن للقيام بهذه الزيارة بقي أمرًا مستحيلًا، ولم يكن باستطاعة أحد شرح السبب.

استمر الوضع على هذه الحال لمدة ثلاثة عشر يوماً، وكنت شخصاً عاجزاً طوال هذه المدة. لقد غادرت بلداناً عربية أخرى مع شعور بالأسف باستمرار بسبب وجود المزيد مما يمكنني القيام به. أما العراق فغادرته قبل يوم من الموعد المحدد بالرغم من كل المشاحنات التي كنت قد مررت بها للحصول على تأشيرة دخول. كم كانت تلك الأيام الثلاثة عشرة حُلماً مزعجاً بالنسبة لي إذ كنت أصادف أشخاصاً يتَهَرَّبون من الأسئلة الأكثر براءة بتعليقات مثل، «لقد أنعم على العراق بقائد قوي كسيادة الرئيس صدام حسين، حماه الله»، أو «أنا على ثقة تامة أن قائدنا يملك حلاً لهذا الأمر»، أو «لست مهتماً بالسياسة». وقضيت كل الأيام جالساً في السيارة مع عميل سرّي لا أحد سوى الله يعلم ما يُضمر، وكان عليّ تناول العشاء معه في الخارج كل مساء؛ على نفقة فولكسكرانت بالطبع.

«من المدهش أن يكون لديهم هنا شراب صنع في هولندا، يا مازجدي».

«بفضل صدام حسين، لدينا كل شيء».

في الفندق، شعرت كما لو أنني صرّاف آلي على قدمين. فقد كان عليّ كل مساء الأخذ بعين الاعتبار إمكانية سرقة مياه الشرب الخاصة بي، وملابسي، وأوراق النقدية. حيث يوجد ميكروفون سرّي داخل الهاتف في غرفتي، وكل شيء على التلفاز موضوعه صدام حسين، ومن الواضح وجود آلات تصوير مخبّأة وراء المرايا التي تغطي الجدار بكامله. «الرجل الحقيقي يتخلى عن سرواله»، قال زملائي جازمين عندما كنا قد التقينا في مشرب في عمّان لتناول بعض المشروبات المشجّعة قبل مغادرتي إلى العراق.

طلبت سيارة تاكسي لصباح اليوم التالي لأن الطرقات المؤدية إلى الحدود تكون مراقبة في المساء من قبل اللصوص الذين يتقاسمون غنائمهم مع رجال الشرطة. حزمت حقائبي، وقصدت وزارة الإعلام القريبة في وقت متأخر من ذلك المساء لتسديد تكلفة إقامتي في العراق: مئة دولار يومياً لقاء الإقامة في العراق، مئة دولار أخرى لقاء إدخال هاتف خلوي، وخمسون دولاراً في اليوم لمازجدي. حتى إنهم أعطوني وصلاً مختوماً لأن المحاسبين الغربيين صارمون جداً... وبينما كنت أستأذن للانصراف، قال المدير: «لقد سددت الحساب، يمكنك المغادرة الآن».

«يصف العرب العاديون هذا الأمر بتعبير محدد»، قال لي السائق الأردني عندما غادرت العراق. «حاميتها حراميتها».

لقد أرهقت أعصابي بعد تلك الرحلة. وعندما استعدت عافيتي في القاهرة، أدركت أن ما ترك أثراً في نفسي إلى هذا الحد ليس الخوف العادي؛ فقد كان عليّ التعاطي مع ذلك الخوف إذا أردت أن أطرح قدراً كافياً من الأسئلة في أي دولة عربية. فتعرضي للأذى، والعجز المهين الذي اختبرته في السفارة في عمان، وعند الحدود، وفي فندق الرشيد، وفي وزارة الإعلام الجشعة، هو ما ترك في نفسي هذا الأثر. كنت مُراقباً على الدوام، وعانيت من إدراكي المستمر بأن لا حقوق لي إذا تعرضت للسرقة. كان يمكن أن أختفي من دون ترك أي أثر ومن دون أن يرف لأحد جفن.

إنها النقيض المجرّد للديمقراطية، وكان عليّ اختبارها بشكل ملموس لأفهم الفارق الجوهرى بين هذا النظام والديمقراطية. فإذا خرق أحدهم القانون في هولندا وألحق بي الأذى، أعلم أنه باستطاعته إبلاغ الشرطة بالأمر. وإذا لم يفعلوا شيئاً، يمكنه ممارسة الضغط على

مستويات أعلى أو الذهاب إلى المفوض المدني. يمكنه الحصول على محام أو على تغطية صحافية، أو الذهاب إلى عضو برلمان أو إلى المحكمة الأوروبية. هناك سلطات عديدة مختلفة يمكنه الاستعانة بها لدى ممارسة حقوقه المدنية، وتراقب هذه الهيئات المختلفة بعضها بعضاً وتصوّب مسارات بعضها بعضاً. فمن شأن هذا الأمر أن يجعل سوء استخدام السلطة وبلوغ حالة الفساد أكثر صعوبة، في حين أنك تملك على الأقل المنحى القانوني المؤكّد؛ أساس الديمقراطية. وعندما ترى شرطياً في هولندا، تشعر بالاسترخاء لأن ذلك الرجل أو تلك المرأة موجود أو موجودة هناك لأجلك. ولكن عندما يرى عربيّ شرطياً، يبدأ بالركض. حاميها حراميها.

بالطبع، ليس الجميع في العراق فاسدين أو مروّعين؛ فعلى غرار الديمقراطيات الغربية، لا تسير الأمور دائماً وفقاً لتوجيهات النظام. ولكل بلد عربي طريقته الخاصة المختلفة، ولا يقضي العرب اليوم بأكمله وهم يتعرّضون للسرقة، وتلقّي الاتهامات الموجهة إليهم، ومراقبتهم من قبل المُخبرين. ولكن إذا حدث لك أمر ما، فلا وجود لإجراءات متبّعة عالمياً لممارسة حقوقك، مما يجعلك عرضة للأذى. لذلك، أُصيب مازجدي المعتمي بي بنوبة هلع عندما أردت الخروج عن السياق المحدد لبرنامج الزيارة. ولو حدث ذلك، لتعرض للابتزاز - «أين اختفيت كل الوقت مع ذلك الجاسوس الغربي؟» وربما كان مازجدي يبتزّ مروّوسيه أيضاً.

بعد مرور بعض الوقت على تلك الرحلة إلى العراق، عدت إلى هولندا لمدة وجيزة لقضاء ما ندعوه أيام المراسل، وهو حدث يجري كل عامين إذ يعود المراسلون إلى الوطن لمدة أسبوع. بدأ اللقاء على نحوٍ ممتع لأن المراسلين أشخاص ممتعون، وشعرت باسترخاء أكبر

عندما اكتشفت أن العديد من الأشخاص يشاطرونني عدم ارتياحي في شأن وكالات الأنباء. لقد شعر كل مراسلينا رجالاً ونساءً في مكاتبنا في لندن، وباريس، وبرلين، وواشنطن، بأن الأخبار غير الصحيحة تهيمن على الأنباء، وأنا نعتمد أخبار وكالات الأنباء من دون تفكير.

كان ذلك بلسماً لروحي، ولكن هل كنا نتحدث عن حالات الإحباط نفسها؟ في ذلك المساء، وفي أثناء جلسة تناول المشروبات، سألتني زميلة تتخذ دولة غربية مركزاً لها عن نوع الشعوب الذي ينتمي إليه العرب. فأعددت إجابة معيارية لهذا السؤال: لقد تبّنت الصوت الذي يُظهر مدى تخصصي في هذا الميدان، قائلاً إن العالم العربي متنوع جداً وإن مصر هي البلد الوحيد الذي أعرفه جيداً. ونادراً ما كنت أتحدث إلى النساء، لذلك فإن انطباعاتي تشمل نصف الناس فقط؛ وإذا تعرفت بشخص واحد كل يوم، يصبح عدد هؤلاء الأشخاص حوالى الألف في ثلاث سنوات، أي ما نسبته 0.0004 بالمئة من مجموع الشعوب العربية البالغ 260 مليون نسمة.

أجل، أجل، قالت - قل الآن ما الذي تعتقده حقاً. وراودتني فكرة: لم أكن أعرف من يشبه العرب، لا لأنني لم أحاول بل لأنه لم يكن باستطاعتي أن أعرف.

«أنت تعملين في ديمقراطية»، قلت لزميلتي، «وفي ذلك النوع من الأنظمة تحصيلين على كافة أنواع الوسائل التي يمكنك استخدامها لمضاعفة التحقق من انطباعاتك حيال نسبة الـ 0.0001 بالمئة من الأشخاص الذين تتحدثين إليهم. هناك سياق متبع. الناس في بلدك يجروون على التحدث إليك. هم يجروون على التحدث إلى بعضهم بعضاً، وهناك حرية الصحافة. هناك استطلاعات الرأي، وتقديرات المحطات التلفزيونية والإذاعية، ونتائج الانتخابات. بمعنى آخر، في

وضعك أنت، يمكن لوكالات الأنباء أن تنور جزءاً أكبر بكثير من المجتمع، ويمكنك تقصي الأمور لمصلحتك الخاصة. وقد تقوم وكالات الأنباء بوضع المقالات التي تكتبن جانباً، وهذا ما سئمت منه. ولكن المسألة تختلف في دول أخرى؛ لا يوجد هناك أي طريقة لتقديم اقتراحات خاصة. حيث أنت موجودة، باستطاعة أحزاب المعارضة، والمنظمات غير الحكومية، ومجموعات العمل، والصحافيين، الاتصال بالقائد لتوبيخه، ويتعين عليه الدفاع عن نفسه. وحيث أنا موجود، يرسل القائد زمرة من الأشرار. فاكتساب السلطة هي رأس الحكمة: يحاول الحكام الاستئثار بالسلطة بشكل كامل، مما يعني القيام بكل ما يحول دون حصول أتباعهم على أي معلومات. فكلما كان المجتمع غيباً سهلت عملية إفساد السلطة وساء استخدامها، وبات تشكيل معارضة أكثر صعوبة.

«إن واقع كونك غير خائفة من الاستماع إلى ما أخبرك، وكوني غير خائف من قول ما أقول، هو الفرق بين الديمقراطية ونقيضها. تخيلي لو أننا نعرف أن نصف الأشخاص الموجودين هنا حول هذه الطاولة - بالرغم من عدم معرفتنا بهم - يعملون لصالح أجهزة المخابرات. ماذا لو كان كل مدبرائنا أعضاء حزبيين ينقلون أفكارنا لأجهزة المخابرات؟ ألا تظنين أنه يُستحسن بنا التزام الصمت؟»

عندما ذهبت بوصفي مراسلاً، بدت الممارسة الصحافية مجموعة أدوات يمكنك إفراغها واستخدامها في مختلف أنحاء العالم. ولكن الأنظمة الدكتاتورية والديمقراطية ليست سيارتين من طرازين مختلفين. فإذا كانت الديمقراطية سيارة تكون الدكتاتورية بقرة أو جواداً. فالشخص الذي يقتل بواسطة مفك براغ أو مِكْوَاة لحام هو شخص عاجز.

الفصل الخامس

كل الأخبار الصالحة للنشر

لا عجب في أن يروي الناس الكثير من الدُعات لبعضهم بعضاً: «نهتسك يا فخامة الرئيس!» يقول المستشار. «99.98 بالمئة اقترعوا لصالحك في الاستفتاء العام. هذا يعني أن 0.02 بالمئة فقط كانوا ضدك. ما الذي تريده أكثر من ذلك؟» فزمجر القائد قائلاً: «أسماءهم». اقتحم لصوص الخزنة الفولاذية في المصرف المركزي، فحصل دُعر كبير حتى خرج الحاكم وقال بارتياح: «لم تُسرق أشياء هامة؛ فقط نتائج انتخابات العام 2015».

عندما اندلعت أعمال شغب طلابية في إيران، وكان عليّ تغطيتها انطلاقاً من القاهرة لأن طهران كانت تُبقي بواباتها مُغلقة، كان أمر تغطيتها من حيث أنا أمراً سوربالياً. فكم عدد القراء والمستمعين الذين سيعرفون أنني لم أتمكن من الاتصال بإيران بشكل مباشر من مصر؟ ليسوا عديدين، كما أتوقع، ولم يكن أحد يعرف أنني أعرف في الواقع ست كلمات بالتحديد باللغة الفارسية.

بعد أقل من عام على وصولي إلى الشرق الأوسط، نظم اتحاد

الصحافة الأجنبية في القاهرة رحلة جماعية إلى العراق مروراً بوزارة الإعلام في بغداد. كان جنوناً تاماً. فالمعتنون بنا من جهاز المخابرات سيجلسون في أحضاننا عملياً، ويحملوننا بانتظام على الانتظار في الردهات طيلة ساعات متواصلة من دون تقديم أي تفسير، ويضعوننا بعد ذلك داخل سيارات أجرة للقيام برحلة سياحية. الانسلاخ خارج المجموعة مستحيل لأنك تعرّض حينئذٍ أشخاصاً آخرين للخطر. فإذا رأى عراقي جاره (يكنّ له الكره منذ سنوات) يتبادل أطراف الحديث مع غربيّ، قد يجري اتصالاً بصديق له في أجهزة المخابرات: «لقد جُنّد جاري من قبل جاسوس». هل يستطيع الجار إثبات براءته؟ وأمام أي سلطات؟ ربما كان ذلك الصحفي الماكر من هولندا مُخبِراً أو عميلاً محرّضاً؟ تسمع في الواقع هذا النوع من الأمور المُضحكة؛ فإذا كان مثيراً للقلاقل ولم تبلغ عنه على الفور، فهو قد يبلغ عنك.

كان التوجه إلى الجنوب جزءاً من الرحلة في حافلة تضم نحو ثلاثين شخصاً أُطلقت خلالها دُعابات عن الرحلات المدرسية. وسرعان ما بدأ الجميع يلاحظون أعداداً كبيرة للوحات جدارية للقائد. كانت هناك صورة لصدام يرتدي رداءً فضفاضاً أسود. وبعد ذلك، كان أمام فندق من الدرجة الأولى يرتدي قميصاً هاوايياً ويدخن سيجاراً كوبياً.

في كربلاء، توقف المرح. وفي مسجد العباس الذي يتمتع بشهرة عالمية، تم اقتيادنا في جولة على متحف صغير، كان النظام قد أقامه إحياءً لذكرى ضحايا ثورة العام 1991. كان الشيعة قد حاولوا الإطاحة بنظام صدام فقمعوا بسرعة ومن دون رحمة. والأموات المكرّمون مؤيّدون للنظام قام الثوار بتقطيعهم إرباً في بداية الثورة. لقد رأينا أنوفاً حقيقية، وبقع دم جاف معروضة وراء الزجاج، وصور لرؤوس أطفال اجتثها «عملاء من الجانب الآخر من الحدود»، وفقاً للمراقبين؛ إيران. كان

المتحف مُدرَجاً ضمن كل رحلة مدرسية.

وها نحن حراس حرّية الكلمة نستمع إلى القيّم على مسجد «السيد ماضي» فاضل الغرابي بعد أن دوّنا اسمه بعناية. وتنحج الغرابي وقال بعربية تقليدية قام بترجمتها أحد المرافقين: «قائدنا، السيد صدام حسين، حفظه الله، وضع جانباً خمسين كيلوغراماً من الذهب، و150 كيلوغراماً من الفضة، لأعمال الترميم بالرغم من العدوان المستمر على العراق من قِبَل إيران والغرب». كان هناك على الجدار صورة لصدام يصلي، وشجرة عائلة تثبت أن القائد هو سليل النبي محمد ص. ونظر الغرابي إلى المرافقين؛ هل كان أداؤه جيداً؟

لقد قيل لنا إنه باستطاعتنا طرح أسئلة، وظن البعض أن الأمر جدير بالمحاولة. هل صحيح أنه لدى إخماد الثورة، تم ربط مدنيين إلى الدبابات كي لا يطلق الثوار عليهم النار؟ وأن خُطبة الجمعة لم تُلقَ طيلة سنوات لأن النظام كان يخشى التجمعات؟ وبدأ الغرابي بالتعرق تحت ظل علاقة اللحم، فسارع المرافقون إلى إنهاء الحديث.

اقتادونا إلى مستشفى صدام حسين؛ لم تكن بحاجة إلى مفكّرة لتتذكر أسماء المؤسسات في العراق. وعرف مصوّر فوتوغرافي في مجموعتنا أحد الأطباء الذي التقاه في أثناء الزيارات السابقة التي كان يقوم بها إلى العراق كل ستة أشهر.

«يسعدني رؤيتك! كيف حال المستشفى؟»

«الحمد لله».

كانت كل تجهيزات الجناح تقريباً متوقفة عن العمل، ولم يكن بالإمكان الحصول على قطع غيار بسبب العقوبات. على الأقل، هذا ما قاله النظام. وشرح طبيب آخر أنه يتعيّن إرسال كل مرضى السرطان إلى منازلهم بسبب عدم توافر المال لشراء الدواء. وبعد إلقاء نظرة خاطفة

على المرافقين الذين بدأوا يشعرون بالسأم ويومئون برؤوسهم تعبيراً عن سعادتهم، أكمل بغضب قائلاً إن العقوبات حوّلت العراق إلى مخيم لللاجئين. «ولماذا؟ لأنه يُزعم أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل منذ مدة طويلة، أن أميركا تريد تدمير العراق فحسب، أليس كذلك؟»

قرر صحفي ألماني من مجموعتنا التصرف كما لو أننا في ضيافة نظام كالنظم السائدة في أوروبا. فأشار إلى أنه رأى بركة سباحة، وسيارات مرسيديس، وأطباق لالتقاط الإرسال الفضائي... في المنطقة التي يقيم فيها قادة الحزب. النظام يملك مالاً ينفقه على تلك الأشياء، أليس كذلك؟ فتلعثم الطيب بلكنته الأوكسفوردية. «أنا على ثقة تامة بأن لدى رئيسنا القِيم خطة لإنهاء الأزمة»، قال، ومضى. «هل حصلتُم على اقتباساتكم؟» قال رئيس المرافقين. فأومأنا برؤوسنا، ومضينا بدورنا.

لقد ظهرت طبيعة النظام للعيان مرة أخرى. وبواسطة المعلومات المتوافرة لديّ، وضعت على الفور قصة بعنوان: «القلق يسود كربلاء». ولكن، هل هذا ما كان يحدث؟ وإذا تطلّبتني الأمر كل تلك المدة لفهم طبيعة النظام، كيف يكون عليه حال القراء المقيمين في هولندا الآمنة؟ على كل حال، لقد أثنى عليّ المدير بسبب مقالة أخرى.

تمكّن وزير الشؤون الخارجية، طارق عزيز، من تخصيص وقت لنا لأننا مجموعة. كان عرضاً مسرحياً مع إجابات معيارية عن أسئلة معيارية؛ العقوبات، القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، المناورات الدبلوماسية... لأن كل من يتابع وكالات الأنباء لا يجد جديداً في ما يقال. ومع ذلك، فقد حققتُ نجاحاً لأن طارق عزيز اسم شهير. ولكنني لا أزال أتذكّر ردّي فعل، أحدهما صادر عن شخص من المقر الرئيسي سألني عن سبب عدم تمكّني من الحصول على تأشيرة الدخول بسرعة

أكبر، والآخر صادر عن أحد المحررين الذي شعر بالانزعاج لأنني لم أجب على رسالته الطارئة التي وجهها عبر البريد الإلكتروني. «ألم تكن تعلم أنني في العراق؟» أجبت.

«أجل، و...؟»

اضطرت أن أوضح له مجدداً واقع أنك لا تستطيع توجيه رسائل عبر البريد الإلكتروني في بلد يسوده الخوف. كان الأمر مُحرجاً، ولكن لم أتمكن من تأنيب زملائي كثيراً لأنهم بنوا أفكارهم جزئياً على الأنباء التي كانت تردهم مني. وفي خلال عامين، احتلت مقالتي الصفحة الأولى عشر مرات، ووضعت مئات المقالات، وتمت استضافتي على أثير الإذاعة مني مرة على الأقل، ولكن واقع النظام وطبيعته لم ينكشفوا بشكل واضح إلا في مقالتي المتممة. ولأجل الوضوح، واصلت استخدام كلمة رئيس بدلاً من صفة أخرى؛ وبرلمان بدلاً من آلة تصفيق؛ ومعلق بدلاً من محرّض، أو مهماز.

بعد ذلك، وذات يوم، تصدرت مصر الأنباء. ووفد رؤساء الدول الأوروبية والأفريقية إلى القاهرة لعقد أول قمة أوروبية-أفريقية في محاولة من النظام المصري للتصرف كجسر بين القارتين. ورزحت المدينة تحت ثقل التدابير الأمنية، وكنت سعيداً بذلك لأن منطقتي كانت خارج التغطية الإخبارية لفترة من الزمن. ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً.

فقبل الافتتاح مباشرة، جُمع كل الصحفيين في غرفة في مركز المؤتمرات في القاهرة. وصدورت أجهزتنا النقالة، وقيل لنا إنه لن يكون باستطاعتنا المغادرة حتى إلقاء كلمة الاختتام. وكان الصحفيون القادمون من أوروبا الأكثر شعوراً بالغضب، ولكن الاعتراض لم يُجد نفعاً.

فجلسنا هناك، وشعرت بالرغبة في الصراخ: «ما الذي نفعه هنا؟» في وقت لاحق من ذلك اليوم، زوّدنا القادة الأوروبيون والأفارقة باقتباسات ملائمة نسيناها قبل نشرها. تخيّل حدوث انتفاضة شعبية خارج الباب مباشرةً. لو حدث ذلك، لقال المراسلون معاً: «لم يتوقع أحد ذلك». ولكن لماذا لم يتوقع أحد ذلك؟ لأننا نملك أفكاراً أخرى، أم لأننا نتابع ما تورده وكالات الأنباء وتعتبره «القصة الحدث»؟

كنت قد تخلّيت عن الفكرة القائلة إنك تعرف ما يجري في العالم إذا تابعت الأخبار. ولكن الآن، وفي مركز المؤتمرات في القاهرة، أدركت أن العنصر الأكثر أهمية مفقود من الأخبار التي تناول الشرق الأوسط. فالنظام المتكتم ليس عائقاً أمام الصحافة الجيدة كما هو حال عدم الكفاءة الروتينية لوكالات السفر، مثلاً، التي تقودك إلى الجنون. والتعتيم هو الأمر الأكثر أهمية في العالم العربي لوضع تقارير عنه. وفي بعض البلدان، من الأصعب رؤية سوء الوضع عبر السُحب الكثيفة للدعاية والتضليل، ولكن الشرق أوسطية قامت في الأساس بالطريقة نفسها. والكتابة عن الوضع القائم هو أشبه بوضع تقارير عن فرنسا أو هولندا كما كانتا عام 1943 من دون ذكر الاحتلال. ففي التقارير الإخبارية، والتحليلات، والأحاديث المتداخلة، يُفترض بك أولاً التركيز على الأنظمة وإنجازاتها والتحدث من ثمّ عن الأحداث الاستثنائية أي الأخبار.

باحتراسي داخل مركز المؤتمرات في القاهرة، قررت تبديل المسار وتغطية الحياة اليومية في ظل حكم كهذا الحكم كجزء أساسي من عملي. واكتشفت في الأشهر التالية مدى صعوبة ذلك.

تكمن المشكلة في المبادئ الأساسية للصحافة النوعية. فالناس يشاهدون الأخبار، ويستمعون إلى الإذاعة، ويقرأون الصحف لأنهم يريدون أن يفهموا المزيد عن العالم. وما يقرأونه ويرونه يجب أن يكون

صحيحاً. لذلك، تحتاج إلى اسم أول، واسم أخير، ووجهي القصة، وتحقق مناسب، وتحقق مضاعف، تحتاج إلى معلومات يمكن التحقق منها كما تتفاخر ذي نيويورك تايمز على صفحتها الأمامية: «كل الأخبار الصالحة للنشر». إنه مبدأ جيد ومفيد للغاية في ظل حكم ديمقراطي. ولكن جزءاً صغيراً جداً من الواقع يمكن التحقق منه في الشرق الأوسط ويكون صالحاً للنشر؛ وتمكث البقية في أربع مصافٍ كبيرة.

فالمصفاة الأولى تتمثل بخشية السكان المقيمين، وهي تحول دون قيام المراسلين بكشف النقاب عن كثير من الأمور. وكما قالت فتاة عراقية للبي بي سي بعد سنوات من سقوط بغداد، كانت حياتها في ظل حكم صدام «كوجود شخص ما في رأسك يتحقق على الدوام من أنك لا تريد قول أي شيء سواءً كان محفوظاً بالمخاطر أم لا».

يختلف الخوف بين بلد وآخر؛ لم يكن باستطاعتي التقدم خطوات إضافية في استقصاءاتي بسبب عدم قدرتي على التحقق من أي أمر يخبرني به أشخاص شجعان لا يواجهون سِتاراً دُخانياً. لم يكن يوجد في الواقع أي أرقام أو إحصائيات تمكّني من النظر إلى هذه الحالات من منظور أشمل؛ إنها المصفاة الثانية.

لكن للصحف أيضاً أبواباً خاصة يمكن للمراسلين الإعراب عن آرائهم فيها، أليس كذلك؟ صحيح أنه باستطاعتي إزاحة بعض الأمور عن صدري، ولكن هناك حدود لذلك، ولا نبلغ بأفضل القصص إلى الهدف المنشود. فعندما قررت كتابة مقالة عن عجز الناس العاديين وتعرضهم للأذى، أدركت أن الأمر جدير بالمحاولة إذا كان باستطاعتي إرفاقها بمثال يحرك مشاعر القراء. لذلك، بحثت في إحدى المراحل في ملفاتي وعثرت على اسم امرأة هولندية تقيم في بغداد، وباستطاعتها حمل القراء على الشعور بماهية الحكم الذي تعيش في ظله.

كانت من الهولنديين القلائل الذي لا يزالون في بغداد، وكنت قد التقيتها في أثناء رحلتي الأولى إلى العراق. ونظراً للعقوبات، لم يكن هناك سفارة هولندية في بغداد، لذلك قام القنصل في عمّان بتزويدي برقم هاتفها، وقال لي إنها امرأة مسنة كانت قد تزوّجت بعراقي مسيحي في أوائل الخمسينيات، ولم تغادر العراق طيلة عقود من الزمن، ولا تزال تتكلّم الهولندية على غرار الملكة. في بادئ الأمر، رفضت لقائي. «لا نؤازر الكاثوليك»، قالت بحدة عبر الهاتف، ومن الواضح أنها لم تصدّقني تماماً عندما أخبرتها أن دي فولكسكرانت استبدلت توجهاتها الكاثوليكية بوجهات نظر أكثر تقدّمية قبل أن أولد. ووافقت في النهاية، وبعد ساعات قليلة كنا واقفين خارج منزلها تحت المطر. فُتّح مصراع إحدى النوافذ وخطوت إلى الأمام، ولكن الباب بقي مقفلاً. ونظر مرافقي مازجدي إليّ، ونظرت إليه. كانت هذه المنطقة في ما مضى مرموقة ولعلية القوم كما يبدو من خلال بناؤها الشابكي وحديقته المنبسطة والفارغة.

أخيراً، فُتّح الباب، وتلى ذلك ترحيب غير صادق؛ لم تجرؤ ربما على رفض طلبي. وقُدّم لنا كوب ليموناضة، وقام مازجدي بتقليب صفحات بعض المجلات. كنت قد أبلغته أنني أنقل أفضل تميّيات السفارة، فلم يمانع قيامنا بالتحدث بالهولندية. وبدأت السيدة المسنة بإخباري أنه لم يكن باستطاعتها مغادرة البلد لأن النظام طلب منها عشرين ألف دولار للحصول على تأشيرة خروج. فزوجها مريض والدواء الضروري غير متوافر، وهي تواجه حُكماً بالموت لأنه يسهل معالجة ما تعانيه من مشاكل في القلب في هولندا وليس في العراق.

بسبب رفض صدام حسين التعاون مع مفتشي الأسلحة، لم يكن يُسمَح للعراق بالقيام بأعمال تجارية مع الخارج. ويهدف الحؤول دون بلوغ البلد حد التضرّور جوعاً، سُمح له بتصدير النفط على أن تقوم

الأمم المتحدة بمراقبة العائدات؛ ما دُعي برنامج النفط مقابل الغذاء. هل تملك ما يكفيها من الطعام؟ فشرحت السيدة من دون إظهار أي انفعال أن كل سكان الحيّ يحصلون على حصصهم الغذائية بشكل صحيح، أقله حتى مغادرة موظف الأمم المتحدة - إذا حضر - وإذا لم يكن موجوداً، يعيد الجميع ما حصلوا عليه، وتكون الأولوية لمكاتب النظام. ويذهب ما تبقى من الشحنة الغذائية للعائلات الأكثر ولاءً، ويكون على الجيران الآخرين استجداء الغذاء منها. تحدثت قليلاً عن هولندا، ولكن من الواضح أنها كانت تريد التخلص منا. أمر واحد أخير: لماذا بقي الباب الأمامي مغلقاً لمدة طويلة؟ فأومأت برأسها، وبفتور، في اتجاه مازجدي. «لم تقلّ إنك ستصطحبه معك. لقد ظهر على شاشة التلفاز مؤخراً. إنه يحتل منصباً في جهاز المخابرات. حفيدتي البالغة من العمر سبعة عشر عاماً تقيم معنا. إذا رأها عاد في وقت لاحق... أنت تفهم؟ أولاً، كان عليّ أن أدعها تفرّ من الباب الخلفي».

هذه هي طبيعة النظام. والله كم أردت استخدام هذه القصة، وأردت التحقق من وقائعها، ولكن مازجدي سلّمني لمرافق آخر لمدة يوم واحد. كان سفيراً سابقاً عاد إلى وزارة الإعلام ويعمل منذ سنوات لصالح مراسل ياباني. هما يثقان ببعضهما، والمراسل الياباني يثق بي، وهكذا كان باستطاعتنا التحدث. لقد تحدثت إلى السيدة الهولندية بعبارات مُبهمة. «لم تبلغ بالتأكيد»، قالت بشكل حاسم. «لهذا السبب، يصبح العديد من الأشخاص مُخبرين، ويرسل كل والد أحد أبنائه إلى الجيش. هكذا تبني علاقاتك كي تستفيد منها عندما تواجه مشكلة ما».

لم يكن هناك أي سبب للارتياح بالسفير السابق، ولكن المرأة المُستة لم تكن جزءاً من مقالتي. لقد شعرت بوجود مخاطرة كبيرة إذا اكتشف مازجدي من خلال أحد العراقيين الهولنديين أم من خلال

السفارة الحديث الذي دار بيني وبين السيدة الهولندية. علمت قبل كتابة هذه السطور أن السيدة غادرت هذه الدار إلى دار البقاء.

كان جاي أحد شركائي في تناول الشراب في القاهرة، وهو فلمنكي يدير مصنع حلوى لصالح شركة متعددة الجنسيات. قال لي ذات مرة: «أردت استيراد ثمانية أطنان من الزيت من نوعية خاصة يستعمل في اعداد الحلوى، ولم أتمكن من معرفة متطلبات استيراد حاوية الزيت هذه. لقد روت وزارات البيئة، والنقل، والشؤون الاقتصادية، والصحة، قصصاً مختلفة، ولم يُجب أحد على اتصالاتي الهاتفية. ولكن مصنعي لم يكن قادراً على الاستمرار بالإنتاج من دون هذا الزيت، لذلك قمت باستيراده. ما إن بلغت الحاوية المرفأ حتى تم الاستيلاء عليها؛ كان يتعين إتلاف الزيت أو إعادته إلى بلد المصدر، أو سيكلفني ستين ألف دولار إذا أردت إدخاله. فاتصلت بمحامى الذي أجرى اتصالاً هاتفياً بأحد صلاته، واتصل هذا الأخير بأحد معارفه. وانتهى بي الأمر إلى دفع ستة آلاف دولار للمستشار لقاء استشارة قانونية، وسمح لشحتي من الزيت بعبور الجمارك. أي شركة غريبة تقول إنها لا تزال عملها من خلال الرشوة تكون كاذبة، وإلا لأعلنت إفلاسها منذ زمن بعيد».

لقد أظهرت المشاكل التي يواجهها جاي كيف أن الفساد وسوء الإدارة يدمران اقتصاد البلد. ولكن القصة لم تجد طريقها إلى الملحق الاقتصادي لأنني لم أشأ تعريض مهنة جاي للخطر؛ فالسفارة المصرية في لاهاي تقرأ كل شيء؛ لهذا السبب، يملك جاي اسماً مختلفاً في الواقع وهو ليس فلمنكياً. إن تعريض مصادر المعلومات للخطر هي المصفاة الثالثة التي تُبقي وقائع الحياة اليومية في ظل حكم مثل هذا خارج الأخبار.

هناك مصفاة رابعة. أحياناً يبلغ أمر ما مسامعي، فأتحقق منه وأحصل على مصادر مع أسماء أولى وأخيرة... ولكن يتبين لي أنه لم يُعد خبراً. وأحد الأمثلة على ذلك معدل الوفيات في الشرق الأوسط الناجمة عن حوادث السّير. فبسبب حالة الطرقات الرديئة في المنطقة، والسيارات المتهالكة، والشرطة الفاسدة، والمستشفيات التي لا طائل منها في هذه الظروف، يزيد احتمال وفاة العربي عن الأوروبي في حادث سّير بخمسين مرة. إنه حَمَام دم مستمر في العالم العربي. في هذه الحالة، تكون العوائق العادية للحصول على قصة جيدة غير موجودة: هناك أرقام متوافرة، ويمكنك الحصول على اقتباسات جيدة من الصحفيين التابعين للأمم المتحدة، وعلى أسمائهم الكاملة، ولا يكون أنساباً لهم ذوي أهمية كبيرة من الجانب الإنساني. لذلك أنتظر وقوع حدث استثنائي كبير على الطريق السريع بين القاهرة والإسكندرية لأبني قصتي عليه.

هكذا، أحصل على مقالتي الفريدة... ولكن - بقدر ما تُفضي إليه هذه المقالة - كيف يمكن لأكبر حَمَام دم في العالم العربي أن يكون صالحاً لمقالة واحدة فقط؟

تكمّن الإجابة مرة أخرى في أن البلدان العربية لا تتبّع أنظمة ديمقراطية؛ مقارنةً بهولندا. عندما كنت في الشرق الأوسط، كان العدد المتزايد من مواطنيّ يستتجون أن تكلفة الهجرة الجماعية أكبر من عائداتها. لقد أبدى أحدهم هذا الرأي وحصل على تغطية إعلامية. وعندما وصلت رسالته، كان يُدعى للتحديث عن الأمر في غالب الأحيان. فأوحى هذا الأمر للمؤيدين بمتابعة الموضوع مع المراجع الرسمية، وإقامة تظاهرات، وتنظيم ندوات؛ بهذه الطريقة، وجدت عملية مقاومة حدوث مزيد من الهجرة طريقها إلى الأجندة السياسية. إن الأمر يتطلب وقتاً وإن في ظل حكم ديمقراطي، لأنه يمكن للنخبة الحاكمة

إبقاء بعض المواضيع خارج الأجندة. لكن هذه المواضيع تظهر على السطح عاجلاً أم آجلاً، وهنا يكمن الفرق بالتحديد بين أنظمتنا وأنظمة الشرق الأوسط. فوسائل إعلام الاتجاه السائد في الدول العربية لا تورد ما يلي: «اليوم، ملأ آلاف المواطنين الشوارع احتجاجاً على قيام الرئيس بتعيين شقيقه شبه الأمي مستشاراً حكومياً». ولا يوردون كذلك: «اليوم، تقدّم وزير سلامة المرور إلى الرئيس بالتماس يحتوي على 3 ملايين توقيع، وطلب منه اتخاذ إجراءات ضد أبناء وبنات الجنرالات والسياسيين المسؤولين عن حوادث اصطدام وفرار بسبب قيادتهم بسرعة 200 كيلومتر في الساعة».

إذا طرأ أي جديد على الحياة اليومية، وتوافرت معلومات يمكن التحقق منها، يصبح لدينا خبر. ولكن يجب أن يكون للموضوع ساقان ليبقى خبراً؛ عليه أن يكون متحركاً. «نتابع هذه القصة عن كذب»، قالوا على السي أن أن؛ لكن من دون تطورات لا يوجد شيء يمكن متابعته. لذلك، لم يكن الجوع في واو في السودان قصة للمحررين: «أه، لا، ليس نزاعاً آخر لا نهاية له في الأفق».

ذات مرة، سألت أحد الإعلاميين العاملين في التلفزيون في استوديوهات الوطن عن رأيه بالأخبار. فأطلق ابتسامة عريضة تعبيراً عن إحراجه: «إذا كانت تُدمي القلب فقد حققت هدفها. نفضّل افتتاح الأخبار بأنباء عن هجمات، وعمليات اختطاف وقتل، وحوادث سير كبيرة ودامية، لأنها تأسر انتباه الناس. يجب عليك أيضاً أن تقسم عدد الأموات على عدد الكيلومترات التي تفصل بين الاستوديوهات والمنزل. خبر موت البيض أكثر فعالية من خبر موت السود أو الآسيويين، وخبر موت المسيحيين أكثر فعالية من خبر موت أشخاص من ديانات أخرى؛

باستثناء ما جاء على لسان أحد الزملاء الأميركيين: اليهود هم الخير. لذلك، يمكن لهجوم في القدس أن يشكل عنواناً رئيسياً، ولكن متفجرة صغيرة في الجزائر أو دلهي لا تُعتبر خبراً رئيسياً».

كانت الدُعايات تهكمية على نحو ممتع وغدت أشبه بإجراءات ذاتية متكررة لتقييد حرية إبداء الرأي. لكن وظيفتها تمثلت بصفة خاصة كما يبدو بالتلميح تكراراً إلى أن أحداً لا يعرف بالتحديد سبب غدو حدث ما خبراً. يمكنك تعداد متطلبات حدث ما ليصبح خبراً، ولكن لماذا يتم إدراجه في البرامج الإخبارية... إن الأمر المؤكّد الوحيد بالنسبة إلى الصحفيين في الغرب هو أنه إذا حدث أمر هام، سيرغب الأشخاص العاديون في إبداء آرائهم عاجلاً أم آجلاً.

هذا في الغرب، ولكن الناس يُقَمعون في ظل حكومات الشرق الأوسط. فالاحتجاج أمر مستحيل، ولا تتم تغطية ما يقوم به العديدون؛ ليس في إطار الحياة اليومية فحسب، بل في ما يتعلق بالأمور التي لها تأثير كبير في حياة الناس. في مصر، يعيش 75 مليون شخص في منطقة سكنية بحجم هولندا، ويزداد عدد السكان كل عام 1.5 مليون نسمة. وبهدف التعاطي مع هذه الطفرة السكانية، تحتاج السلطات إلى إيجاد خمسمئة ألف وظيفة جديدة كل عام، وبناء مئة ألف منزل جديد، وعشرة آلاف مدرسة جديدة، وألف مركز جديد للتعليم العالي، ومئة مستشفى جديدة، وعدد من الجامعات الجديدة... هذا هو الضغط الكبير الذي ينجم عن النمو السكاني؛ ليس في مصر فحسب، بل في اليمن كذلك، وسوريا، وبلدان عربية أخرى. هذا يعني ولادة 6 ملايين شخص إضافي كل عام، وعندما لا يكون هناك ماء أو عمل لهم، فإنهم قد يقررون المجيء إلى أوروبا. ولكن الطفرة السكانية لا تكون خبراً حتى يهاجروا بأعداد كبيرة:

ستون ألف عربي إضافي وُلدوا اليوم

من مراسلنا

القاهرة - اليوم، يزداد عدد السكان في الدول العربية ستة عشر ألف نسمة كما كان الحال أمس وما قبل أمس...

لم تكن الوفيات الناجمة عن حوادث السَّير أو النموَّ السكاني خبراً، ولكن هناك إحصائيات عنها على الأقل. بخلاف ذلك، لا يعرف أحدُ عدد الفتيات المصريات اللواتي يتم ختانهنَّ سنوياً. كما أننا لا نعرف عدد الأشخاص في العالم العربي الذين يُسجنون من دون أن يحصلوا على محاكمة عادلة (أو محاكمة من أي نوع)؛ ولا مقدار بلايين الدولارات التي تمكّن جنرالات من دول مختلفة من إخفائها في حسابات أجنبية؛ ولا إمكانية لمعرفة عدد العرب الذين يُقتلون أو يُصابون بإعاقات كل عام بسبب سوء الإدارة الإجرامية هذه. لا أحد يعرف، ولا أحد يجرؤ على الاحتجاج.

لقد أخبرني طبيب عربي صديق عن حالة الفوضى والفساد التي تعمّ المستشفيات. فالأطباء يرتكبون أخطاءً مميتة لأنهم لم يكتسبوا كفاءتهم من خلال الامتحانات بل من خلال الرشاوى؛ يتعيّن على المرضى رشوة الأطباء لتلقّي العلاج؛ يشتري الباعة الفاسدون أدوية مرتفعة الثمن أو أدوية منتهية الصلاحية في مقابل عمولة كبيرة. هذا ما سأكتب عنه، قلت في نفسي بحماسة. ولكن لم يكن هناك أرقام عن الأضرار، والهدر، والرشوة، وكان بالإمكان فقط، وكحد أقصى، نشر اقتباسات لأطباء في الصحيفة من دون ذكر أسمائهم. في الغرب، يُنشئ ضحايا نظام مماثل رابطة للمرضى. ولكن كما قالت زوجة ذلك الطبيب: «إن المرة الوحيدة في حياتي التي اقترعت فيها بحرية كانت لأشخاص هم محط إعجاب

شديد. وأقسم لك أن جهاز الأمن الموالي للنظام سيلاحقني باستمرار حتى وإن أنشأت نادياً للمعجبين بهؤلاء الأشخاص».

هذه هي الصحافة في ظل حكام الشرق الأوسط، ولكن كيف تكون مختلفة عن سواها؟ لا يمكنك ملء برنامج إخباري إذاعي أو صحيفة بانطباعات شخصية ودُعابات لا تعرف مدى صحتها أو تأثيرها. لهذا السبب، فإن أولئك الزملاء الذين يتكلمون العربية بطلاقة ولا خبرة لديهم أو صلات - بخلافي - يعتمدون كلياً على فيض الأخبار في وكالات الأنباء. ولهذا السبب أيضاً لا يُبعد الحكام وكالات الأنباء تلك عن بلدانهم. فهم ليسوا بحاجة إلى ذلك لأن الوكالات تضع قيوداً لنفسها لتقييد حرية إبداء الرأي.

الأمر بهذه البساطة، ولذلك يبقى الكثير خارج إطار التغطية الإعلامية ويتعين عليك البدء من لا شيء عندما يرغب الناس فجأة في معرفة المزيد عن العرب، كما كان الحال بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

11 أيلول / سبتمبر والأمور المجهولة

يصعب عليّ تخيّل ذلك الآن، ولكن قبل تعييني عام 1998، كانت فولكسكرانت قد أجرت مشاورات جدّية حول ما إذا كان من الضروري وجود مراسل لها في العالم العربي. ألا يمكن تغطيته من إسرائيل؟ في نهاية التسعينيات، قليلون هم الذين كانوا يهتمون بالإسلام، وبدأ أن عملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين تميل إلى الحل. وعندما يحل السلام أخيراً، ينضم العرب إلى ركب الديمقراطية الغربية مع بقية العالم. نهاية التاريخ، هكذا دُعي الأمر في ذلك الوقت، وشكا أحد المعلّقين الصحفيين من أن الجميع بدأوا يشبهون بعضهم بعضاً: «سيغدو العالم متجراً ضخماً واحداً لماكرونالد».

إنه جزء لا يتجزأ من قواعد اللعبة، ولكن في ذلك المناخ، كانت ملاحظاتي التي أبدتها لمدرائي حول تحريفنا لحقائق العرب ذات تأثير محدود. فبالنسبة إليهم، يقف العالم العربي على قدم المساواة مع أميركا اللاتينية: مقالة واحدة بين حين وآخر بحجم صفحة كاملة تُعتبر كافية. لم يكن بالإمكان تغيير الواقع لأن الأنظمة المغلقة هي كخارطة تحتوي على مناطق غير مستكشفة تماماً. في أثناء فترات الهدوء، يمكن

للمراسلين التطرق إلى هذه المواضيع المجهولة، وذلك بجعل تقاريرهم وتحقيقاتهم تقتصر على الأحداث التي تحتوي على معلومات يمكن التحقق منها: القمم، اختراقات دبلوماسية، تفجيرات. ولكن عندما يحدث أمر هام، يصبح الجمهور راغباً في معرفة أمور لا يمكن للمراسلين اكتشافها. ماذا تفعل حينذاك؟ هناك منافسة في صناعة الأخبار أيضاً، ليس بين الأخبار المحلية والأجنبية فحسب، بل بين مراسلين أيضاً يريدون الحصول على أماكن خاصة بهم في الصفحة الأمامية، أو يتمنون عمل شخص آخر أو ميزانية سفر. وعندما تُسأل عما يحدث في منطقتك، فليس جيداً أن تكون إجابتك، «يصعب معرفة ما يحدث»، لأنك تعرّض نفسك لإمكانية قيام رئيس التحرير بتخفيض مهامك. لماذا يُفترض بنا الاستثمار بواسطتك إذا لم تكن تعرف أي شيء باستمرار؟

لقد وجدت هذه المعضلة حلاً لها عندما توفّي الرئيس السوري حافظ الأسد. فجأة، تصدّرت سوريا العناوين الرئيسية، وفتحت أبواب دمشق واسعاً. وتحركت قافلات الأخبار العالمية، ولم أكد أغانر قاعات الوافدين إلى المطار حتى شرعت بالعمل. «وصل مراسلنا إلى دمشق. ما هو الجو هناك؟» وكأنني أعرف ما يجري، لذلك اختبأت وراء جدار من الوقائع التافهة كما يفعل الصحفيون الآخرون: سيسلك الموكب هذا الاتجاه، وستتم الجنازة في ذلك اليوم، سيحضر الرئيس أ ولكن القائد ب لن يحضر، وسيكون هناك حداد وطني لمدة ج من الأيام... قد يكون هذا الأسلوب صالحاً لمرات قليلة، ولكنه مُملّ ويمكنك القيام به من داخل الاستوديو بالسهولة عينها. فعندما يموت قائد حكم طوال هذه المدة، يكون المحررون راغبين في معرفة المزيد؛ كما في السؤال التالي، «ماذا سيحدث الآن في سوريا؟»

لقد كان أحد المواضيع المجهولة. فالابن سيخلف والده؛ إنه أمر مؤكّد، ولكن ماذا بعد ذلك؟ لقد بدا لي أن النظام لن يستعجل مشاطرة الحكم مع معارضة قُمعت طيلة عقود. فأتخذت تدابير أمنية للمحافظة على الاستقرار في دمشق، وكانت مكبّرات الصوت تذيع طوال اليوم، عبارات الدعم والتأييد. وزيّنت لوحات الإعلانات في ممرات وزارة الإعلام بأوراق كتب عليها التالي: «تجمّع عام غداً عند الساعة صباحاً أمام المدخل الرئيسي. في أثناء تشييع قائدنا إلى الأبد». لم يكن ذلك صوت ريح تغيير وشيكة تهبّ على البلد، ولكن العدد القليل من السوريين الذين تحدثت إليهم كانوا يخافون دخول البلد في حالة من الاضطراب، ويفضّلون رؤية رجل قوي آخر يتسلّم السلطة بدلاً من المرور بأي اختبارات محفوفة بالمخاطر، كما قالوا.

ما الذي كان سيحدث في سوريا؟ أظن أنه كان يمكن للمراسلين أن يقولوا: «لا نعرف ما الذي يريده القائد الجديد أو الشعب. لا يمكننا أن نعرف، لأنه نظام مخالف لنظامنا». وبعد ذلك، كان بإمكاننا أن نفسر لهم ماهية نظامهم.

لكن المراسلين الأعلى شأنًا المعتمدين من قبل السي أن أن والبي بي سي بصفة خاصة قالوا أمراً آخر - على غراري - لقد استشهدنا باقتباسات لمتحدثين باسم النظام بلغة إنكليزية مثالية مُقنعة اعتمدوا كلمات مثل: «انفتاح»، «سعي إلى التغيير»، و«ربيع دمشق». وجاء في تقاريرنا أن القائد الجديد وعد بالعصرنة، وبمقاهي الإنترنت، وأطباق التقاط الإرسال الفضائي، وهواتف خلوية.

إنه الاتجاه التي ستسلكه سوريا، كما اقترحنا، واضعين قصة مماثلة على نحو ملحوظ لقصص مأتَمي الحسن ملك المغرب، والحسين ملك الأردن، في السنوات السابقة. جرى المأتَم «الذي شهد قدوم عدد كبير

من المشييعين لإلقاء النظرة الأخيرة على الرئيس» دون وقوع أي حادث. وفي اليوم التالي، عادت سوريا لتحتل موقعها في نشرات الأخبار على قدم المساواة مع كولومبيا.

بعد ذلك حلّ 11 أيلول/ سبتمبر. وفجأة، «أصبح العرب طبق اليوم»، كما قال أحد المعلّقين السعوديين، وكانت الهجمات بالنسبة إلى المراسلين الموجودين على أرض الحدث مناسبة للاحتفال. ولكن هذا لا يعني أننا قفزنا فرحاً وعبرنا عن هذا الفرح أحدنا للآخر. فلكل مهنة محرّماتها وليس عليك أن تكون عالم إنترولوجيا لتفهم أننا لا نحتفل بوقوع حرب أو حدوث انفجار - بالرغم من أننا نبقى بلا عمل كمراسلين إذا لم تكن هناك أي انفجارات أو حروب - . فالهجمات تعني أنني سأحصل على آلاف اليوروات الإضافية من قسم الأخبار في أن أس، وهي محطة الإرسال الرسمية الهولندية. وقد منحتني الصحيفة ميزانية كبيرة للقيام برحلتني دون تحديد مدة إقامتي، كما أمنت لي مواقع ممتازة لتغطية الحدث ومصورين فوتوغرافيين رائعين. كنت أهتم إلى حدّ ما شكراً لك يا بن لادن.

لكن سرعان ما أفسحت الحماسة الطريق للإحباط، لأن المراسلين بدأوا يدفعون ثمن تقاريرهم غير الملائمة التي كانوا يضعونها عن العالم في العقود السابقة. كيف يكون باستطاعة جمهوري أن يعرف ماهية الأنظمة العربية وأن كل شيء مختلف في هذا النوع من الأنظمة؟ كانت وسائل الإعلام الغربية قد «غطت» الأنظمة في الحقيقة ولكن في الملاحق والأفلام الوثائقية فقط. وتمثّل الاقتراح بأن يكون هذا النوع من المعلومات خيارياً ويكون باستطاعتك فهم العالم العربي إذا تابعت الأخبار. لكن الأخبار كانت تتناول الجامعة العربية باستمرار،

وأحداث العنف، والتقاط صور تذكارية في مناسبات كالقمة الأوروبية - الأفريقية.

تناول السؤال الرئيسي المطروح في 12 أيلول/ سبتمبر عن مدى الدعم الذي تتلقاه القاعدة؟ ما هو حجم العدو وإلى أي مدى يُفترض بالغرب أن يخشاه؟ لقد شن بن لادن الهجمات باسم الإسلام. فإذا أيد 100 مليون عربي إسلامي هذا الأمر، باستطاعة الغرب أن يتوقع نزاعاً كبيراً.

حسناً، أجل. في البلدان الغربية، يمكنك الكف عن متابعة الأعمال البرلمانية، والتركيز على استطلاعات الرأي وصفحات الرأي في الصحف. لكن البرلمانات العربية والصحف لا تستحق هذه التسميات، واستطلاعات الرأي غير موجودة ولا يعول عليها؛ في ظل نوع الحكم السائد، من سيكشف بصدق عما يجول في خاطره متجاوباً مع صوت مجهول الهوية عبر الهاتف؟

لم يكن بالإمكان الإجابة على السؤال الذي يتناول عدد المسلمين الذين يتكلم بن لادن باسمهم، ولكن كان يصعب على المراسلين الإقرار بذلك. وهكذا، وعلى غرار زملائي المراسلين، قمت بالمحاولة ببساطة. فقلت إن برامج المقابلات على الجزيرة متعاطفة مع القاعدة، وإن مشاهير العرب في ميدان صناعة التسلية غالباً ما ينتقدون أميركا من دون أن يؤثر ذلك في شعبيّتهم، كما يبدو. كانت هناك إنتاجات مسرحية متقدمة للولايات المتحدة عُرضت لمدة طويلة من الزمن، وأغاني احتجاجية ضد الأميركيين احتلت المراتب الأولى، وأفلام سينمائية تصف الغرب على نحو سلبي حققت نجاحات على شبائك التذاكر.

كان أمراً تخمينياً. فكلما سؤلت عن شعبية بن لادن ملتُ أكثر فأكثر إلى إعطاء جواب صادق. كنت أريد إعلان إجابتي هذه بصيغة

عبر أثير الإذاعة، أو كتابتها في الصحيفة بحروف كبيرة: «لا أعلم. لا يمكنني أن أعلم».

لم أقم بذلك. ولكن ما الفائدة التي يمكن جنيها بتحقيق مزيد من الانفتاح؟ فلم يعد يتعيّن على المراسلين التصرف كأنهم يعرفون كل شيء عن العرب، ويراوغون في شأن الأمور التي لا يعرفونها. سيكون بإمكانهم القول ببساطة إن الأمور مختلفة في النظام الذي نعمل في ظله، وإنه يُفترض بك التذكر أن راتب الناشط في ميدان حقوق الإنسان تدفعه منظمات غربية عندما تسمعهم يدعون إلى «التضامن بين الشرق والغرب»، وأن الباحث العربي الذي يعتبر الأصولية العدو الرئيسي يراقبه البوليس السري؛ هذا إذا لم يكن يعمل لحسابهم.

لو أعطى المراسلون مزيداً من الشروحات وكانوا أكثر انفتاحاً على الأنظمة لتمكنوا ربما من «حلّ شيفرة» الاقتباسات الحُبلى بالمعاني الصادرة عن العالم العربي بعد 9/11. وينسحب الأمر نفسه على صور - على سبيل المثال - الناس الغاضبين الذين يُضرمون النار في راية ويصيحون، «أميركا، شيطان!» مما لا شك فيه أن هذه المشاهد كانت تخيف الغربيين بعد 9/11، وما كانوا يخشونه أكثر من ذلك هو عدم وضعهم في الجوّ السائد: يا رجال، تعتقدون ربما أن التظاهرة هي أمر ينفذه المواطنون بحرية للتعبير عما يؤيدونه أم يعارضونه، ولكن «فورات الغضب» هذه يتم تنفيذها فحسب في ظل نظام موجّه أم أن هذا النظام قام بتنظيمها على الأقل. فالعديد من المتظاهرين يعملون لصالح أجهزة المخابرات، أم أقلّه يكونون مراقبين من قبلهم. ضع نصب عينيك أن باستطاعة الأنظمة العربية إصابة عصفورين بحجر واحد من خلال فورات الغضب هذه ذات الجاذبية الإعلامية. إنها توحى لأتباعها أنهم يتصرفون

بحرية ويجرؤون على الوقوف في وجه أميركا القوية. وفي الوقت نفسه، تلوح هذه الأنظمة للحكومات الغربية بالحشد المجروح الذي قد يكون أيضاً بمثابة المدير الغاضب المنتظر، هل تفضلون التفاهم معهم؟

لو كان المراسلون في العالم العربي مدركين لرؤيتهم المحدودة لتمكنا من الحصول على نوع مختلف من التقارير والتحقيقات الصحافية. لكان بالإمكان وضع مقالة تقول، لا أستطيع إثبات ذلك وقد يكون الأمر هراء، ولكن يبدو أن للدعاية التي يُطلقها الحكام داخل النظام التربوي ووسائل الإعلام الرسمية تأثيراً كبيراً في العرب العاديين الذين يبدو أن خوفهم من الغرب أكبر من خوف قادتهم. فإذا أخذت مصرياً ما وسألته عن منزلة بلده في العالم، سيقول لي في الغالب أمراً مماثلاً، نحن مهد الحضارة، جنودنا هم من أفضل الجنود في العالم، وقناة السويس هي القناة الأكثر أهمية في العالم. دولتنا تضم مسجد الأزهر وتشكل جسراً بين أفريقيا وآسيا، بين الجزأين الشرقي والغربي للعالم العربي والإسلام. ومن يتحكم بمصير مصر يتحكم بمصير العالم، لذلك تحاول القوى العالمية على الدوام الهيمنة علينا. وفي العراق، يروي الناس القصة التالية: لدينا أقدم حضارة، والأرض الأكثر خصوبة في الشرق الأوسط، والكثير من الغاز والنفط. نحن المفصلة بين الأتراك والفرس والعرب. من يسيطر علينا يمسك العالم بين يديه، ولهذا السبب تعمل القوى الكبرى ضدنا. وعندما أذهب إلى سوريا، فهذا ما أسمعه في غالب الأحيان.

فالكلمات مختلفة، ولكن هناك لازمة واحدة في كل الأنظمة العربية: الجميع ضدنا. وتحدث هذه اللازمة أثراً كبيراً في نفوس العرب العاديين من خلال وسائل الإعلام ونظامهم التربوي منذ صغرهم، فلا توقعوا منهم أن يكونوا موالين للغرب. قد يكونون راغبين في التخلص

من أنظمتهم، ولكن كل ما سمعوه على مرّ الزمن هو وجود تهديد أكبر وراء حدودهم - الغرب.

هناك فائدة أخرى للشفافية الأكبر. فإذا قلتَ إن معرفتك ناقصة وهناك مواضيع تجهلها، يمكنك حينذاك أن تشرح كيفية قيامك بتجنّبها؛ ما هو نوع البوصلة التي استخدمت للإبحار في يَم هذه الأنظمة. كنت أودّ أن أكون صادقاً بافتراضاتي، أو بالأحرى بوجهة نظري التي تشكلت في العام الذي قضيته كطالب في مصر عندما كنت أسأل نظرائي مصادفةً عما إذا كان الإسلام متوافقاً مع الديمقراطية وحقوق الإنسان. وكانت إجاباتهم متنوعة إلى حد كبير: ليسا متوافقين لأن الإسلام شرقي والديمقراطية غربية؛ ليسا متوافقين لأنك تملك حقوقك كإنسان ونملك حقوقنا؛ ليسا متوافقين لأن الإسلام هو كلمة أخرى للديمقراطية وحقوق الإنسان.

فجميع تفسيراتهم، وباستطاعتهم دعمها بمزيج خاص من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأمثلة تاريخية. مَنْ المُحِق؟ في ذلك الوقت، كنت تحصل على علامات عالية في الأنتروبولوجيا إذا أجبت «لا أحد».

من السهل أن يكون المرء حكيماً بعد 9/11، ولكن بالعودة إلى الوراء، لا أظن أن وسائل الإعلام الغربية الكبيرة قامت بعمل جيد غداة الهجمات. فنحن لم نفشل فحسب في أن نكون صادقين مع أنفسنا حيال عدم معرفتنا الأكيدة بما إذا كان بن لادن يحظى بتأييد المسلمين العاديين، بل إننا لم نسع أيضاً للحصول بالطريقة الملائمة على إجابة عن السؤال الثاني الكبير بعد الهجمات: لماذا يكرهوننا؟

لقد كانت المشكلة في كلمة «كره». ففي وسائل الإعلام الغربية، كانت المعركة مع القاعدة معركة ضد القاعدة على غرار فيلم سينمائي هوليودي فيه بطل وشيرير. ويمكنك اعتبار نفسك البطل لأنك تعرف من يكون، وما الذي يحلم به، وما الذي يخشاه. أما الشرير فهو شر مطلق، وكل ما عليك أن تعرف عنه هو ما الذي يريده: النفوذ، الانتقام، المال. ولكن لماذا يريد ذلك؟.. فالشرير هو عقبة دائمة، ولهذا السبب تحصل على نهاية سعيدة إذا قتله البطل. ولا يملك الشرير أي حوافز، أو أحلام، أو شكوك، إنه ليس إنساناً في الواقع. هذا هو الدور الذي تسنده وسائل الإعلام الغربية الكبيرة إلى الأصولية: هم يكرهونا وعلينا التخلص منهم. وكيف سنقوم بذلك بالتحديد؟ شاهد هذا المساء داخل الشرق الأوسط على السي أن أن.

كانت التقارير الغربية عن القاعدة بعد 9/11 متحيزة، ويسهل اكتشاف السبب بالعودة إلى الوراء. من كان باستطاعته أن يشرح دوافع الشرير؟ لطالما شرح الفلسطينيون والجزائريون، مثلاً، الأعمال التي ارتكبوها ضد الغربيين؛ لا بل نعرف أيضاً أن بعض الفلسطينيين حاولوا القيام بهجماتهم وبأعمال اختطاف الطائرات قبل أخبار المساء في أميركا من خلال احتلالها العناوين الرئيسية. ولهذه المنظمات أيضاً مؤيدون غربيون وجناح سياسي يشرح مطالبهم في وسائل الإعلام، ويزيل أي إساءة فهم، ويشاركون في المحادثات.

لكن بن لادن كان يسجل رسائله الفيديوية باللغة العربية، ويستخدم أمثلة من التاريخ الإسلامي غير مفهومة من قبل الغربيين، ويمطر خطبه بوابل من الأفكار عن «الصليبيين الصهاينة». فالقاعدة لا تملك جناحاً سياسياً، ولكن ما كان يُسمح لها بالتعبير عن رأيها بأي حال في جوّ الغضب والخوف بعد 11 أيلول/ سبتمبر. كما أنه تم سجن مؤيدي

القاعدة في معظم الدول الغربية بعد إقرار قوانين مناهضة للإرهاب مباشرةً.

فالأمر منطقي تماماً: من الصعب منح إرهابيين منبراً حراً. وكانت النتيجة عدم تمكن القاعدة من الرد على الرأي العام الغربي، وقيام مناوئي بن لادن بالتعبير حصرياً عن آرائه كما يرونها، وتحليلها؛ محللون غربيون وإسرائيليون، وعرب ومسلمون مناهضون للأصولية. ووجه هؤلاء انتباههم لأمرين: بن لادن الشكل الإسلامي الآخر لهتلر، وبن لادن المتطرف الذي يقول، على غرار بعض الناشطين في ميدان حقوق الحيوان والمشاركين في الحملات المناهضة للإجهاض: «الحقيقة التي أنادي بها هي الحقيقة الوحيدة، وأنا مُحِق في الدفاع عنها بقوة». لكن هناك بُعد ثالث لقصة بن لادن تكاد لا تظهر في وسائل الإعلام الغربية. لقد دعمت الحكومات الغربية الأنظمة العربية الأكثر أهمية بالمال والسلاح والمخابرات طيلة عقود من الزمن. ويشير بن لادن إلى هذا التدخل العملي في كل فيلم فيديو، ويمكن إيجاز رسالته بكلمتين: اخرجوا من بلادنا.

وهناك أيضاً نسخة أطول تقول: المسلمون مساكين وضعفاء لأنهم مقموعون ومستغلّون من قبل حكامهم. أنتم الغربيون تدعمون هؤلاء الحكام. فإذا قمنا بمهاجمتكم وضعنا إسفيناً بينكم وبينهم. بأي حال، سنلفت انتباه المسلمين العاديين إلى الدعم الذي يلقاه قامعهم من الغرب. بعد ذلك يسقط الحكام الذين تدعمونهم ونتمكن من إعادة بناء بلادنا.

غالباً ما ينعت سكان الغرب البارزون هجمات 9/11 بـ«الهجوم المباشر على الحضارة الغربية». ولكن كل من ينظر إلى قصة بن لادن يرى أنه يعرض لبرنامج من منطلق الدفاع عن النفس. ربما يكون الغرب

- وأميركا بصفة خاصة - قد تلقى ضربة، ولكن أسلحة القاعدة موجهة نحو الحكام العرب. ووفقاً لبن لادن، إن العالم الإسلامي متورط في حرب أهلية تلعب فيها أميركا دور الداعم لخصومه، ولهذا السبب وجه ضربة لأميركا. ولا تريد القاعدة التحكم بمصير نيويورك أو لندن، أقله بشكل أساسي. فالمدينة التي تريدها لا تقع في الغرب.

لقد بقي هذا الجزء من رسالة بن لادن خارج الأخبار الغربية، أي أن عدداً قليلاً من سكان الغرب هم على علم بدوافع عدوهم. ولم تجر في الواقع أي نقاشات في الغرب حول قيام أنظمتهم بدعم أولئك الحكام، وتستمر شخصيات رائدة بدعوة المسلمين في العالم الإسلامي إلى الدخول في «نقاش حول إيمانهم».

الآن، وبعد الحادث، يمكنني القول بتحديد أكبر ما الذي كنت أود القيام به بشكل مختلف. يتم تصوير القاعدة بطريقة منحازة، ولكن وسائل الإعلام الغربية لا تشير بعد 9/11 إلى مجموعة أخرى: الفصيل اللاعنفي للإسلام السياسي، أولئك المسلمون الذين يقولون إنهم يريدون التعبير عن تفسيراتهم المحافظة أو الأصولية للإسلام، والترويج لها، دون اللجوء إلى العنف. فهؤلاء الأصوليون اللاعنفيون غير معروفين من قبل الغرب. ولا يمكن لأحد التكهن بعددهم فحسب، بل إننا لا نعرف أيضاً من هم في الواقع وما هو برنامج عملهم.

كما في حالة الشيوعيين أو الصهانية أو الكاثوليك، هناك نزاعات أساسية، ومجموعة واسعة من الآراء والتفسيرات، وفوارق كبيرة بين الأصوليين الإسلاميين. ويكمن الفارق في أن الأصوليين الإسلاميين لا يملكون حرية التعبير عن آرائهم علناً. فكتبهم محظرة، ومواقع الوب التابعة لهم مقلّعة، وقادتهم يخضعون للمحاكمة أو تعرّضوا للقتل. ولا

وجود لأي تحالف دولي أو منبر للأصوليين على غرار منابر الفاتيكان والمؤتمر الصهيوني العالمي حيث يتم اتخاذ قرارات أو التوصل إلى اتفاقات مُلزِمة. مع من يُفترض بي التحدث لاكتشف ما يريده الأصوليون اللاعنفيون في الواقع؟

إذا أُجريتَ مقابلة مع قائد في الغرب، يمكنك وضع تصوّر لما يفكر فيه أتباعه. وإذا ناقض القائد ذاته في وقت لاحق أو حاد عن خطه السابق، فإنه يتعرض للمحاسبة. على سبيل المثال، كيف يمكنه الإفلات من إخبار وسائل الإعلام بأن 11 أيلول/ سبتمبر هو عقاب للتدخل الأميركي في المنطقة إذا قال أثناء مؤتمر الحزب إن 11 أيلول/ سبتمبر هو هجوم على الإنسانية؟ فإذا قام قائد بهذا الأمر، عليه الدفاع عن نفسه أو الاستقالة. هذا هو تأثير النفوذ في النظام الديمقراطي، ولذلك يمكنك تكوين فكرة منطقية عن آراء المجموعات بعد إجراء عدد قليل من المقابلات مع قادتها الذين يمثلونها. أما في الأنظمة غير الديمقراطية، فمجموعة القيادة تمثل نفسها فقط.

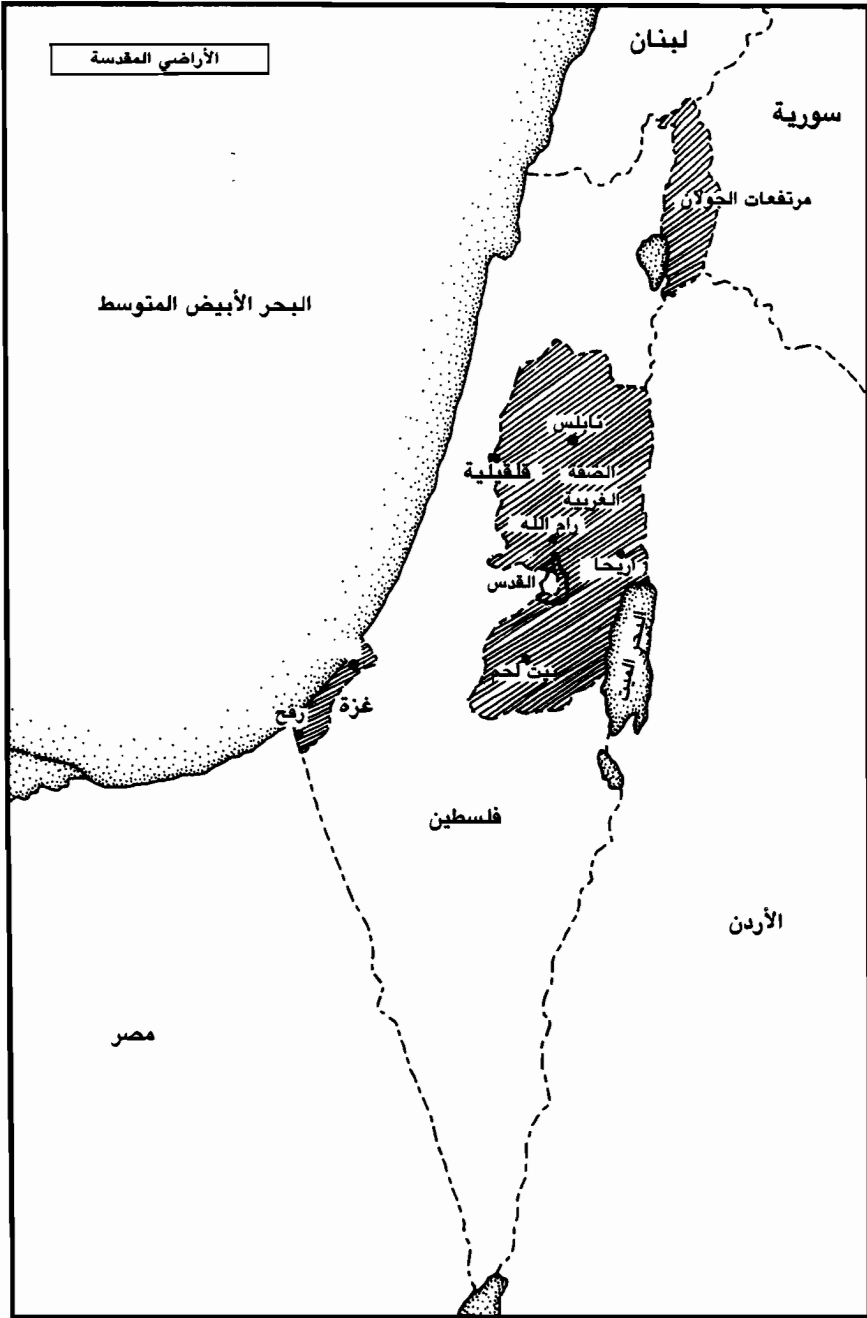
ما الذي يمكنك القيام به؟ أظن أن الطريقة الفضلى تتمثل باعتراف المراسلين بجهلهم، إذا عدنا إلى الوراثة. وكان بإمكانني وزملائي أن نقول شيئاً مثل، «تستحيل معرفة ما الذي يخطط له حقاً فرع الإسلام السياسي اللاعنفي، ولم أتمكن سوى من التحدث إلى بضع عشرات منهم بالشكل الملائم. ولكن يبدو أنهم أشخاص محترمون؛ يقولون إنهم يريدون تحقيق مُثلهم العليا دون استخدام العنف، في الكلية المحلية حيث يتدربون، في المستشفى، أو في العيادة القانونية. ربما يخدعني كل هؤلاء الأصوليين اللاعنفيين، ولكنني لا أظن أن هؤلاء الأشخاص يقولون مستيقظين في السرير أثناء الليل متسائلين عن كيفية تدمير الغرب. من الأرجح أنهم يقولون مستيقظين وهم يتساءلون عن كيفية الحؤول دون قيام

الغرب بتدميرهم. فما نراه نحن في الغرب معونات تطويرية ورفع مستوى الوعي يروونه قوة أجنبية تستخدم أحباء المانحين والضغط السياسي وراء الكواليس في محاولة لتغييرهم، وتغيير معتقداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية بين الذكر والأنثى، والعلاقة بين الشاذين جنسياً والسلوكيات المستقيمة، وبين المُسنّ والصغير. ويشعر مؤيدو الإسلام السياسي أنهم مهدّدون من هذا النوع من التدخل. يريدون أن يصنعوا مستقبلهم الخاص، ولكن ذلك الأمر لا يجعلهم إرهابيين مباشرين».

ربما كان يُفترض بنا نحن المراسلين أن نحاول تعريف الناس بالأصوليين اللاعنفيين، ولكن الأمر لن ينجح لأننا لا نعرف ما الذي ننظر إليه.

إن الحقيقة غير موجودة في الأنظمة غير الديمقراطية؛ هذا ما يطيل أمد النظام إلى هذا الحد. ولكن هناك المزيد من الأمور التي تجعل الشرق الأوسط غامضاً، لذلك كان عليّ الذهاب إلى لبنان والأراضي المقدسة.

القِسْمُ الثَّانِي



الفصل السابع

عالم جديد

البحر الأبيض المتوسط، لبنان، سوريا، مرتفعات الجولان، نابلس، قلقيليا، الضفة الغربية، رام الله، أريحا، القدس، الخليل، البحر الميت، قطاع غزة، غزة، رفح، فلسطين المحتلة، الأردن، مصر.

في الكتاب، يمكنك إخبار القاصص الهامة واحدة تلو الأخرى، ولكنها كثيراً ما تتداخل في الحياة. لهذا السبب، عليّ العودة عاماً إلى الوراء عندما حوّلت هجمات 9/11 عملي كمراسل بشكل جذري.

كنت قد انتقلت إلى صحيفة هولندية كبيرة أخرى هي أن أر سي هاندلسبلاد حيث يمكنني التركيز أكثر فأكثر على المقالات المتممة. وذهبت أيضاً للعمل لصالح البرنامج الإخباري التلفزيوني أن أو أس جورنال لأتمكّن من دراسة العمل التلفزيوني من الداخل. قررت الانتقال؛ لقد نلت ما يكفي من التلوث وفوضى العالم الثالث في القاهرة، وكان قد حدث لي أمران غير سارّين.

كنت قد دخلت سجناً مصرياً لزيارة نزيل هولندي وخرجت مع شعور بالاشمئزاز. لقد شاهدت عشرين رجلاً يتعرّضون لحرّ شديد في زنزانة تبلغ مساحتها خمسة عشر متراً مربعاً، وقد أصيبت أقدامهم

بالتقوس بسبب الوقوف الإلزامي، وأخذت منهم اللتهابات والقروح كل مأخذ بسبب وجود المرحاض في الزنزانة... وشعرت فجأة أنني اكتفيت من مشاهدة المعاملة القاسية التي يلقاها بعض المصريين من مواطنيهم؛ لقد أغضبني رفض سائق سيارة أجرة إفساح الطريق لسيارة إسعاف تطلق العنان لبوقها. وتيقنت بعد أسابيع قليلة في حديقة الحيوانات من أنني أريد الابتعاد عن القاهرة؛ كانت الحديقة مليئة بالحيوانات المريضة في أقفاص صدئة، وبشجيرات كريهة الرائحة، ونفايات تملأ المكان. والأسوأ من كل ذلك أن قامَ بعض الزائرين بالصراخ بشكل هستيري، فأصيب أحد السعادين بالذعر وشن هجوماً بالفاكهة والحجارة على الفيلة، ونالت الزرافات نصيبها من المواد البلاستيكية. كنت مع صديقة هولندية في حديقة الحيوانات، واستمر الفتيان برمي الحجارة علينا؛ من الواضح أننا اعتبرنا من فئة الحيوانات نفسها. في أثناء حدوث هذه الأمور، كان الفتيان يتدافعون، وتجراً أحدهم على التوجه نحونا، وقال: «تباً لك يا امرأة!» عندها، استشطت غضباً. وعندما عادوا، وقعتُ الفتى أرضاً. فهرع المتفرجون نحونا وبدأت بالاعتذار، ولكن الجميع تصرّفوا بتفهم كامل، وقدم الفتى اعتذاراته. كنت أحتفظ على الدوام برباطة جأشي، في الماضي، لدى مواجهة أوغاد صغار السن كهؤلاء، ولكنني لم أحظّ بهذا الاحترام أبداً إلا عندما أصبت بفترة غضب متخطياً حدود اللياقة. عليّ الخروج من هنا، قررت في ذلك المكان والزمان.

فنظرت إلى خارطة وقلت في نفسي، هل هناك مكان أفضل من لبنان للذهاب إليه في هذه الحالة؟ ووفقاً للتعبير المستخدمة من قبل المرشدين السياحيين، إنه سويسرا الشرق الأوسط بجباله التي تكسو الثلوج قممها وسكانه المثقفين والعالميين. إلى لبنان إذًا... ولكنني لم

أكد أصل حتى حدث مزيد من التغيرات. لقد دخلت عملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين في نزاع جديد يشوبه العنف؛ ما بات يُعرف بالانتفاضة الثانية. وكان زملائي في تل أبيب والقدس قد غطوا في السابق إسرائيل والفلسطينيين، لذلك تم استدعائي عندما ازدادت حدة العنف.

هكذا، وبالإضافة إلى تغطية العالم العربي، ذهبت بحثاً عن قصة كبيرة أخرى، ويا لها من قصة. فبعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، أصبح العالم العربي «أكثر قرباً» من الأوروبيين؛ ومع ذلك، وكما شرح أحد الدبلوماسيين: «العرب والفلسطينيون هم سياسة خارجية؛ إسرائيل هي خبر محلي».

لقد تحدثت إلى ذلك الدبلوماسي في أثناء حفل استقبال حضرته للمرة الأولى في السفارة الهولندية في تل أبيب. ودُعيت في القاهرة وبيروت إلى أربعة استقبالات؛ وفي كل مرة، كان الجميع يقفون لدى عزف النشيد الوطني الهولندي وهم يضحكون وفقاً للطريقة الهولندية النموذجية. وحدث الأمر نفسه في تل أبيب؛ ولكن النشيد الوطني الإسرائيلي عُزف آنذاك، وفجأة، أنشده بحماسة عدد كبير من الحاضرين. كان أمراً جديداً؛ هولنديون رزينون ينشدون نشيداً وطنياً والدموع في أعينهم، وسفارة هولندية تعزف النشيد الوطني للبلد المضيف. بعد فترة قصيرة، أخبرني أحد الضيوف أنه يبيع شققاً في تل أبيب ليهود هولنديين لم يعودوا يشعرون بالأمان في أمستردام بسبب زُمر الشبان المغربيين. وقال شخص آخر إنه يبيع شققاً في أمستردام ليهود هولنديين لم يعودوا يشعرون بالأمان في تل أبيب بسبب هجمات الفلسطينيين.

أظهرت ردود الفعل من أمستردام أيضاً أن مواطني يستثمرون رؤوس أموال عاطفية في إسرائيل والمناطق الفلسطينية أكثر منه في العالم العربي. وتلقيت عدداً قليلاً من الرسائل رداً على مقالاتي التي تتناول العالم العربي. ففي إحدى الرسائل، انتقد شخص يحمل اسم عائلة عربية التشوييه الذي طال صورة المنطقة التي يقع فيها وطنه، وحاولت سفارة عربية ذات مرة تعليل انتهاك حقوق الإنسان. عدا عن ذلك، كان الأمر هادئاً والرسائل هزلية. وكنت قد سافرت مؤخراً في رحلة شاقة عبر صحراء سيناء على غرار الإسرائيليين كما جاء في التوراة، في حالتي، لغاية تتعلق بملحق عن السفر. لقد طافوا المكان طيلة سنوات، أما أنا فلثلاثة أيام فقط من دون أن أتمكن من الاغتسال أكثر مما اغتسلوا. وعلّقت على الموضوع لدرجة أنني تلقيت من مطلع على التوراة رسالة يُعلمني فيها أنه لا يمكن لشعب إسرائيل أن يكون قد أنتن لأنه قيل في التوراة إنهم شديدو النظافة. وعلّقت هذا النوع من الرسائل على الجدار داخل إطار، كما أنني تخلّصت من الطلبات الوجيزة لإلغاء الاشتراك ضاحكاً: «أنتم تخبرونني أموراً لا أريد معرفتها! لقد اكتفيت من صحيفتكم!».

يتوقف الضحك عندما يتعلق الأمر بإسرائيل والفلسطينيين. فبعد عدد قليل من المقالات والأحاديث التداخلية، وصلني فيض من رسائل الفاكس التي تحمل صلباناً، وتهديدات، واتهامات. وإذا ارتكبت خطأ مرتبطاً بالوقائع المحيطة بالعالم العربي، يتلقى طابق الأخبار من حين لآخر رسالة تقول، «لقد ارتكب مراسلكم خطأً مرتبطاً بالوقائع» وإذا ارتكبت خطأً مرتبطاً بالوقائع المحيطة بإسرائيل، تصل خمس رسائل تقول، «مراسلكم مناهض للسامية». ذات مرة، رفعت سماعة الهاتف وسمعت، «سوف تموت». حتى إن زميلي في تل أبيب هوجم من قبل

إسرائيلي يجيد اللغة الهولندية: «سوف تقع في مشاكل إذا واصل لوينديك ذلك كتابة تلك المقالات».

كان عالماً جديداً، ولا يعود سبب ذلك فقط إلى أن قرائي ومشاهدي متورطون عاطفياً. لقد استخدمت ذات مرة عبارة الحرب الإعلامية في إحدى مقالاتي، ولكنني لم أفهم معناها إلا بعد أن بدأت بتغطية إسرائيل والمناطق الفلسطينية. ففي الحرب الإعلامية كل شيء مختلف كما اتضح في رحلتي الأولى.

كانت الانتفاضة قد اندلعت قبل أسابيع قليلة. في البدء، كانت تقع إصابات من الجانب الفلسطيني بصفة رئيسية، ولكن حشداً في رام الله قام بعد ذلك بإعدام جنديّ احتياط إسرائيليّين أمام فريق تصوير صودف وجوده في المدينة. في ذلك المساء نفسه، قصفت إسرائيل مدناً فلسطينية للمرة الأولى منذ العام 1967؛ لقد كانت إشارة للصحافة العالمية للتجمع في الأراضي المقدسة، ولصحيفة أن أُر سي ومحطة الإرسال أن أو أس لاستخدامي.

فجلتُ بعينين مفتوحتين مركز الصحافة الذي أُعدّ بسرعة مذهلة وجُهّز بشكل ممتاز في فندق الدرجة الأولى إسروتل القائم في الجزء اليهودي من القدس. كنت قد شاهدت مراكز صحافة تابعة لحزب الله وأنظمة عربية، ولكن هذا المركز مختلف. وبينما كنت أتردد بالاختيار بين القهوة المجانية، والشاي بنكهاته الثماني المختلفة، وثلاثة أنواع من عصير الفاكهة، وكومات من الشطائر الملفوفة، كان رجال ونساء إسرائيليون يجوبون المكان بلباسهم العسكري الموحد باللون الزيتوني ويوزعون أوراقاً تحتوي على اقتباسات ملائمة. وأطلعونا بإنكليزية جيدة، ودودة، وطيقة، على المؤتمر الصحافي الوشيك، على أن يقوم متخصص

في الدفاع بإيجاز مضمونه في وقت لاحق من ذلك اليوم.
كان الأمر على درجة عالية من الاحترافية: صور عن الإعدام،
أوصاف للطريق المؤدية إلى المقبرة حيث دُفن جنديًا الاحتياط... لقد
زُودت الصحافة العالمية بكل ما تحتاج إليه بمهارة متمرسّة، لا بل أكثر
من ذلك: محفوظات برسم الاستخدام من دون شروط مُسبّقة لجنود
إسرائيليين يقدّمون الإسعافات الأولية لفلسطينيين؛ أرقام هواتف الناطقين
بلسان الحكومة الذين يمكنهم شرح وجهة نظرها بكافة اللغات الرئيسية
وبالعدد المطلوب من الكلمات؛ ملفات مليئة بالمعلومات؛ نسخات
مطبوعة عن مواقع الإنترنت وأكّداس من النشرات الإعلامية تحمل
العنوان «إرهاب أم احتلال - أي منهما في المقام الأول؟»

التقيت عدداً لا يُحصى ولا يُعدّ من الصحفيين الذين بدأ أنهم
يجدون الأمر طبيعياً بالكامل وهم يتنقلون على السجاد ذهاباً وإياباً
ويناقشون عبر أجهزتهم الخلوية أدق تفاصيل ما سينقلونه لغرف الأخبار
في الوطن، وكيفية نقلها والوقت المحدّد لذلك. وكانت استوديوهات
القدس التي يتوافر لديها اتصال عبر الأقمار الاصطناعية تقع بجانب
إسروتل لإجراء مداخلاتهم مع البرامج الإخبارية. إنه مكان ملائم
لأن العديد من المراسلين يرتقبون نقل وقائع أحداث متوقّعة في ذلك
المساء، علماً أن المراسلين كانوا قد وصلوا للتوّ إلى الأراضي الإسرائيلية
والفلسطينية.

أي نوع من العالم هو هذا العالم؟ لقد تفاقمت الانتفاضة، وتنقلتُ
بين لبنان والأراضي المقدسة، وكان اندهاشي يزداد مع كل رحلة.
ووضعت مجموعة كاملة من «القصص التي تدعو للتفاؤل»: أطفال يهود
ومسيحيون ومسلمون معاً في مدرسة واحدة؛ أغصان زيتون مُرسلة من
الإسرائيليين والفلسطينيين؛ حفلات موسيقية مشتركة. لم يكن عليك

سوى إجراء اتصال هاتفي بالمنظمين الفلسطينيين والإسرائيليين لهذه المشاريع الواعدة... فتقدم لك على طبق التقارير الملائمة، والمعلومات التي يمكن التحقق منها، والتفاصيل المُلغطة والمثيرة للصور الذهنية.

اتصل بي مكتب الصحافة الإسرائيلي الحكومي. «لدينا لك تغطية حصرية: امرأة يهودية ناطقة بالهولندية انضمت طوعاً إلى القوات المسلحة لأنها أدركت أن إسرائيل في خطر؛ خبير في شؤون الإرهاب ناطق بالإنكليزية يمكنه شرح مكامن الخطر؛ ومستوطن قُتل ابنه في أحد الهجمات». لقد أخبرتني مراسلة أميركية أن محطات التلفزيونية أرسلت كل مراسليها إلى الخارج لمدة أسبوعين. «يريدون تحقيق سبق صحفي. وعندما يعرض عليهم أحدهم خبراً جاهزاً يتقبلونه بلهفة». عندما رأيت في المرة التالية مستوطناً يبكي ابنه على شاشة التلفاز، لم أتمكن من الكف عن التساؤل عن عدد فرق التصوير التي اصطحبته إلى مقبرة ابنه. وكيف يحدث أمر مماثل؟ «مكتب الصحافة الحكومي يتحدث إليك. تعازينا الحارة لفقدان ولدك. لديّ ثلاثة صحفيين هنا، ومن واجبك الوطني التحدث إليهم عن حزنك؟»

لقد زرت مجمّعاً سكنياً من ستة طوابق في غزة كان قد تعرّض لقصف إسرائيلي. وتحدثت إلى بعض الجيران والأنساء الناجين، وبحثت عن مكامن اليأس والحيرة لديهم. وأخبرتني امرأة أن فكرة إصلاح الغسالة لا تزال تراودها. «ولكنني أدركت أنها لا تزال تحت الرُّكام، كزوجي تماماً».

كنت أختبر امرأةً مماثلاً كل بضعة أيام، وما شهده العمل الإعلامي في إسرائيل من انفتاح، هو الأمر الأكثر لفتاً للانتباه. فبعد تعرّض لهجوم تسبب بسقوط عدد كبير من الضحايا المدنيين، انتظرت الحكومة الإسرائيلية أربعاً وعشرين ساعة كالمعتاد قبل توجيه ضربة

انتقامية. ومُنحت الصحافة العالمية وقتاً للراحة والتفكير ملياً في المعاناة الإسرائيلية، لأنه حالما يبدأ الهجوم الانتقامي فإنه سيهيمن على العناوين الرئيسية. وسمح مستشفى هاسادا في القدس لفرق التصوير بزيارة ضحايا الهجوم لإظهار «أكبر قدر ممكن من الدماء، والألم، والدموع»، واعتماد أقوال ناطق إسرائيلي. وبعد هجوم فلسطيني كبير على نحو استثنائي، لم تتم إزالة جثث الضحايا على الفور لأن رئيس الوزراء أراد تسجيل تصريحه أمام ستارة خلفية من ثمانية عشر كيساً للجثث وحافلة محترقة. ومن الأمثلة الأخرى عن الوضوح الذي اعتمده الإسرائيليون لمناقشة كيفية التأثير بوسائل الإعلام، قيام أحد وزراء الحكومة الإسرائيلية بالثناء بحماسة على فريق تصوير أظهر ما يكفي من الذكاء لتصوير عدد قليل من الفلسطينيين وهم يحتفلون بوقوع هجمات 11 أيلول/سبتمبر؛ لقطات مأخوذة عن قُرب وبدا الأمر كما لو أن عددهم كبير، وتكرر عرض الشريط المصورّ على التلفزيون الأمريكي؛ وإعلان مكتب الصحافة التابع للحكومة الإسرائيلية بفخر أنه أجبر السي أن أن على إعداد سلسلة وثائقية عن ضحايا الإرهاب للتعويض عن المقابلة التي أجرتها مع أنساء مرتكب الهجوم؛ وتباهي رجل أعمال يهودي-أميركي أمام وسائل الإعلام الإسرائيلية بأنه تمكن من التخلص من المراسل الانتقادي لميامي هيرالد من خلال التهديد بسحب إعلانات منها.

قبل أن أصبح مراسلاً، كنت أنظر إلى الصحفي كما لو أنه ذبابة على الجدار - ميكروفون غير مرئي يسجل الأحداث - ومعلّق رياضي على مباريات كرة القدم يجلس في مكان ما من الإستاد ويتابع الأهداف من دون أن يراه اللاعبون؛ في المكان الذي لا تكثر له إسرائيل والفلسطينيون. وكان يتم التلاعب بوسائل الإعلام باستمرار والتأثير

فيها من قبل الأحزاب المعنية.

كان عالماً جديداً، وقد شرح لي زملائي الصحفيون ما الذي يكمن وراءه. كنت أعتقد أن حرباً إعلامية هي حرب تلقى اهتماماً كبيراً من وسائل الإعلام، ولكنها أكثر من ذلك. قارن الانتفاضة الثانية مع النزاع الحدودي الذي جرى في الوقت نفسه بين أثيوبيا وإرتريا، قال الزملاء. إنها حرب تقليدية: فريقان يتقاتلان بكامل طاقتهما العسكرية، وينتصر الأقوى، وتنقل وسائل الإعلام ما يجري على الأرض. ولكن النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين يدور بشكل مختلف. فإذا استخدم الجانبان كل طاقتهما في النزاع، يُحسم الأمر على الفور، وتسيطر إسرائيل على الوضع بأسلحتها النووية، وقنابلها الذكية، ودباباتها الأكثر تطوراً، ومقاتلاتها، وطوافاتها، وسفنها الحربية، والمراقبة عبر الأقمار الاصطناعية، والغواصات. باستطاعتها تحقيق انتصار على الفلسطينيين في غضون أربع وعشرين ساعة، وعلى كل جيرانها أيضاً إذا أرادت ذلك. هو أمر تؤيده بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية والسياسيون الإسرائيليون بانتظام. ولكنه لن يحدث، ولا يمكنك فصل هذا الأمر عن الاهتمام الكبير الذي توليه وسائل الإعلام لهذه المنطقة وعن الرأي العام العالمي. يتشكل هذا الرأي العام إلى حد كبير مما يراه الناس في وسائل الإعلام.

مرحباً جميعاً! وكما قال مدير علاقات عامة إسرائيلي: «لا يتعلق الأمر بما يحدث بل بكيفية عرضه على السني أن أن». في الأراضي المقدسة، لم تكن صفحات الصحف وشاشات التلفزيونات نوافذ على النزاع فحسب، بل مرحلة من مراحل النزاع أيضاً.

الفصل الثامن

قانون المقصّ

كان توفي التالى فى رام الله، وقد شعرت بالخوف. كان حشد فلسطينى قد أعدم جنديّ احتياط إسرائيلىّين مما أدى إلى حملة القصف الإسرائيلىة الأولى لمدن فلسطينية لم تتعرض للقصف منذ العام 1967، وشاهدت الصور على كافة القنوات! أولاً، فلسطينيون متهجون يحملون جزءاً من جثة إسرائيلى، ويبدأ القصف بعد ذلك؛ الناس يسرون بسعادة فى الشارع، فينظرون إلى الأعلى متفاجئين، ويلى ذلك دويّ انفجار كبير وسُحِب من الدخان، فيركض الناس فى كافة الاتجاهات.

لكن الحياة اليومية كانت عادية عندما وصلت إلى رام الله. كانت السوق مكتظة بالمتسوقين، وسيارات الأجرة تطلق أبواقها للزبائن، وإذا نظرت إلى آخر الشارع وإلى السياج الخشبي الذى يحمل دعاية مسحوق الغسيل برسيل، تجد مركز الشرطة الوحيد الذى قامت إسرائيل بقصفه بدقة... هل تعلم؟ سأقوم بمرافقتك. هكذا كانت الأجواء فى اليوم التالى لعملية الإعدام والقصف؛ ولكن عندما أنتقل إلى قنوات تلفزيونية عربية أو غربية، أجد المراسلين يتحدثون بحماسة عن «التوتر الذى يشوب شوارع رام الله»، و«الغضب الشديد»، و«القلق الكبير»، يلى ذلك مشاهد

عن عمليتي الإعدام والقصف.

ففي رام الله، لاحظت للمرة الأولى كيف تقوم المحطات التلفزيونية بتحديد نظرتك إلى الواقع: لا تعرف الوقائع التي تُحجّب عنك، وما تراه يترك في نفسك أثراً أكبر مما تتركه مقالات الصحف أو البرامج الإذاعية. لقد أوجز أحد زملائي الأمر بإتقان: الكلمات تستهدف عقلك، والصور تصيبك في الصميم. وذات مرة، رويت في أثناء أحد الأحاديث البيئية مع فريق الأخبار التلفزيوني كيف توقف الحيف لدى الشباب في غزة بعد عمليات القصف الإسرائيلي؛ لقد اتخذت مظاهر سنّ البلوغ منحى معاكساً بسبب الضيق والكرب. كنت أملك معلومات عن هذا الأمر لأنني كتبت قصتين كبيرتين عن الآثار السيكولوجية للعنف الإسرائيلي على طلاب المدارس الفلسطينيين، وتم التركيز على هاتين القصتين في أن أرسي وخصّص لهما مكانان بارزان. ولكن مجموعة منوعة من المحررين اتصلوا بي بعد أيام من البرنامج الإخباري ليسألوني عما إذا لم يكن باستطاعتي كتابة قصة عن الآثار السيكولوجية للعنف الإسرائيلي على طلاب المدارس الفلسطينيين. ألم تقرأوا مقالتي، سألت. وكان الجواب في غالب الأحيان: «حسناً، أما وقد ذكرت الأمر الآن...»

كان التلفزيون ملكاً في الحرب الإعلامية الدائرة في الأراضي المقدسة، ولكن ثبت في النهاية أن لديه نقاط ضعف. فقبل أن أشاهد فرقة تلفزيونية تؤدي عملها، كنت أتابع الأخبار واثقاً من صحة ما أرى وأسمع. لم أكن أملك أي فكرة عن المشاهد التي تبقى خارج عدسات الكاميرات؛ عندما تقف امرأة فلسطينية أمام أنقاض منزلها المقصوف، وترفع يديها نحو السماء، وتصرخ: «أطفالي!» ربما كان التأثير حقيقياً، ولكن عندما رأيت مشهداً مماثلاً ملتقطاً في غزة، أدركت أن المشاهدين يرون أمراً لا يمتّ إلى الجيشان العاطفي بصلة. كانت المرأة تصرخ

«أطفالي!» في حين أن رجلاً مفتول العضلات يحاول على بُعد أقدام منها التقاط صورة قريبة لوجهها دون إظهار يديها المرفوعتين. كان هناك ميكروفون متدل فوق رأس المرأة المنتحبة على بعد قدمين منه، ويوجد حولها مُجري مقابلات و مترجمه، وتجمّع من الناس، يجتذب فريق التصوير الناس كما يجتذب الخبز البط. كيف عشر الفريق على المرأة؟ بالطبع، ربما رآها المصور والتقط لها صوراً من دون استئذنها. ولكن من الأرجح أن مُجري المقابلات كان قد اختار امرأة من مجموعة صغيرة، وتبادلا أطراف الحديث في أثناء الإعداد لالتقاط مشاهد لها، ووضعت في مكان محدد لتجنّب أي سوء إضاءة يتسبب به نور الشمس؛ ولم يكن الرُكام مرثياً بطريقة معيّرة. وتم إقناع مشيري الضجيج في الحي بالتزام الهدوء، وطرح مُجري المقابلات بعد إيماءة من مهندس الصوت السؤال التالي: «ماذا حدث لأطفالك؟»

في الجامعة، كنت قد حفظت أموراً عن الرسائل - تحدد الفكرة المطروحة محتوى الرسالة التلفزيونية - ولكن مدى تأثير الظروف على ما تقوم به أو لا تظهره على الشاشة هو أمر لم أفهمه حقاً حتى قصدت لبنان لالتقاط مشاهد بنفسي.

كان من المُفترض أن يكون التحقيق عن ردود فعل الفلسطينيين على عودة الجنرال الأسبق أرييل شارون إلى المعترك السياسي الإسرائيلي. كان شارون الرأس المخطّط للاجتياح الإسرائيلي للبنان قبل عشرين عاماً، وسيطرة الجنود الإسرائيليين على مخيمَي اللاجئيين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، وتسهيل قيام ميليشيا لبنانية بالمجزرة الشهيرة. كانت الميليشيا مسلّحة ومدربة وممولة من قبل إسرائيل، وسمح لها بارتكاب ما ارتكبه لمدة نهاريْن وليلتيْن على ضوء أنوار القنابل المضئية الإسرائيلية.

إن حمّام الدم الذي تعرضت له صبرا وشاتيلا أكسبهما شهرة عالمية وكلف شارون مكانته على الساحة السياسية، ولكنه عاد. ووفقاً لبائع مثلجات فلسطيني: «في يوغوسلافيا السابقة، يُسجن مجرمو الحرب؛ في إسرائيل، يُسند إليهم منصب رئيس الوزراء».

أرسلت أستوديوهات هيلفرسام زميلاً من أن أو أس لمساعدتي في الإجراءات المتّبعة. فاستأجرنا فريق تصوير محلي، وقصدنا المخيمين، وعندها ارتكبت خطأ لا أزال أشعر بالخجل منه. فلدى التحدث إلى سكان المخيم، ذكرت عن طريق الخطأ بعض «المعلومات غير الملائمة» - معلومات لا تلائم قصتي - وفقاً لعلماء الأنتروبولوجيا. وقال لي الفلسطينيون إن ما دُعي حرباً ضد المخيمات بعد سنوات قليلة كانت أسوأ من حمّام الدم الذي ارتكب في مخيم اللاجئين. «كانت المجزرة أمراً رهيباً»، قالوا، «ولكنها لم تدم سوى يومين». من جهة ثانية، لقد دامت حرب السيطرة على المخيمات بعد سنوات أشهراً: تحدثوا عن التضرور جوعاً، ووصفوا أعمالاً وحشية مثيرة للاشمئزاز.

واصلنا البحث عن أشخاص فقدوا أفراداً من عائلاتهم في أثناء حمّام الدم. فعثر مهندس الصوت على شاب قُتل ابنا شقيقته. هل كان ذلك كافياً؟ وبعد محادثة صعبة، اكتشفنا أنه لم يكن موجوداً هناك في أثناء المجزرة. إن العثور على شاهد عيان سيكون أفضل بكثير، ولكن كيف نطلب ذلك بصورة لائقة؟ فشجعنا سهى، وهي شابة في أواسط عقدها الثالث، على إطلاعنا على ما حدث. كانت قد ذهبت لإلقاء نظرة على الجنود الإسرائيليين: «كان الجميع يقولون إن لليهود قروناً، وأردت رؤية ذلك». لم تقع أيدي رجال الميليشيا على سهى لأنها كانت خارج المخيم، ولكن عائلتها كانت أقل حظاً. «أطفئوا أجهزة الهاتف الخليوي، كاميرا، بدأ التصوير!» وشرعت سهى بالبكاء، وروت القصة من خلال

دموعها، فأطفأنا الكاميرا واستعادت سهى هدوءها. «هل أمثل كيف اختبأت من الميليشيا؟» فادّعت أنها تحدّق من وراء جدار وهمي بوجه طفولي. «هذا ما قمت به لأجل التلفزيون الفرنسي».

مرحّباً جميعاً! لهذا السبب كان المصوّر يتبادل أطراف الحديث مع سهى من حين لآخر؛ كان يعرفها منذ تصوير مشاهد سابقة. وواصلنا بحثنا، آمليين في الحصول على بعض المقابلات الجيدة. بعد ذلك، كان علينا الذهاب إلى مكان التوليف حيث اتضح الفرق حقاً بين العمل التلفزيوني والعمل لصالح الصحف. ووضعت أيضاً مقالة للأن أر سي عن اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا بدأت على النحو التالي:

لا تزال مريم تحتفظ بجهاز الراديو الثقيل الوزن الذي حمّله والدها عندما فرّ مع عائلته المؤلفة من أحد عشر فرداً من المنزل القائم في ما يُدعى الآن شمال إسرائيل. ففي العام 1948، وبعد إنشاء دولة إسرائيل، اندلعت الحرب وسرت شائعات عن مجازر ارتكبتها الجنود اليهود. «ظننّا أن الأمر لن يطول أكثر من أيام قليلة»، قالت لي مريم من منزلها في شاتيلا. «فاصطحبت معي جهاز الراديو وبطارية لأننا لم نعرف متى نستطيع العودة. ولكن اليهود لم يسمحوا لنا بالعودة». وبعد أكثر من خمسين عاماً، لا تزال مريم، وهي والدة لثمانية أبناء وبنات، تنتظر العودة.

كانت حالة مريم الأكثر استرعاءً للانتباه في المخيم، وكان جهاز الراديو القديم ذاك صالحاً لافتتاحية جيدة. إنه مثال يومي عن عدم إدراك الفلسطينيين لما يدور حولهم؛ والتمسك بذلك الراديو يرمز إلى مشاربتهم.

لكن مريم لم تكن صالحة للظهور في النشرات الأخبارية التلفزيونية. كان جهاز الراديو في منزل صديق لها لم يكن موجوداً في منزله آنذاك. أرادت إخبار قصة شقيقاتها المقتولات، ولكنها استمرت بالاستطرد وضاعت في التفاصيل. كان هناك أزيز صادر عن المتجر في الطابق السفلي، ومنزلها مُعتمِ جداً وتجهيزاتنا غير مؤهلة لتوفير الإنارة المناسبة. وعندما فهمت أنه لن يكون باستطاعتنا تصويرها إلا إذا تمكنا من نقل الخزانة، والكراسي، والتلفاز، والأريكة، من مكانها، طلبت منا بتهديب العثور على شخص آخر.

هكذا جرى الإعداد لتحقيق إخباري تلفزيوني. ولكن قصتها ورقم هاتف الصديق الذي يملك جهاز الراديو كانا كافيين بالنسبة إليّ للتمكن من وضع مقالة - باستطاعتي التحقق من الوقائع لاحقاً - ولكن من الضروري أن يظهر جهاز الراديو على التلفاز. في الصحيفة، يمكنني استخدام الاقتباس الرائع لبائع المثلجات عن الفرق بين مجرمي الحرب اليوغوسلافيين والإسرائيليين. ولكن في الأخبار التلفزيونية، كان عليه تكرار تعليقه أمام الكاميرا، ولكننا لم نعثر عليه.

لم تكن طريقة حديث مريم الفوضوية مشكلة بحد ذاتها بالنسبة إلى أن أُرسي لأنه يمكنني إلغاء بعض الجُمَل، وإيجازها، واستخراج أفكار مما قالته. كان باستطاعتي وضع قصة بواسطة كلمات، وقد مكّنتني برنامج معالجة النصوص من القيام بالأمر بسهولة. ولكن بالنسبة إلى التوليف التلفزيوني، عليك التعاطي مع المشاهد المصوّرة المتوافرة لديك لأنك تروي قصة مُرفّقة بمشاهد؛ فمن المنطقي إذاً ألا تتوافر لديك قصة إذا لم تكن تملك مشاهد. «ألا يمكنني شرح الأمر بالكلام إذا لم نكن نملك مشاهد مصوّرة؟» سألت زميلي (الذي قدّم لي يد العون في الإجراءات المتّبعة). ولكنه أمر مستحيل على التلفاز بسبب قانون المقصّص.

كان على زميلي أن يشرح لي هذا القانون لأنني لم أتعلم سوى تحليل النصوص، وليس المشاهد المصوّرة، في المدرسة الثانوية. فقانون المقصّ يصف الأثر الذي تتركه تلك المشاهد في نفوس الناس. وللمشاهد المصوّرة الأولوية وليس للصوت، فإذا كان النص المرافق لتقرير أو تحقيق مصوّر غير مطابق للمشاهد المعروضة، يتابع المشاهدون المشاهد المصوّرة فقط. وإذا قرأت التالي، «تردنا معلومات إضافية عن طريقة تعرّض الفلسطينيين للتطهير العرقي خلال إنشاء دولة إسرائيل» في حين تُعرّض مشاهد عن الأهداف التي سجّلها فريق أف سي ماكابي تل أبيب، فإن محتوى النص المرافق لا يكون مطابقاً للمشاهد المصوّرة. «يكون المقصّ مفتوحاً»، يقول المنتجون التلفزيونيون. إذا بدّلت مشاهد الأهداف بمشاهد عن فرار الفلسطينيين، ينغلق المقصّ وتغدو شفرته ملتصقتين ببعضهما بعضاً. فالصورة والصوت يدعمان أحدهما الآخر. إنه التقرير أو التحقيق التلفزيوني في أفضل حالاته، وهو أكثر فعالية من أي مقالة صحفية. لكن المشكلة تكمن بالطبع في أن العديد من الأمور في العالم لا يمكن تصويرها، وعدم عرض أي مشاهد على الشاشة وقراءة النص ليس خياراً بالنسبة إلى العمل التلفزيوني، ولكن أي مشهد مصوّر تضعه وراء النص المقروء يجعل الأولوية لهذا المشهد وليس للنص.

على شاشة التلفاز، يجعل قانون المقصّ الواقع على مستوى الحدث الذي يمكن التقاط مشاهد عنه، وتظهر نتائج هذا الأمر بجلاء عندما تنشب معركة إعلامية حول التفجيرات الاستشهادية أو الانتحارية. كانت هناك قصتان مختلفتان تماماً عن الأشخاص الذين قاموا بالهجمات. فقد تقول إن هؤلاء المقاتلين في سبيل الحرية فقدوا الأمل في الحياة لدرجة أنهم مستعدون للموت من أجل قضيتهم؛ لا بد من أن العيش في ظل

الاحتلال أمر رهيب. وقد تقول أيضاً إن هؤلاء يكرهون الإسرائيليين أكثر مما يحبون حياتهم؛ إذاً، لا بد من أن الفلسطينيين شعب يوقع الرهبة في النفوس.

رَوّجت ماكينه العلاقات العامة الإسرائيلية للتفسير الأخير، بالطبع، وقد ساعدها إلى حدّ كبير أهالي مرتكبي التفجيرات. فحالما يفجر أحد نفسه، تُسرّع فرق التصوير التابعة لوكالات الأنباء إلى منازل الأهالي الذين غالباً ما يُعربون عن فخرهم ويقولون إنهم سيدعمون كل من يقوم بالمثل.

لقد زرت عائلة مماثلة: عائلة في غزة. كان الابن، عرفات، البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، طالباً في السنة الأخيرة في الجامعة الإسلامية في غزة، عندما استهدف بعض الجنود الإسرائيليين بعد أن حزم جسده بالمتفجرات. كان أفراد عائلته جالسين أمام كوخهم المصنوع من الإسمنت في مخيم الشاطئ؛ للآجيين يتقبّلون التهاني من جيرانهم. فأخبرنا الوالد أن عرفات ودّعه. «كنت نائماً جزئياً. مدّ رأسه من وراء الزاوية وودّعني بسرعة». وتوقف قليلاً. «لو كنت أعرف ذلك، لضممته». واقترب أحد الجيران منه، فقال الوالد: «ابني لم يمّ؛ الشهداء يذهبون إلى الجنة مباشرة، وكم أتمنى الانضمام إليهم. الموت لكل اليهود!» وروى أنه كان ذاهباً إلى المسجد ليهبه العشرة آلاف دولار التي منحها صدام حسين لكل عائلة شهيد. «لو كان ابني يريد المال لأصبح متعاوناً»، قال للجميع. «ابني بطل وهو في الجنة». وأنزل مسؤول في حماس صورة الشهيد التي كان يتناقلها المعزّون. وتقبّل الوالد الأمر بتهديب؛ في لحظة يكون لديك ابن؛ في اللحظة التالية يصبح شهيداً. ومُرّر التمر، والكوكا كولا، ونسخات عن رسالة ولده الوداعية، والشاي؛ مع سكر لأن وفاته مريّة ومؤلمة.

بعد أن أعاد سرد مدى إبداع وتقوى واجتهاد ابنه، قاذني الوالد في جولة على الأنقاض التي يدعوها منزله. وسار معه ولده، ياسر الذي أصبح الابن البكر في العائلة، وهي مسؤولية كبيرة في عائلة كبيرة مماثلة. «أريد أن أريكم شيئاً»، قال لي هامساً، «ولكن ليس بحضور والدي». فاتجه نحو غرفته، وهمّ والده باللحاق به، ولكن ياسر أوماً بما معناه «لا». لم يسبق لي أن رأيت ابناً فلسطينياً يقوم بذلك. وأقفل ياسر الباب بإحكام، والتقط كيساً بلاستيكياً كبيراً للقمامة وبدأ بإخراج بعض الملابس منه. «حصلت على هذه من حماس»، قال شارحاً. كانت ملابس شقيقه التي ارتداها في الهجوم، وملأت رائحة كريهة الغرفة. وأشار ياسر بإصبعه إلى الثقوب العديدة التي أحدثها عدد كبير من الطلقات النارية في السروال. وكان الجزء الأعلى من السترة مفقوداً بسبب تمزق جسد عرفات برمانة يدوية قبل أن يتمكن من الاقتراب من الجنود الإسرائيليين. «لم تتبادر أي فكرة إلى ذهني حول ما يتعين عليّ فعله بهذه الأشياء»، همس ياسر. «كان قرار شقيقي الخاص». ووقفنا هناك بخدر، وحدّثت إلى ملصقاته التي يظهر فيها فريق كرة قدم مصري ومغنٌ لبناني. ووضع ياسر الكيس جانباً، وكنا على وشك المغادرة عندما سألته عن سبب عدم تمكن والده من القدوم معنا. فطرّف ياسر بعينيه. «يكاد والدي يكون متماسكاً. إذا رأى هذه الملابس، والرصاصة والثقوب وتلك السترة الممزّقة... فإنه قد يقتل نفسه».

مرحباً جميعاً من الإنترنت، حصلت على اسم أحد الأطباء النفسيين القلائل في غزة، وهو الناشط الشهير في ميدان حقوق الإنسان، أياد سراج. كان قد تعرّض منذ فترة قصيرة للضرب على أيدي مقاتلين غير نظاميين تابعين للسلطة الفلسطينية لأنه انتقد القائد، ولكنه كان لا يزال يريد رؤيتي.

إن العمل لصالح المحطات التلفزيونية هي ممارسة مستهلكة للوقت، ولم أكن أجيد القيام بهذا الأمر بشكل ممتاز. وشعرت أيضاً أنني مقيّد لأن الظروف تتحكم بما أستطيع الكشف عنه أم لا. من الواضح أن الفلسطينيين لم يكونوا معتادين على المقابلات المتلفزة: يعطون إجابات لمدة خمس دقائق عن كل سؤال مطروح، في حين أن المدة الزمنية للتحقيق هي ثلاث دقائق واثنتي عشرة ثانية. «يمكننا حذف جزء من المقابلة، أليس كذلك؟» سألت للمرة الأولى. ولكن من شأن ذلك أن يحدث قفزة في الصورة بين حذف وآخر، وهو أمرٌ مُلهٍ جداً لأنك تُفقد المشاهد انتباهه. أحياناً، يجرؤ الفلسطينيون على التكلم عن الأمور المثيرة للاهتمام فقط - فساد السلطات، مثلاً - بعد إطفاء الكاميرات. وكان باستطاعتي تخطي هذه المشكلة من خلال الإشارة إلى الأمر بنفسي (ندعو ذلك باللغة الاصطلاحية مشهداً لمتحدث واحد إلى الكاميرا) ولكن كان باستطاعتي التحدث إلى الكاميرا مرة واحدة فقط لأن أثر ذلك في نفوس المشاهدين يكون أقل مما لو قام فلسطيني بالتحدث إلى الكاميرا. وما الذي يمكنك القيام به إذا أردت العرض لثلاث حالات أخرى لا يتحدث فيها الناس إلى الكاميرا؟ لا صور، لا قصة.

لقد كان الأمر كافياً ليقودك ذلك إلى الجنون، ويتضح أكثر فأكثر سبب تعثر عملهم مع من يساعدهم في البحث عن مواضيع صالحة للنشر. فقد يقوم المراسلون برحلة لمدة يوم كامل من منزلهم في إسرائيل إلى فلسطين لالتقاء أحد هؤلاء المعاونين الذي أعدّ لهم قائمة: «هناك متعاون في جناح المحكومين بالإعدام، والدة قُتل ابنها بطلق ناري بسبب رمي الحجارة، امرأة أجهضت عند أحد الحواجز، مزارع فقد أرضه، مُعتقل تعرّض للتعذيب، أربع شقيقات افتتنَ معملاً للخياطة بعد تدمير منزلهنّ...»

يتقاضى المعاونون مئة دولار على الأقل في اليوم، ومن المحتمل أن يحصل الأشخاص الموجودون على قوائمهم على جزء من هذا المبلغ. في هذه الحالة، من ضمن أنهم لن يقولوا سوى الأمور التي لقيت قبولا من قبل فرق التصوير الغربية السابقة؟ ومعظم المعاونين يعملون لصالح السلطة الفلسطينية في حياتهم اليومية بحيث إنهم لن يكونوا متوافرين للمراسلين عندما يكونون بأمرس الحاجة إليهم. فهؤلاء يشبهون مسؤولين ذوي مناصب رفيعة في الوزارات الهولندية تستضيفهم السي أن أن في وقت متأخر من الليل بعد وقوع كارثة محلية.

عندما عرفت في بادئ الأمر بوجود معاونين، اعتبرت الأمر مخزياً. ولكن بعد محاولتي الاهتمام بكافة الأمور بمفردي لمرات قليلة، بدلت نظرتي إلى الأمور. ففي العمل التلفزيوني، عليك التكيف مع كافة الظروف بأفضل طريقة ممكنة، وإن لسبب واحد وهو أن الجهات المتحاربة تقوم بذلك أيضاً. وأولئك الذين يديرون شؤون وسائل الإعلام على علم بقانون المقصّ ويدركون أنني أقوم بمهمتي على أفضل وجه ما دمت أملك المواد المصوّرة التي تعزز موقعهم في الميدان الإعلامي.

تزداد قدرتنا على التعاطي مع واقع الحال بسهولة أكبر مع ازدياد الضغوط علينا، وهو الأمر الذي خبرته على أرض الواقع عندما اضطرت للذهاب إلى رام الله مرة أخرى. كانت إسرائيل قد قتلت قائد جماعة فلسطينية، فثار أفراد من تلك المجموعة لمقتل قائدهم بقتل وزير إسرائيلي. وطلبت إسرائيل من القتل الاستسلام ولكن رئيس السلطة الفلسطينية آنذاك، عرفات، رفض ذلك. وهكذا حاصرت الدبابات الإسرائيلية مقر قيادة عرفات، وكان لا يزال باستطاعة فرق التصوير دخول المقر المحاصر. فصرّح عرفات على ضوء الشموع قائلاً إنه لن يتراجع في ظل أي ضغط وإنه مستعد ليكون شهيداً لو اضطره الأمر

لذلك؛ صور معبرة عرضتها باستمرار محطات إرسال تلفزيونية عربية. استمر المأزق حتى بلوغ إسرائيل وعرفات تسوية يتم بموجبها سجن قادة المجموعة ولكن في سجن فلسطيني تحت رقابة بريطانية. فانسحبت الدبابات، وتباهى الناطقون الرسميون الفلسطينيون بالانتصار المحقق. «انتهى الحصار المُدَلَّ، وعرفات بطل قومي». بات هذا الشعار مادة في تقارير وكالات الأنباء لدرجة أن المعارضة في إسرائيل قالت: «انظروا كم أن حكومتنا غبية لقد جعلت من عرفات بطلاً قومياً».

وُضعت ردود الفعل هذه في تقارير وزعتها وكالات الأنباء أيضاً على غرار الخبر الذي تناول جولة الانتصار عبر شوارع رام الله في ذلك الصباح حيث كان الفلسطينيون الظافرون على جوانب الطرقات وأطفال ينشدون: «بالروح بالدم نفديك يا عرفات». وأوردت السي أن أن والبي بي سي هذه المشاهد المصوّرة متممة بتصاريح الظفر للناطقين الرسميين الفلسطينيين. كان محرري في هيلفرسام قد رأوا هذه المشاهد وأعدوا موضوعاً إخبارياً للمعالجة: فك الحصار- عرفات ينجو مرة أخرى. لقد بدت قصة صريحة، واستعجلت الذهاب إلى رام الله. لقد تمثلت الخطة بالحصول على بضع اقتباسات لفلسطينيين عاديين، والعودة من ثم إلى الاستوديو في القدس الغربية للتوليف.

ولكن أحداً في رام الله لم يشأ التحدث إلى الكاميرا، ولم أر أي احتفالات أو تظاهرات عفوية، وكان الجو هادئاً. فأجريت بضع اتصالات هاتفية، وتخلّيت عن عصيري المعتاد، وصحيفتي، والشيش كباب، وكل ما سمعته أوحى أن سكان رام الله العاديين لم يكونوا سعداء بأجمعهم أو فخورين بما حدث. كانوا خائبي الآمال لأنهم شعروا أن قائدهم رضخ مجدداً للمطالب الإسرائيلية. كانت جولة عرفات المعبرة عن الانتصار كل ما التقطته الكاميرات إضافة - ربما - إلى المئات من موظفي السلطة

الفلسطينية الذين لبّوا الدعوة في هذه المناسبة.

كوني مراسلاً لصحيفة، كان باستطاعتي تغطية القصة الأخرى في أوقات مماثلة، ولكن أين أجد الصور لأخبر تلك القصة على شاشات التلفزة؟ كان قد تم حجز مكان لبثّ تقريرى المباشر عبر الأقمار الاصطناعية في ذلك المساء، وأنفقت آلاف اليوروات على فريق التصوير، وعلى ساعات من التوليف، والاتصال اللاسلكي. كنت في منافسة مع مراسلين آخرين، وكان باستطاعتي تخيلهم يقولون: «لا يستطيع لوينديك ذاك التعاطي مع العمل الحقيقي، وهو يقول الآن إن السي أن أن أوردت خبراً غير صحيح». في النهاية، وضعتُ تقريراً محايداً قدر الإمكان على غرار سياسي لا يكذب بإخبار أمور غير صادقة، بل يلتزم الصمت حيال جزء بالغ الأهمية من الحقيقة.

الفصل التاسع

إنهم يقتلون يهوداً أبرياء

كانت الأراضي المقدسة عالماً جديداً، فقررت أن أكون شديد الحذر وموضوعياً على الدوام. كنت أعرف مدى تركيز مختلف أفراد المجتمع الهولندي على هذا الجانب أو ذاك، ومدى توق الجانبين المتقاتلين إلى التأثير في وسائل الإعلام، ومدى سرعة تأثير الإعلام التلفزيوني بصفة خاصة في هذا المجال.

لكن هل يمكن للمرء أن يكون موضوعياً؟ لم أقلق حيال الأمر مُسبقاً للأسباب التالية: ألا تقول ثاني أكبر محطة إخبارية، فوكس نيوز، «نحن نقل الخبر وأنتم تقررُون»؟ ألم تروِّج الجزيرة لاستراتيجيتها بالرأي والرأي الآخر؟ ألم تعدّ صحيفتي، أن أر سي، بـ «التفريق الواضح بين الوقائع والآراء»؟ أليس ذلك جوهر الصحافة النوعية، نقل الوقائع كما هي والعرض للخلاف كما يراه الفريقان المتنازعان لدى نقل آراء الناس؟ هكذا تعرض لصورة موضوعية عن النزاع، كما أعتقد.

لكن سرعان ما ظهرت الشكوك التي نمت وازدادت في السنوات التالية. لقد بدأ الأمر مع اختياري للكلمات. ففي العالم العربي، كنت قد خبرت أسلوب المؤالين: المسلمون الذين يبنون توجههم السياسي

على إيمانهم، هم أصوليون، في حين أن المرشح الرئاسي الأمريكي المتمتع بالقناعات الدينية نفسها يوصف في معظم تقارير وسائل الإعلام الغربية بأنه إنجيلي أو شديد التدين. وإذا فاز هذا الأمريكي في الانتخابات، لا أحد يقول إن المسيحية تحقق خطوات إلى الأمام؛ ولكن عندما يشغل مسلمون يستلهمون تعاليم القرآن لممارسة سياساتهم أعلى مناصب الحكم، يعتبر العديد من المعلقين الغربيين أن الإسلام يزحف. وإذا اصطدم قائد عربي بحكومة غربية، يُعتبر معادياً للغرب؛ لم تكن الحكومات الغربية أبداً معادية للعرب.

لقد جمعت بعض الأمثلة في القاهرة، ونمت القائمة بسرعة في الأراضي المقدسة: حماس معادية لإسرائيل؛ المستوطنون اليهود ليسوا معادين للفلسطينيين. والفلسطينيون الذين استخدموا العنف ضد المدنيين الإسرائيليين هم إرهابيون؛ والإسرائيليون الذين استخدموا العنف ضد الفلسطينيين هم صقور أو متشددون. والسياسيون الإسرائيليون الذين يسعون إلى حل سلمي هم حمائم؛ ونظراؤهم الفلسطينيون معتدلون، مما يعني في العمق أن كل الفلسطينيين متعصبون. ويمكنك ملاحظة ازدواجية المعايير بوضوح أكبر إذا قلبت الأمور: «أدت كلمة اليهودي المعتدل شيمون بيريز المناهضة للإسلاميين إلى اضطراب كبير بين الحمائم الفلسطينيين».

بهذه الطريقة، يمكن معاملتك بطريقة متحيزة، وذلك من خلال نعت حالات مشابهة في المعسكرين المتنازعين بطريقة مختلفة. ولكن الأمر لا يتوقف في الأراضي المقدسة عند هذا النوع من «الاستخدام اللاتماثلي للكلمات».

ففي الأنظمة العربية، تكون هناك - عادةً - كلمة واحدة فقط لكل شيء لتبسيط الأمور. فالكل يدعون مصر بمصر، ولكن يمكن لإسرائيل

أن تدعى أيضاً الكيان الصهيوني أو فلسطين المحتلة. فهل المناطق موضع النزاع أم الضفة الغربية لنهر الأردن، أو يهودا والسامرة، أو الأراضي الفلسطينية، هي محتلة، متنازع عليها، أو محررة؟ هل هي قرى يهودية، مستوطنات يهودية، أو مستوطنات يهودية غير قانونية؟ هل يفترض بي التحدث عن اليهود، أو الصهاينة، أو الإسرائيليين؟ فليس كل الصهاينة يهوداً، أو كل اليهود إسرائيليين، أو كل الإسرائيليين يهوداً. هل هم عرب، فلسطينيون، أم مسلمون؟ فليس كل العرب فلسطينيين، أو كل الفلسطينيين مسلمين، أو كل المسلمين فلسطينيين.

لقد تمثلت المشكلة الأولى في الأراضي المقدسة بما يلي: إذا أردت أن تكون موضوعياً، عليك استخدام تعابير محايدة. فلا يمكنك تعداد كل التعابير: «اليوم في رام الله، في الأراضي المحتلة أو المتنازع عليها أو المحررة من الضفة الغربية من نهر الأردن أو السامرة، قُتل أو دُبح فلسطينيان أو مسلمان أو عريبان وافدان جديدان أو إرهابيان أو مقاتلان في سبيل الحرية على أيدي جنود إسرائيليين أو قوات الدفاع الإسرائيلية أو جنود احتلال صهاينة...»

عندما كنت أعطي العالم العربي فقط وأتابع الأراضي المقدسة من خلال وسائل الإعلام، لاحظت وجود أكثر من كلمة واحدة لكل معنى. لقد اعتبرته تقليداً محلياً، موضوعاً جيداً لقسم الثقافة: هل يتناقشون حتى في شأن هذا الأمر؟ ولكنني أدركت بعد أن علقت وسط كل ذلك أنه الأمر الذي يتناقشون حوله بالتحديد. فهذه الكلمات تشكل وجهة نظر إذا ما استخدمت معاً، وهناك عدة كلمات بسبب وجود وجهات نظر عديدة.

كان هناك أمر آخر يجعل من الأراضي المقدسة عالماً جديداً؛

يمكنك العمل هناك كمراسل ومراقبة كل وجهات النظر. فإسرائيل دولة ديمقراطية تتمتع بكامل حرية التعبير. أنا لا أتكلم العبرية ولكن هناك صحف إنكليزية، وبعض البرامج التلفزيونية الإسرائيلية مترجمة إلى العربية أحياناً، في نهاية اليوم، إنه بلد اللغة الثانية. بدورهم، يعيش الفلسطينيون في كنف مزيج ملحوظ من الاحتلال الإسرائيلي غير المباشر والقمعية الجزئية للسلطة الفلسطينية. فللسلطة وزراء، وشرطة، وقوى أمنية، وتتمتع بسلطة محدودة في عدد قليل من الجيوب. إن الأمر بالنسبة إلى الفلسطينيين هو مزيج لنوعين من القمع يختلف بين جيب وآخر، ولكن هناك فسحة كبيرة من الحرية تمكن الفلسطينيين من التعبير عن آرائهم، ولقد استفدتُ من ذلك لأنني كنت أملك وقتاً كافياً من دون الحاجة إلى مترجم.

بهذه الطريقة، تمكنت من اختيار وجهات نظر مختلفة وقارنت في ما بينها، وسرعان ما أُصبت بالإحراج بسبب فكري السابقة عن النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين المتمثلة بوجود مؤيدين للسلام ومناوئين للسلام؛ وكان السؤال الأكثر إثارة، من سيفوز؟

بعد تحدثي إلى مناوئي السلام أولئك، لم يقل أحد منهم: «السلام؟ هل أنت مجنون؟ نحن لا نريده». فهؤلاء الأشخاص يحلمون أيضاً بنهاية للنزاع؛ لديهم أفكار مختلفة فحسب حول طريقة إحلال السلام، ولكنهم يعتقدون أنه من غير الممكن التوصل إلى اتفاق سلام.

«يمكن للسلام أن يستمر إذا كان هناك سلام عادل»، قال أشخاص من حماس والجهاد الإسلامي. تعني كلمة عادل أن يكون باستطاعة كل اللاجئين الفلسطينيين العودة إلى منازلهم التي فرّوا أو طُردوا منها عندما تأسست دولة إسرائيل. وتقول حماس إن إسرائيل ليست دولة بل مؤسسة زائفة؛ إنها كيان صهيوني، وستؤدي عملية السلام إلى قيام

محمية عاجزة، وبعد ذلك، ينسى الفلسطينيون قضيتهم وتتولى إسرائيل مهمة القضاء عليهم بتكتم. لذلك، لا تتحدث حماس عن عملية للسلام بل عن عملية للاستسلام.

عندما تستخدم حماس والجهد عبارة عملية السلام، فهما تضعانها بين علامتي اقتباس. إنه ميل تتشاطرانه مع الإسرائيليين اليمينيين؛ بالرغم من أنه تشبيه مرفوض من قِبَل هؤلاء. ووفقاً لليكود، إن عملية السلام خطأ مميت يرتكبه الإسرائيليون. فالعرب سيستمرون بالقتال حتى تدمير الدولة اليهودية. ويتحدث بعض المتتمين إلى الليكود عن عملية التجزئة بدلاً من عملية السلام: ستتقل إسرائيل جزءاً تلو الآخر إلى أعدائها.

قد يكون المستوطنون اليهود الأصوليون المناوئون هم الأكثر ضراوة في مناهضة عملية السلام. هم يعتقدون أن الله منحهم أرض الميعاد وليس إسرائيل فقط بل غزة أيضاً، والقدس الشرقية، ويهودا والسامرة - الضفة الغربية لنهر الأردن. فهذه الأماكن ليست محتلة بل محررة، ووفقاً للمستوطنين اليهود الأصوليين، إن عملية سلام تحوّل متراً مربعاً واحداً من الأرض للوافدين العرب الجدد لن تحمل السلام بل غضب الله. فكل شيء مُباح بهدف الحؤول دون ذلك؛ وحتى رفع شعار الموت لرئيس الوزراء، كما أثبت المستوطن إيغار عمير عام 1995 عندما اغتال إسحق رابين.

إنه الواقع المُربك الكامن وراء المفهوم المبسّط لمناوئي السلام. وكلما أطلت العمل على ذلك، صادفتُ المزيد من وجهات النظر. فالمسيحيون الأصوليون الذين يبلغ عددهم 30 مليون شخص في أميركا يعتقدون أن نهاية الزمن ستحلّ عندما تغدو الضفة الغربية مقطونة من قِبَل اليهود بشكل حصري. ويناضل الجناح الملحد في عملية السلام الفلسطينية-الإسرائيلية في سبيل الحصول على دولة واحدة لليهود

والمسلمين والمسيحيين. ويريد القوميون العرب دولة عربية متحدة واحدة للمسلمين العرب والمسيحيين واليهود تغطي المنطقة الممتدة بين العراق والمغرب. ويحلم مؤيدو إسرائيل الكبرى بدولة يهودية تمتد من دجلة في العراق حتى النيل في مصر. وهناك يهود شاس المٌغالي في المناداة بصحة معتقده، وهو ثالث أكبر حزب في البلاد، ويرفض الخدمة العسكرية معتبراً الهولوكوست عقاباً إلهياً بسبب استيعاب اليهود الأوروبين.

في العالم العربي، كان يتعين عليّ التحزّر باستمرار في شأن معتقدات وآراء الناس والأحزاب السياسية - الأمور المجهولة على برنامج عمل أي نظام من هذه الطينة. وفي حالة إسرائيل والفلسطينيين، وقعتُ على سبعة أو ثمانية برامج عمل على الأقل متممة بلوائح تفسيرية، وتراوح عملي بين التحزّر والغرق في يَم من المعلومات. فبعد وقوع إحدى الهجمات، أو الإعلان عن إقامة مستوطنة جديدة، أو حدوث اختراق دبلوماسي، كيف يكون باستطاعتك وضع لائحة بردود فعل اليهود، والمسيحيين، والأصوليين الإسلاميين، والحكومة الإسرائيلية، والسلطة الفلسطينية، واليهود المٌغالين في المناداة بصحة معتقدتهم، والجناح الملحد في عملية السلام؟

كان أمراً مستحيلًا، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، هو أمر لاحظته بعد أن قضيت بضع أمسيات أتنقل بين القنوات التلفزيونية. فهناك مواضيع استفاضت بعض المحطات التلفزيونية في العرض لها، في حين أنها لم تُذكر في قنوات أخرى أم أنه تم العرض لها بطريقة مختلفة كلياً. فقد يكون لهجوم وقع في إسرائيل العنوان الرئيسي التالي، «البلد برمته مصدوم بسبب مجازر قتلت ثمانية أشخاص»، تليه مشاهد مروّعة

لأنسباء مذهبولين وناطق رسمي غاضب بحكم وظيفته: «إنهم يقتلون يهوداً أبرياء!» ولكن يمكنك أيضاً ذكر هذا الحادث في موجز نشره الأخبار: «اليوم، انفجرت معارضة الاحتلال الإسرائيلي مما أدى إلى مقتل ثمانية إسرائيليين في تل أبيب». وعندما تعلن الحكومة الإسرائيلية عن بناء مستوطنات جديدة، يمكن تغطية الخبر بشكل عملي من خلال العرض لخارطة للمنطقة تُظهر الموقع بخطوط متوازية ومتقاطعة، وعلى الأكثر، من خلال العرض لتصريح مثل، «اعتبرت السلطة الفلسطينية التوسّع هجوماً جديداً على عملية السلام». يمكنك أيضاً الاستفاضة في هذا الموضوع من خلال إجراء مقابلات مع فلسطينيين مذهبولين تم الاستيلاء على أرضهم، وناطق رسمي غاضب بحكم وظيفته يقول: «كيف يمكن لإسرائيل مبادلة الأرض بالسلام إذا كانت ستتملك تلك الأرض بالمستوطنين وحيث يمكن لليهود فقط أن يُقيموا؟»

في الأساس، يمكن رواية قصص مختلفة عن الأحداث نفسها. وكان على وسائل الإعلام الغربية الاختيار بينها، مفضلة الآراء والمواضيع المتعلقة بالجانبين المتفاوضين اللذين هيمنوا على الأخبار ووضعت مواقفهما أحدها إزاء الآخر: «وفقاً للحكومة الإسرائيلية، يُثبت الهجوم مرة أخرى أن الفلسطينيين لا يريدون السلام. وتقول السلطة إن الاحتلال هو المشكلة».

هكذا فهتم وسائل الإعلام الدولية كل ذلك، وأفهمت المشاهدين والقراء والمستمعين. لكن هذه النظرة الضيقة تسببت بمشكلة جديدة؛ مشكلة الموضوعية. باستطاعتك قطع وعد بتقديم «الوقائع ليس إلا»، ولكن أي وقائع؟ يمكنك السعي للفت الانتباه إلى وجهي القصة، لكن ماذا لو كان هناك أكثر من وجهين لتلك القصة؟ بعد ذلك، تبقى لديك مشكلة اختيار المفردات المناسبة حتى وإن وضعت فريقين فقط تحت

المجهر. كانت القصة الحدث آنذاك إخراج عملية السلام عن مسارها، فقال الناطقون الرسميون بلسان السلطة الفلسطينية: «تقضي عملية السلام بمبادلة الأرض بالسلام. لذلك، نحن نطالب بتفكيك المستوطنات اليهودية غير القانونية وإعادة المناطق المحتلة. كيف يمكن لإسرائيل التفاوض على أرض لا تملكها؟»

قال الناطقون الرسميون الإسرائيليون: «تقضي عملية السلام بمبادلة الأرض بالسلام. هذا ما نتفاوض لأجله أي مقابل تنازلات فلسطينية، تتنازل إسرائيل عن جزء من الأراضي المتنازع عليها، في حين تبقى مستوطنات يهودية أخرى في عهدتنا. تتطلب المفاوضات على الدوام تنازلات متبادلة». لقد بدا الموقفان منطقيين، ولكن هذا الجانب أو ذاك يخرج بنتيجة أفضل وفقاً للتعبير المستخدمة من قبل وسائل الإعلام.

لو أردتَ وضع تقارير عن الوضع بطريقة موضوعية لواجهتَ مزيداً من المشاكل. وتتناول الحرب الإعلامية أيضاً الاقتراع القائم على التعاطف. فالجمهور يتعاطف عادةً مع القوة الأضعف، وهكذا يسعى الجانبان إلى الظهور بمظهر المستضعف، ويحاولان الاستفادة قدر المستطاع على شاشة التلفاز من القتل والجرحى الذين سقطوا في صفوفهما، مظهرين الخصم بأسوأ صورة ممكنة. فالأمر منطقي، ولكنها مشكلة جديدة بالنسبة إلى المراسل الذي يريد إظهار أكبر قدر من الموضوعية. ماذا لو كان أحد الجانبين قادراً على إظهار معاناته بطريقة أفضل من الآخر؟ لقد واجهت هذه المشكلة على الفور في رحلتي الأولى إلى الأراضي المقدسة، ولم أدرك ما مرتت به إلا لاحقاً.

حدث ذلك في أثناء وجودي في الأراضي المقدسة للمرة الأولى عندما جعلني الفلسطينيون الذين ارتكبوا عملية الإعدام في رام الله أهرع

إلى المكان مع مئات الزملاء من مختلف أنحاء العالم. وعندما وصلت، كان عليّ التوجه إلى مركز الصحافة المتطور في إسروتل للحصول على بطاقتي الصحافية. وكانت تنتظرنني هناك نسخة مُعدّة سلفاً عن الأحداث: تحوّل هؤلاء الشخصيين إلى أشلاء على أيدي عصابات مهاجرة. انظروا إلى ذلك النوع من الكره الأعمى الذي يتعيّن على إسرائيل الدفاع عن نفسها منه. كل شيء - الصور، الاقتباسات الملائمة، ملفات المعلومات - كان مُعدّاً للإبلاغ الرسالة نفسها: «إنهم يقتلون يهوداً أبرياء؛ تمثل المشكلة بالكره والإرهاب الفلسطينيّين».

بعد ذلك، توجهت إلى رام الله حيث لم يكن هناك أي مركز للصحافة، ولم يكن الصحفيون بحاجة إلى تأكيد حضورهم. وإذا اتصلت بوزارة الإعلام لا تتلقى أي إجابة أم أنك تحصل على إشارة خط هاتف مشغول بعد طول انتظار. كان الجنديان المعدومان من قوات الاحتياط. ماذا كان يفعل جنديان من أفضل الجيوش تدريباً في العالم في وسط المدينة التي تشهد انتفاضة؟ قد تظن أنه يُفترض بالصحفيين أخذ وقتهم لاكتشاف الأمر. ولكن الأنباء ترد بسرعة كبيرة، وإذا لم تكن تملك نسخة فلسطينية جاهزة عن الأحداث، فإن النسخة الإسرائيلية هي التي تهيمن.

كانت الحكومة الإسرائيلية أفضل تجهيزاً من السلطة الفلسطينية لخوض حرب إعلامية. وعندما رأيت كيفية قيام الحكومة الإسرائيلية بالتعاطي مع الكوارث من خلال علاقاتها العامة، فهمت كيفية تأثير ذلك الفارق في طريقة وضع التقارير.

في المقابل، كانت تظهر من حين لآخر مشاهد نساء وأطفال فلسطينيين قتلهم رصاصات إسرائيلية. ووفقاً للفلسطينيين، تصف هذه

المشاهد جوهر النزاع: الاحتلال هو المشكلة، وانظروا إلى العنف الأعمى الذي يستخدمه الجيش الإسرائيلي ضد مدنيين فلسطينيين أبرياء لمواصلة الاحتلال.

مع ذلك، وبدلاً من انتظار هبوب عاصفة الدعاية القاسية (كما تقول السلطة الفلسطينية أحياناً)، تشن الحكومة الإسرائيلية هجوماً مضاداً. فيظهر إسرائيليون بارزون على الفور على القنوات التلفزيونية الغربية وعلى صفحات الرأي ليعلنوا أنهم يشعرون بالخجل من بلدهم، وأنه يجب البحث بالعمق في شأن هذه الوصمة على جبين الدولة اليهودية. يعبر مسؤولو جهاز العلاقات العامة عن أسفهم، مشددين على أن إسرائيل لن تتعمد أبداً قتل أطفال أو نساء أو مواطنين مسنين أبرياء، فما الذي ستجنيه الدولة اليهودية من ذلك؟ وغالباً ما يتساءل الناطق الرسمي نفسه عما إذا مات الضحايا بسبب رصاصات إسرائيلية حقاً... فيتم التحقق من ذلك بعناية، مما يتطلب مزيداً من الوقت. بعد ذلك، يشرح الأشخاص أنفسهم مدى غرابة أعمال العنف هذه في «الأراضي المتنازع عليها» وصغر المناطق التي حدثت فيها هذه المأساة. فالإرهابيون يختبئون عمداً في مناطق سكنية أملاً في أن تقوم إسرائيل بقتل مدنيين فلسطينيين بشكل عرضي، وهكذا فإن تركيز وسائل الإعلام انتباهها على هذه المأساة يعود بالفائدة على الإرهابيين.

هكذا حاولت الحكومة الإسرائيلية التقليل من الأضرار: إبقاء الاحتلال بعيداً عن الأضواء، النأي بأنفسهم عن الأحداث، عزل هذه الأحداث من خلال وصفها أنها نادرة الحدوث، إثارة الشكوك حول الوقائع، وإلقاء اللوم على الجانب الآخر... كان عليّ رؤية هذا الأمر مرات قليلة قبل أن أدرك مدى ضعف الفلسطينيين في معالجة حادثة إعدام مجتدي الاحتياط الإسرائيليين من خلال العلاقات العامة. تخيل

وجود ماكينه علاقات عامة فلسطينية احترافية كما هو الحال في إسرائيل، وسياسيين فلسطينيين يتمتعون بالشعبية في الغرب، وناشطين في ميدان حقوق الإنسان أو ككتاب يعبرون على الفور عن مخاوفهم وتعاطفهم مع الأنسباء على السبي أن أن أو على صفحات الرأي الأميركية. كان باستطاعة الناطقين الرسميين القيام على الفور بشرح ما حدث في الأيام الثلاثة الأخيرة - العثور في اليوم السابق لعملية الإعدام على جثة شاب فلسطيني مشوهة في مستوطنة يهودية مجاورة - كانت ضحية هذا الاحتلال الإسرائيلي قد حُملت على مناكب حشود غفيرة إلى مئواها الأخير (بعيداً عن الكاميرات في رام الله) عندما سرت شائعة عن قيام مغوارين إسرائيليين بدفع المشيعين إلى داخل المدينة لارتكاب مجزرة جديدة؛ وكان الناس ممثلين غضباً لأن إسرائيل أقدمت في الأسابيع السابقة على قتل أكثر من خمسين مدنياً. كان باستطاعة الناطقين الرسميين التشديد على أن لا شيء يمكنه تبرير هذه الوحشية؛ ما الذي تجنيه السلطة الفلسطينية من عملية الإعدام هذه؟ ولم يكن الفلسطينيون يريدون الحصول سوى على ما حُوّلوا الحصول عليه وفقاً للأمم المتحدة والقانون الدولي: دولتهم الخاصة، وإنهاء أكثر من ثلاثة عقود من الاحتلال الإسرائيلي.

كان باستطاعة الحكومات الإسرائيلية معالجة الموضوع على هذا النحو، لكن السلطة الفلسطينية لم تقم بذلك أبداً. فما قاموا به بعد ذلك هو مصادرة كل مشاهد الإعدام على الفور؛ وهو أمر استجابت له كل فرق التصوير العربية. وتمكّن مراسل إيطالي من إرسال المشاهد إلى الخارج مما عرّضه لمضايقة السلطة وتهديداتها طوال أسابيع. قبل انتقالي إلى الأراضي المقدسة، سمعت عن اللوبي الإسرائيلي.

وفهمت أن باستطاعة الحكومة الإسرائيلية تحمّل تكلفة أعلى المحامين ووكالات العلاقات العامة في أوروبا وأميركا أجراً، وباستطاعتها الاعتماد على آلاف المؤيدين المثقفين جداً، وجماعات الضغط، والفروع المحلية لحزبي الليكود والعمل، والمنظمات الصهيونية العالمية، والمؤسسات الصهيونية الأصغر حجماً. وهناك معابد يهودية ناشطة ومجموعة من الحركات المسيحية الأصولية التي تؤثر إلى حد كبير في وسائل الإعلام المحافظة في أميركا.

بالرغم من ذلك، لم أدرك حينذاك مدى تقدّم السياسة الإعلامية الإسرائيلية. فقد كان السفراء الإسرائيليون وأعضاء جماعات الضغط يزورون أيضاً محررين ومنتجين في الشبكات التلفزيونية، ومحطات الأخبار التلفزيونية التي تنقل برامجها عبر الكابل، والصحف اليومية والأسبوعية الرئيسية في العديد من الدول الغربية، وكانت النوادي الأصولية التابعة ليهود ومسيحيين مؤيدين لإسرائيل في أميركا تدعو مراسلين ومعلّقين جيّدين للإلقاء محاضرات لقاء أجور مرتفعة. في البلد نفسه، يقوم موظفو موساد سابقون بإنشاء مركز إعلامي يتهم الصحافة الفلسطينية والعربية بشن حملة إعلامية معادية للسامية، ولأميركا، وللغرب. وتُنقل تقاريرهم حرفياً في الصحافة الهولندية بانتظام؛ في العواميد، والمقالات، والشؤون البرلمانية، دون ذكر المصدر أحياناً.

أخبرني مصنّع مشروبات غير كحولية ذات مرة أنه أجرى تحليلاً عن التفاوت في إسرائيل. لقد كانت طريقة تسويقية لقياس التفاوت بين قيمة منتج ما بصورة عامة وسلعتك بصفة خاصة. أولاً: هل تحب المشروبات الغازية؟ ثانياً: هل تحب البيبسي؟ فكل من يُجيب بنعم عن السؤال الأول وبلا عن السؤال الثاني يكون سريع التأثير بحملة إعلانية. وأخبرني رجل الأعمال بأن لائحة زبائن الشركة التي تُعنى بالأبحاث التسويقية

تتضمن زبوناً حريصاً على البقاء مجهول الهوية. وبعد الإصرار، عرف من هو: كان جهاز العلاقات العامة الإسرائيلي قد كلف مجموعته الخاصة ومجموعات معيّنة في الغرب بإجراء تحاليل عن التفاوت. كانت الأسئلة المطروحة، ما رأيك بدولة إسرائيل؟ ما رأيك بهذه الحكومة بالتحديد؟ واستُخدمت النتائج في الحملات - على سبيل المثال - لدعوة أعضاء مختارين من البرلمان، رؤساء تحرير، محررين، معلّقين، أعضاء في نقابة العمال، أو قادة طلابيين، لزيارة إسرائيل.

هكذا كانت تسير الأمور، وأعطى الاستثمار النتائج المرجوة. وأعلنت وكالة الأنباء الفلسطينية، وفا - ووكالات أبناء أخرى - ذات مرة أن الطائرات الإسرائيلية تُلقِي حلويات مسمّمة من الجو. لم تقدّم الوكالة أي دليل، وانطلقت ماكينة العلاقات العامة الإسرائيلية بسرعة مذهلة. ولم ترسل للمراسلين فحسب سجلات سوداء تُظهر أن هذا النوع من الدعاية بعيداً كل البعد عن المألوف، بل لأعضاء من البرلمان الهولندي أيضاً، ولمحررين ولصحفيين. وكانت هناك تحذيرات فلسطينية رسمية بقيام الجيش الإسرائيلي باستخدام يورانيوم مستنفذ، وغازات سامة، ومواد مُشعّة؛ وبث التلفزيون الفلسطيني خطباً دينية قورن فيها اليهود بالسعادين والخنازير؛ وتضمنت الكتب المدرسية الفلسطينية فقرات معادية لإسرائيل.

كان يتعيّن على الحكومة الإسرائيلية جمع هذه المواد من قبل وانتظار الوقت الملائم لاستخدامها. وكان الخبر الذي نشرته وفا عن الحلويات المسمّمة مثالياً؛ لقد كان بالنسبة إلى الصحفيين، والمحررين، وأعضاء البرلمان، أساساً يستندون إليه لا لذكر هذا المثال عن التحريض فحسب، بل للاستنتاج منه أيضاً؛ كيفية تعليم الفلسطينيين الكره لإسرائيل.

كان عملاً احترافياً وشديداً الفعالية. ولكن عدداً قليلاً من الكتب المدرسية الإسرائيلية يتجنب ذكر واقع أن الفلسطينيين يعيشون هناك قبل تأسيس دولة إسرائيل، ويريد بعض الحاخامات إحراق مسجد الأقصى، ووصف جنرالات إسرائيليين الفلسطينيين بأنهم ورم سرطاني، ونادى الحزب اليهودي المُغالي بصحة معتقده بإبادة العرب. كانت هناك مواد إخبارية كافية لحملة طويلة الأمد يمكن من خلالها ربط ملاحظات تحريضية مماثلة بأسئلة مثل، «ألهذا السبب قتل جنودهم العديد من الفلسطينيين؟» و«هل تريد إسرائيل السلام حقاً؟»

لكن السلطة الفلسطينية لم تُصدر أي لوائح سوداء. وقد يضع المراسلون بين حين وآخر تقارير عن الحملة الدعائية الإسرائيلية، ولكن هذه التقارير تبقى هامشية. والحرب الإعلامية قائمة على القدرة على تسويق الأفكار؛ إن مدى تمكّنك من إيصال رسالتك إلى المجموعة المعنّية هو بأهمية الرسالة عينها.

كانت الحكومة الإسرائيلية أفضل بكثير في ممارسة اللعبة. ففي أثناء الانتفاضة الثانية، كان هناك تناوب بين العنف وفترات الهدوء. وخرقت حماس وقف إطلاق النار لمرات قليلة، ولكن كانت هناك أسابيع من وقف إطلاق النار حتى قامت إسرائيل بتصفية فلسطيني على درجة عالية من الأهمية. وسرعان ما يلي عملية قتل مماثلة فيض من النشرات الإعلامية حول الحذر المتزايد والتدابير الأمنية الإضافية. كان الأمر ينجح أحياناً، وتورد النشرات الإخبارية عبارة «خوف إسرائيل بعد عملية التصفية» بدلاً من «الاغتيال الإسرائيلي يضع حداً لوقف إطلاق النار».

كان شمعون بيريز المتمتع بشعبية كبيرة يقوم أحياناً بجولة إعلامية.

فلم يكن يلتقي المراسلين الهولنديين الأحد عشر في إسرائيل بل ينتقل إلى هولندا حيث يُجري محررون محلّيون المقابلات معه من دون أن يكون لديهم الكثير من الأسئلة الصعبة لطرحها عليه. كانت الأسئلة الاستطراذية التي تحمل طابعاً انتقادياً مستحيلة بأي حال لأنه يعطي عشر دقائق فقط لكل وسيلة إعلامية.

في بداية الانتفاضة الثانية، غالباً ما كان الجيش الإسرائيلي يوجه أسلحته إلى قاذفي الحجارة مستهدفاً المنطقة الواقعة فوق الخصر. فُقتل عشرات الأطفال، وجُرح المئات. تمكن أحد العاملين في جهاز العلاقات العامة الإسرائيلية من الإجابة عن السؤال «بأي حق تستخدم إسرائيل هذا القدر من العنف ضد قاذفي حجارة مراقبين يعبرون عن احتجاجهم على الاحتلال؟» بسؤال آخر «لماذا يعرض الأهالي الفلسطينيون أبناءهم لهذا الخطر؟» وكانت الإجابة موجودة في السجل الأسود: هم يكرهوننا؛ انظر إلى ما بلغوا إليه بسبب التحريض.

غالباً ما يتدمر الفلسطينيون من وسائل الإعلام الغربية، وقد تمكنت من فهم السبب في نهاية المطاف. ولكنني كنت أرى سبباً مختلفاً عن السبب الذي يعتبرونه صائباً في شأن تحريف الحقائق. فالعديد من الفلسطينيين يشتبهون بمؤامرة يهودية؛ قوى إجرامية تسيطر على وسائل الإعلام وراء الكواليس. لقد دخلنا في نقاشات محمومة حول هذا الأمر من دون أن أتمكن على الدوام من الخروج منها بدُعاة على سبيل المثال، من خلال النظر إلى ساعتني والقول، «هل يمكنني إجراء اتصال هاتفي؟ إن مديري السري في إسرائيل سيُملي عليّ مقالة الغد».

لم يكن باستطاعتي رؤية أي مؤامرة؛ كان الأمر أشبه بعدد من الأوراق الراححة التي لعبتها الحكومة الإسرائيلية. فهذه الأخيرة لا

تملك مزيداً من الموارد فحسب، بل تستفيد أيضاً من واقع أن الغربي العادي، أيّاً تكن ميوله السياسية، يتعاطف مع إسرائيل أكثر من سواه. لم يكن هذا الأمر مرتبطاً بواقع أن إسرائيل هي دولة يهودية بل دولة غربية. فإسرائيل تنتج منشورات أدبية غربية وأفلام، ولديها موسيقيون كلاسيكيون شهرون، وتشارك في مباريات دوري أبطال أوروبا في كرة القدم، وتنضم إلى مباراة الأغنية التي تنظمها يوروفيجن. ويبدو الأوروبيون المحليون أقرب إلى الإسرائيليين منهم إلى الفلسطينيين، ولهذا السبب يسهل فهم المعاناة الإسرائيلية. وغالباً ما تُبرز صفحة الرأي في ذي نيويورك تايمز مقالات تناول مستوطنين يهوداً يعيشون في ظل الإرهاب. «الجميع يتبعون حمية هنا لأن وزنهم هو الأمر الوحيد الذي يمكننا التحكم به»، كتب أحد المستوطنين. وهذا النوع من التلميحات يعرفه القراء الغربيون الذين يتبعون حمية أيضاً من وقت لآخر.

أظهر الفلسطينيون معاناتهم بطرق أخرى. لقد طلبت منظمة إغاثة في غزة من الفلسطينيين والمغتربين الغربيين أن يختاروا لها صورا فوتوغرافية ترمز إلى الانتفاضة. فاختار الغربيون أمهات في ملابس حداد، وأطفالاً يبكون، وممتلكات مدمرة؛ واختار الفلسطينيون رجالاً في مسيرة مُطبقين قبضات أيديهم. غالباً ما كنت أعطي التظاهرات الفلسطينية التي كانت كارثية لجهة تناولها من قِبَل قسم العلاقات العامة: والد يصرخ بغضب، «هل هذا عدل؟ هل هذا عدل؟ كانت ابنتي في الحادية عشرة من عمرها! هل هذا عدل؟» - والجثة مرفوعة عالياً، وهناك طلقات نارية في الهواء، ويعلو الصياح...

أما الإسرائيليون اليهود فيدفنون موتاهم عادةً من خلال ممارسة شعائرهم الدينية بهدوء ومرافقة المشيِّعين المتحبين وقيام أحد أفراد العائلة بتأبين المتوفي برباطة جأش. فالغربيون يفهمون هذه المشاهد.

ولكن كيف يكون باستطاعة المراسلين إظهار الأسى الكامن وراء حالة الفوضى الهستيرية التي غالباً ما ترافق مآثم الفلسطينيين؟ فالعرب يعتبرون عن أساهم في منازلهم بعيداً عن الكاميرات.

تملك إسرائيل ورقة رابحة أخرى، وقد لاحظت الأمر عندما كنت عائداً إلى المنزل وأناقش الوضع مع الزملاء. كنت أريد على الدوام الدفاع عن إسرائيل في أثناء هذه المناقشات معتمداً كلمة واحدة: الهولوكوست. فيفهم معظم الأشخاص على الفور وإلا أضفت جملتين تفسيريتين، «طيلة أكثر من ألفي عام، تعرّض اليهود للتمييز في المعاملة والاضطهاد، وارتكب غير اليهود المجازر في حقهم وانتهى بهم الأمر في غرف الغاز. من الواضح أنه لا يمكن للشعب اليهودي أن يكون بأمان إلا عندما تكون لهم دولتهم الخاصة بهم، وهل هناك مكان منطقي أكثر من المكان الذي كان بمثابة دولة يهودية منذ أكثر من ألفي عام، وفقاً للتوراة؟»

كنت أحاول بعد ذلك شرح وجهة النظر الفلسطينية، ولكن عشر جُمل لم تكن كافية أبداً. لم يكن الهولوكوست أمراً أساسياً بالنسبة إليهم بل التدخل الغربي في منطقتهم منذ قرون طويلة. لقد بدأ الأمر مع الحروب الصليبية، وتلا الاستعمار ذلك، وتُثمَّ بإنشاء دولة غربية وغربية - إسرائيل - في قلب العالم العربي وعلى حساب الشعب الذي كان مقيماً هناك.

فالفلسطينيون يواجهون عقبة عدم حضور الحروب الصليبية والاستعمار - في الوعي الجماعي الغربي - كما هو حال الهولوكوست، وأدركت أنه ليس باستطاعتي نقل وجهة النظر الفلسطينية إلا بقلب الأمور. تخيل أحقق يغدو رئيساً لأميركا فيجمع ويقتل المتحدرين من

أصل فريزي [فريزيا هي مقاطعة في هولندا تتمتع بحكم ذاتي جزئي، وتملك لغتها الخاصة]، فتقع مجزرة لا يمكن تخيلها. بعد ذلك، وعندما يسقط أخيراً النظام المعادي للفريزيين، من الواضح أن يكون الفريزيون الناجون غير راغبين في العيش في أميركا. فتوضع خطة لمنح الفريزيين دولتهم الخاصة، وهل هناك أفضل، من الناحية المنطقية، من المكان الذي كان فريزياً في ما مضى وفقاً لوثائق قديمة. وبالرغم من المعارضة الهولندية، يقترح مجلس الأمن لصالح تنفيذ المخطط، ويتوافد الناس من أصل فريزي من مختلف أنحاء العالم إلى الدولة الفريزية الجديدة التي تُغدق عليها أميركا المساعدات المالية. فاعترض باقي الشعب الهولندي، قائلين إنه لم يكن لديهم أبداً أي مشكلة مع الفريزيين. ولم يكن الرأي العام العالمي يُظهر تعاطفاً وطيداً مع الفريزيين، لذلك تمّ التقدم باقتراح: سيصبح نصف البلد فريزياً، وباستطاعة الهولنديين العيش في النصف الآخر.

فلا يوافق الهولنديون على ذلك، وتقع حرب يكون النصر فيها للفريزيين بمساعدة أميركية ويسقط القسم الأكبر من هولندا في أيدي الفريزيين. ويتدفق مئات آلاف اللاجئين غير الفريزيين إلى المدن الهولندية الرئيسية، وتزداد حدة التوتر بسبب قيام مجموعات صغيرة من الهولنديين بشن حرب عصابات ضد الفريزيين. ويصرخ الناطقون بلسان الفريزيين إرهاب على شاشة السي أن أن و«إنهم يقتلون فريزيين أبرياء!»

في غضون ذلك، يبدأ الشعب الهولندي بالتساؤل عن أي نوع من القادة هم قادتهم. ويلى ذلك انقلاب عسكري، وعندما تحاول هولندا الحصول على أسلحة من الخارج، تقوم الدولة الفريزية الفتية بالسيطرة على ما تبقى من هولندا إضافةً إلى أجزاء من ألمانيا وبلجيكا في هجوم

وقائى. وتفرّ حشود من الشعب الهولندي غير الفريزي عبر الحدود إلى ألمانيا وبلجيكا حيث تالت الضربات الموجّهة إليهم: «علينا منع الفريزيين من احتلال بلدنا». في غضون ذلك، يُحكم الجيش الفريزي قبضته على المقاطعات الهولندية المحتلة، ويخنق الاقتصاد، ويصادر المناطق الأكثر جمالاً لإقامة المستوطنات عليها ويشقّ طرقاً خاصة بين المستوطنات وفريزيا. ويلى ذلك عملية سلام، ويُعرّض على هولندا ثلاث مقاطعات من أصل اثنتي عشرة مقاطعة هولندية: ليمبرغ، جزء من براينت، وإحدى الجزر الزيلندية. ولا يمكن دعوة هذه الأجزاء المعزولة هولندا، ولا يُسمح لهولندا بامتلاك جيش، ويجب أن تتولى قوات فريزية مهمة مراقبة كل الحدود.

إن إحدى الصعوبات غير المتوقعة لعمل المراسل في الأراضي المقدسة هي أن يصبح تهكمياً، لذلك قمت بإلغاء عبارة «على صعيد العلاقات العامة، إن الهولوكوست هو كالذهب بالنسبة إلى إسرائيل» من مقالة تناولت وجهة النظر الفلسطينية من النزاع. لا يمكنك وضعها في الصحيفة بهذه الطريقة لأنك قد تجد نفسك في مواجهة أحد الناجين اليهود من حملة الاضطهاد إذا ما قرئت وفُهمت بشكل غير صحيح. بالرغم من ذلك، إن رابط إسرائيل التاريخي مع الغرب منحها نقطة انطلاق لحملاتها، وكنت أرى أسبوعياً مثلاً على ذلك. فمن حين لآخر، تقوم دولة عربية بشراء صواريخ من الصين أو روسيا، فتُعقد مؤتمرات صحافية مطوّلة ومختصرة في إسرائيل على الفور. «يمكن لهذه الصواريخ أن تطال تل أبيب!» - يشير المعنى الضمني إلى وجود تهديد بحدوث هولوكوست آخر. في غضون ذلك، تتلقى إسرائيل من أميركا بلايين الدولارات من «المساعدات العسكرية»، مانحةً إياها قوة تدميرية تفوق

قوة جيرانها مجتمعين أضعافاً مضاعفة، دون أن تُعقد في الجانب العربي أي مؤتمرات صحافية وإن مختصرة.

لكن الإشارة المستمرة إلى المعاداة الماضية للسامية قد تُظهر إسرائيل بمظهر المستضعف، دولة معرضة للخطر تريد السلام ولكنها مُحاطة بـ «جماهير عربية يريدون رمي كل اليهود في البحر». في هذه الصور، يبدو أن الفلسطينيين والعرب يكتنون الكره لليهود على غرار النازيين. فكل ما تريده إسرائيل هو «مكان تحت الشمس»، ويتعين على الجيران أن يثبتوا أنهم لا يكتنون الكره لليهود لأن هذا الكره يجعل الاقتباس «إنهم يقتلون يهوداً أبرياء» مؤثراً في النفوس. فـ «إنهم» تعني أن «كل الفلسطينيين مذنبون»؛ و«أبرياء» تعني أن «الحافز هو الكره»؛ و«يهود» تعني أن «الأمر غير مرتبط بالأسرائيليين أو الصهاينة؛ إنها مجزرة أخرى بحق اليهود».

كانت رسالة قوية إلى أقصى حد، وبإمكان المرء أن يسمع في العديد من التقارير المنقولة عبر وسائل الإعلام الغربية أصداء ما معناه أن إسرائيل دولة مُستضعفة مُحبة للسلام. ولكن السجلات تُظهر أن مجموعات يهودية ارتكبت هجمات إرهابية دموية في أثناء الاحتلال البريطاني الاستعماري في حرب العام 1948 وما بعدها. لقد قتلوا مبعوثاً للأمم المتحدة، وحاولوا تفجير وزارة الخارجية البريطانية، وطرّدوا فلسطينيين من قراهم على نطاق واسع باستخدام العنف أحياناً. وتصف وسائل الإعلام الغربية هذه المجموعات في الغالب بأنها «منظمات يهودية سرّية». وفي الأعوام 1956 و1967 و1982، هاجمت إسرائيل أحد جيرانها، ولكن هذه الاجتياحات توصف أحياناً بأنها هجمات وقائية. ونشأ عن احتلال جنوب لبنان حزام أمني كانت تقيم فيه قوات الدفاع الإسرائيلية. فهذا الجيش لا يهاجم بل يتحرك،

أو يدخل، أو يتدخل. وتقوم القوى الأمنية بعمليات يتم التخلص فيها من بعض العناصر. والاعتقالات هي ضربات عسكرية وقائية، والخسائر في صفوف المدنيين هي أخطاء فادحة.

هناك الكثير من التأفف في صفوف الصحفيين بسبب استغلال الحكومة الإسرائيلية للهولوكوست، ولكن كيف يمكنك أن تطلب من إسرائيل تجاهل أكبر كارثة في تاريخ الشعب اليهودي؟ تخيل حصولك على ورقة رابحة تمكّنك من التعريف بنفسك في تصريح فيديو لمدة عشر ثوانٍ أنك مُستضعف معرّض للخطر، ويمكنك بواسطته حذف كل الانتقادات التي تعتبر أنك من أسوأ أنواع الأوغاد. ستقوم باستخدام هذه الورقة الرابحة بالتأكيد لا سيما إذا ظننت أنك تخوض صراع البقاء.

إنه أمر منطقي تماماً، ولكن الرابط الثقافي والتاريخي بين إسرائيل والغرب أدى إلى نشوء مكنم ضعف في مبدأ العرض لآراء طرفي النزاع المتّبع من قبل الصحافة الموضوعية. ولكن ما الذي يمكن القيام به إذا حقق فاصل إسرائيلي تلفزيوني لمدة دقيقة واحدة ما لم يحققه فاصل فلسطيني تلفزيوني في المدة نفسها؟

في الأراضي المقدسة، قمت بتغطية الفلسطينيين، مما يعني رفع الكثير من التقارير عن الأحداث الدائرة في حينه. لقد زرت عائلة فلسطينية كان ابنها المصاب بإعاقة عقلية قد أردى بطلق ناري من قبل قناص إسرائيلي بسبب فرض منع التجوّل؛ ولكن محاولة شرح ما جرى لابنهما لم يُجدِ نفعاً. وزرت عائلات جُرفت منازلهم بسبب تعرّض مستوطنات يهودية لإطلاق نار من الحيّ الذي يقيمون فيه، واستمعت إلى سيدة المنزل تقول بترنح: «أذهب وتحدّث إلى الجيران، يا بنيّ، حالهم أسوأ من حالي بكثير. لقد منحنا اليهود خمس دقائق لإخراج حاجياتنا

من المنزل، وهكذا تمكنا من الاحتفاظ بذهبنا وبأدوية الجدّ». في رام الله، التقت محترفين بأجهزة الكمبيوتر يُعدّون مُلصقات لتكريم شهداء وضحايا الانتفاضة. لقد كانوا هناك يفكرون في صور القتلى والمسجد الأقصى، وبُجمل تحمل تواريخ الوفاة وأسبابها، وبآية قرآنية أحياناً. «إذا جعلنا صورة المسجد الأقصى أصغر بقليل، تمكنا من وضع الآية في المُلصق».

في قلقيليا، تسكّعت مع طلاب فلسطينيين في تكنولوجيا المعلومات. لم يكن باستطاعتهم الوصول إلى الجامعة في رام الله بسبب الحصار العسكري الإسرائيلي؛ كانوا يقضون وقتهم في الاطلاع على تفاصيل بطاقات إئتمان المستوطنين على أجهزة الكمبيوتر. في القدس، تحدثت إلى فلسطينيين يعيدون بيع سيارات سُرقت من المستوطنين الذين أبلغوا شركات التأمين أنها مسروقة. تتم قيادة السيارات إلى مدينة فلسطينية لا يُسمح للشرطة الإسرائيلية بدخولها، وتُباع هناك بعد تزويدها بلوحات جديدة. في بيت لحم، قال لي حفّار قبور إنه يكاد لا يستطيع تلبية الطلبات، وتناولت شرباً مُسكرًا في غزة مع رجل أعمال فلسطيني كان قد نهب مستوطنون مصنعه ودمّرتة الجرافات بعد ذلك... إضافةً إلى إسبلاته التي كان جواده لا يزال في داخلها.

لقد حققت تلك الأنواع من القصص التي تحظى باهتمام الناس هدفها، ولكن الأخبار السياسية كانت أساسية في النزاع القائم، ونقل وجهات نظر الفريقين جزء من ذلك. فعندما كنت أشاهد السي أن أن، لم يكن باستطاعتي التهرب من الانطباع السائد أن الناطقين الرسميين الفلسطينيين يفوّتون الفرص لشرح قضيتهم. لقد رأيت ذلك يحدث مع كل تطور سياسي: خطاب حالة الإتحاد من واشنطن، الانتخابات

الإسرائيلية، توقف محادثات السلام واستئنافها... ناطق رسمي إسرائيلي مثقف يفرض بالقوة وجهة نظر واحدة: إسرائيل تريد السلام ولكنهم يقتلون يهوداً أبرياء؛ ومن ثم الناطق الرسمي الفلسطيني: «من الواضح... أن الدولة الفلسطينية... لن توافق أبداً على الجرائم الإسرائيلية الهمجية... المرفوضة كلياً». فهذه التنديدات لا تُجيب عن الأسئلة المطروحة وتترك المُشاهد في جوٍّ من الارتجالات المُربكة والافتباسات غير المفهومة حول الشرعية الدولية.

في البدء، ظننت أنه ليس باستطاعة الفلسطينيين تقديم أداء أفضل. ولكنني غالباً ما كنت أتحدث إلى فلسطينيين بارزين من خارج السلطة لأجل قصصي التي تحظى باهتمام الناس، أطباء، ناشطين في ميدان حقوق الإنسان، رجال أعمال، أكاديميين. لقد كان هؤلاء أشخاصاً موهوبين، واسعي الاطلاع، فصحي اللسان، وتهكميين. لماذا لم أكن أرى هؤلاء الأشخاص على السي أن أن؟ فقررت أن أسألهم عما إذا كانوا يدركون مدى سوء صورتهم في وسائل الإعلام، وعن سبب عدم مقياسهم بأي شيء حيال ذلك.

كانوا سعيدين بالتحدث عن الأمر، كما لاحظت، وكانت إجاباتهم تبدأ على الدوام بثلاث نقاط: مواردنا المالية أقل من موارد إسرائيل؛ الغريون عرقيون لأنكم تعتبرون وفاة الإسرائيلي أكثر أهمية من وفاة الفلسطيني؛ وتسمحون لأنفسكم بأن يتم ابتزازكم بسبب الهولوكوست. كنت أستمع إليهم بهدوء، وألاحظ أن إجابتهم لا تشرح سبب عدم إفادة الفلسطينيين إلى أقصى حد من الفرص المتاحة لهم، فأسألهم بعد ذلك، «لماذا لا أراكم على السي أن أن بدلاً من الناطقين بلسان السلطة الفلسطينية؟»

كانت هناك في الغالب تنهيدة عميقة يليها إعصار من الإحباط.

«سلطتنا لا تتمتع بالكفاءة ولا تريد التحسن. إنها لا تتمتع بالكفاءة لأن عرفات يمنح كافة المناصب الرئيسية لأصدقائه المقرّبين في منظمة التحرير الفلسطينية»، هو الجواب الذي أعطاه كل فلسطيني بارز تقريباً. لقد عاش هؤلاء المقرّبون كلاجئين جوالين طيلة عقود من الزمن، وخبراتهم محدودة جداً في ما يتعلق بالديمقراطيات الغربية. لذلك يبدأ الناطقون الرسميون على السي أن أن بالتكلم في بادئ الأمر، وعلى الدوام، عن القرار 47 وأياً يكن العدد في خانة الأحاد، وعن «الشرعية الدولية». ويدرك صانعو السياسة الغربيون أنهم يسعون إلى السلام بالتوافق مع قرارات الأمم المتحدة، ويستهدف الناطقون الرسميون الفلسطينيون بكلامهم صانعي السياسة الغربيين هؤلاء. ولا يستطيع ذوو المناصب الرفيعة التابعون لعرفات أن يتخيّلوا قيامك بشق طريقك في نظام ديمقراطي من خلال إقناع الجماهير الذين انتخبوهم.

لكن المشكلة الحقيقية تكمن في مكان آخر، شدد شركاتي في الحوار. فالسياسة الإعلامية غير الناجحة هي نتيجة مباشرة لتسلط السلطة الفلسطينية. ومن الجانب الإسرائيلي، يريد السياسي الإسرائيلي أن يعاد انتخابه؛ وبعد ذلك، يريد أن يبقى في الذاكرة. لذلك، فهو يحاول، أو هي تحاول، إرضاء أكبر عدد ممكن من الناس، ومن شأن سياسة إعلامية ذكية المساعدة على تحقيق ذلك. ولكن أولوية عرفات الوحيدة عدم إقصائه عن الحكم. وإذا صودف ظهور امرأة فلسطينية متعاطفة وطيقة اللسان بالإنكليزية على شاشة السي أن أن، يرغب المشاهدون الغربيون في معرفة المزيد عنها. فتسارع الصحف والبرامج التلفزيونية إلى إجراء مقابلات معها، ويؤدي السياسيون اليمينيون عن رغبتهم في التقاط صور فوتوغرافية معها. وعندما يزداد نفوذها، تصبح تهديداً للقائد. لذلك، همّشت حنان عشراوي ذات الشخصية المحبّبة؛ امرأة تمكنت من

الدفاع عن وجهة النظر الفلسطينية بفصاحة في أوائل التسعينيات. ولهذا السبب، حالت السلطة الفلسطينية دون قيام تظاهرات شعبية، سلمية، وذات جاذبية إعلامية، ضد الاحتلال؛ قد يرتدون على قائدهم احتجاجاً على تهمة عشراوي.

«ناطقونا الرسميون غير معنيين باعتماد سياسة إعلامية فعالة بل بإبقاء القائد سعيداً»، أقر الفلسطينيون غير المنتسبين إلى دوائر السلطة، صارفين أسنانهم. في المقابل، تدفع الدولة لقاء تعليم أبناء وبنات هؤلاء الناطقين في أفضل الجامعات الأميركية، وتحصل عائلاتهم على رعاية أفضل المستشفيات، وينعمون بكافة أنواع الامتيازات، ويصبحون ذوي شهرة عالمية. فهم قد يخسرون كل هذه الأمور إذا قاموا بعملهم على أفضل وجه وباتوا يشكلون تهديداً على القيادة. ففي أعلى مناصب السلطة الفلسطينية، ما يهّم هو الولاء وليس المنافسة.

لقد كنت أغفلُ أمراً طوالت تلك الفترة؛ لدى الفلسطينيين حكم كما هو الحال في العالم العربي. ولم يكن القمع الممارس أسوأ من القمع الذي يشهده جيرانهم، ولكن القائد وأصدقاء المقربين كانوا فوق القانون ويهتمون بمصالحهم الخاصة في المقام الأول.

فالسلطة الفلسطينية أنشئت بأموال أوروبية ومساعدة أميركية بعد اتفاقية سلام أوسلو عام 1993. وكانت إسرائيل قد مدت يد العون أيضاً، والسبب مفهوم. وكل بضع سنوات، كانت تعلق الحكومة الجديدة المنتخبة في إسرائيل كافة المعاهدات، أو تعيد تفسيرها، أو تضع شروطاً جديدة لتنفيذها... وغالباً ما كانت عملية السلام تركز على المنحى المنطقي للأمور. ففي إسرائيل، كان باستطاعة حزب العمل مخاطبة حزب الليكود والقول إن مطالب الفلسطينيين غير واقعية. «انظروا كم

نتعرض للضغط من قِبَل المعارضة؛ لو عاد الأمر لهم لحصل الفلسطينيون على أقل مما حصلوا عليه بكثير». وعندما تسلم الليكود الحكم، كان قائد الحزب يشير إلى مؤيديه ويقول إن ليس باستطاعته تقديم مزيد من التنازلات وإلا ثارت عليه نائرة حزبه.

لم تتمكن السلطة الفلسطينية أبداً من رفض مطلب إسرائيلي مماثل بسبب عدم وجود معارضة سياسية رسمية. كان الأمر منطقياً تماماً، وفهمت أكثر فأكثر سبب رغبة إسرائيل والحكومات الغربية في التعامل مع هذا النوع من الحكام، بالرغم من مواقفها المُعلنة من هؤلاء: يسهل التحكم برجل واحد قوي وممارسة الضغط عليه أكثر منه بقائد منتخَب ديمقراطياً. وعندما يخوض هذا الرجل حرباً إعلامية معك، فهو لن يرسل أفضل رجاله إلى أرض المعركة.

الفصل العاشر

احتلال دموي

كان العمل في الأراضي المقدسة رائعاً لأن المصالح الهولندية فيها كبيرة جداً. ولكن، كان لهذا الأمر عيوبه أيضاً، وإذا نسيت هذه العيوب فكل ما عليّ القيام به هو فتح صفحة الرسائل أو ولوج موقع الضيوف في صحيفة أن آر سي أو محطة أن أو أس التلفزيونية.

فالناس يعبرون عن آرائهم بحرية تامة في هذين الموقعين، وليس بالإمكان حذف ما يزعم الآخريين. في العادة، كنت أعطي أخبار الفلسطينيين في المناطق المحتلة، في حين يقوم زميلي في تل أبيب بتغطية أخبار الإسرائيليين اليهود وملايين الفلسطينيين داخل إسرائيل؛ العرب الإسرائيليين. وبصورة عامة، كنا نشكل ثقلًا موازنًا لبعضنا بعضاً، ولكن زميلي غادر في إجازة في إحدى المراحل. كنت قد كتبت ثلاث قصص عن معاناة الفلسطينيين ظهر اثنتان منها في الصفحة الأمامية بسبب ندرة الأحداث. فلماذا لا أجازف بوضع هذا التقرير:

إذا أردت أن تعرف ما الذي يتسبب به الإرهاب لإسرائيل، عليك الذهاب بالحافلة إلى المدينة الأكثر تعرضاً للهجمات، القدس. يفتح الباب الهيدروليكي مُحدثاً هسهسة، وتصدد الدرجات

الشديدة الانحدار وتشعر على الفور بأن الجميع ينظرون إليك. هل هو عربي؟ هل يرتدي معطفاً طويلاً أم يحمل حقيبة؟ ويتعمد سائق الحافلة طرح سؤال عليك ليعرف ما إذا كانت لديك لكنة عربية أم لا.

فتجلس تحت لافتة كتب عليها: «ممنوع التدخين. ممنوع رمي النفايات من النافذة»، ومُلصق يقترح التالي: «لماذا لا تذهب في رحلة بالحافلة إلى حديقة الحيوانات!» وانطلقت الحافلة واسترخت الوجوه لدقائق قليلة. سيبدأ السبت - بعد ساعتين والجميع يقومون بالتسوق - وقت مثالي لشنّ هجمة. ومررنا أمام سوق البائعين الحوَالين الذي استُهدف من قبل، ويقوم الآن عملاء قلقون مزوّدون بأجهزة لكشف المعادن بحراسة شوارعه حيث استُهدفت مجموعة من المتشددين الدينيين اليهود الشبان بانفجارين متتاليين في ليلة باردة من أوائل آذار/ مارس، عند تقاطع الطرق مع بن يهودا.

توقفت الحافلة مرة أخرى. كانت اثنتا عشرة حافلة قد تعرضت للتفجير خلال الانتفاضة، فقتل ثمانية أشخاص، وجرح خمسمئة آخرون، وتأذت مشاعر آلاف ممّن شاهدوا وقوع هذه الانفجارات. وعندما سألته عما إذا كان يُبقي أنظاره على من يستقل الحافلة، أجاب الجندي مناحيم، «دائماً. أنظر لأرى ما إذا كان الشخص يبدو مثيراً للارتياح، متوتراً، أو متحاشياً للركاب». ولكن الانفجار هو انفجار، حتى إن مناحيم يُقرّ أن الإرهابي يملك الكثير من الوقت للضغط على الزر في الثواني القليلة المطلوبة لاعتقاله. ويغدو الإرهابيون أكثر ابتكاراً فيتنكرون بملابس متشددين دينيين يهوداً، أو جنود، أو هيبيين بشعرهم المبيّض وقيثاراتهم التي تحتوي على القنبلة. ومنذ دخول الشهداء ميدان ارتكاب التفجيرات، بات

يتعيّن عليك مراقبة النساء أيضاً. أضف إلى ذلك أن ربع اليهود الإسرائيليين على الأقل هم من أصل شرق أوسطي، لذلك، فهم يشبهون العرب كثيراً وهذا ما يزيد الخوف الذي يشعر به الركاب. لماذا يستمرون بركوب الحافلة؟ يقول مناحيم إن الجيش يفرض عليه ذلك أيضاً. «لم يكن يُسمح لنا بإيقاف السيارات للتنقل مجاناً لأنه يجب على الحياة أن تستمر كما لو أنه لا وجود لأي هجمات، وإلا فاز الإرهابيون». ولكن العديد من الإسرائيليين يستقلون الحافلة لسبب آخر. فالبلد يمر بأسوأ أزمة اقتصادية. ويشترى الأغنياء سيارات لأبنائهم وبناتهم، ويعطونهم مبالغ إضافية من مصروف الجيب كي لا يُضطروا للعمل في نهاية الأسبوع في مطاعم بيتزا أو أماكن خطرة أخرى. ونشرت الصحافة الإسرائيلية مؤخراً لائحة بسياسيين بارزين أرسلوا أبناءهم إلى برّ الأمان في جامعات أميركية. كانت لائحة طويلة.

إنها الحماية الحقيقية الوحيدة - مغادرة البلد. «العمليات الفلسطينية هي رسالة لإخبار اليهود في العالم، ابقوا حيث أنتم، لا تذهبوا إلى إسرائيل»، يذكرنا حزب الله على قناته الفضائية بعد كل هجوم تقريباً. ويعبّر القيادي في حماس، محمود الزهار، عن ذلك ببساطة جارحة: «يُفترض بالانفجارات أن تزرع الخوف الشديد في نفوس الإسرائيليين مما يدفعهم إلى المغادرة».

المغادرة هي أمر لا يقوم به العديد من الإسرائيليين، ولكنهم خائفون: «أشعر بالذنب كلما غادرت البلد لأن عريباً آخر يبقى فيها»، قال شاب يفضل عدم البوح باسمه. «ولكن ما الذي يُفترض بي القيام به؟» ولدى وصول الحافلة إلى المكان المقصود، سأل مناحيم، «هل أنت خائف؟» وعندما أجبته بالإيجاب، أوماً

برأسه ببطء، وضرب يده على بندقيته بطريقة معزّية، «لا سبب للخوف». كانت ابتسامته متفهّمة ولكن عينيه بقيتا مسمّرتين على باب الحافلة.

احتلت هذه المقالة الصفحة الأمامية أيضاً، واعتبرت أن حالة التوازن أُعيدت إلى التغطية. ومع ذلك، كان رأي نادي الرسائل الموالية لإسرائيل *take-a-pen.org* مختلفاً. إنهم يُيقون أنظارهم على كافة وسائل الإعلام ويشجعون الأعضاء على كتابة رسائل غاضبة. فهذا ما قالوه:

يا أصدقاء *take a pen*. (...) ما رأيكم بهذه الجملة - «إن الحماية الحقيقية الوحيدة ضد الهجمات الإرهابية تتمثل بمغادرة البلد؟» ونظراً إلى أن هذه العبارة ليست اقتباساً لراكب حافلة، أعتقد أنه يُبدي رأيه الخاص المتفق تماماً مع هدف حزب الله وحماس. عنوان البريد الإلكتروني لـ أن أر سي: *Opinion@nrc.nl*. إليكم تحياتي.

تلي الرسالة اسم الشخص الذي يحاول ممارسة الضغط. وكان رد الفعل التالي الموجّه من أحد الأعضاء لـ أن أر سي:

سلام، أرى أنكم متأثرون بهذا الهراء الغبي أيضاً. ألم تفهموا الأمر أيها الزملاء؟ يجب على اليهود أن يغادروا. لماذا لا يفهم أولئك اليهود الأوغاد ذلك؟ فليرحلوا. لماذا لا يزالون عاجزين عن فهم ما أوضح لهم منذ حوالي 4.000 عام؟

كان بعض واضعي الرسائل شديدي العدا لدرجة أنني وجدت أنه يصعب عليّ أكثر فأكثر أن أتخيّل وجود أمور قيّمة يرغبون في قولها. ويذكّر تحليلهم المنطقي بالمنطق المتبع من قبل الأنظمة العربية: يُمنع انتقاد مجموعتنا لأن أعداءنا قد يستغلون ذلك، وكل من ينتقدنا يكون متميّماً للفريق الآخر. لقد ألقيت بعض المحاضرات في هولندا؛ في بعض

الأحيان، وبعد انتهاء المحاضرة، كان يقصدني أشخاص أنيقو الملبس، فصيحو اللسان. كانوا ينتظرون بتهذيب انتهاء الجيل الجديد من طرح ما بدا أنه وابل هجومي من الأسئلة أو يطلبون الحصول على أفكار عن كيفية قضاء إجازتهم القادمة في الأردن. ويحين دورهم بعد ذلك. «شكراً لمطالعتك، ولكن زوجي وأنا نواجه أحياناً مصاعب كبيرة في ما يتعلق بالأشياء التي تكتبها عن إسرائيل». أنت تحصل على إجاباتك الجاهزة، أما جوابي فكان: «هل أنتم منزعجون مما تقوم به إسرائيل أم من واقع أنني أكتب عن الأمر؟» وأحصل من ثم على نظرة محدقة خالية من أي تعبير؛ إنه واحد منهم.

كانت عمليات الشجب الصادرة عن المتعاطفين مع القضية الفلسطينية أموراً لا أميل إلى قراءتها أيضاً، ولا سيما إذا كانت مكتوبة من قبل أشخاص لا يتكلمون العربية أبداً. فمن باب السخاء أن نقول إن هناك 5 بالمئة من الفلسطينيين لا يجيدون إلا عبارة إسرائيل شر مطلق بالإنكليزية؛ فإذا كنت تهتم كثيراً بالفلسطينيين، اذهب وتعلم لغتهم لتعرف الأشخاص الذين تؤيدهم.

لم تكن تنقصنا الحماسة لإطلاع الرأي العام على واقع الأمور بقدر ما كنا نفتقر إليها عندما يقول مديري في مقابلة إذاعية، «لا يمكنكم القيام بأي شيء على نحو صحيح عندما يتعلق الأمر بإسرائيل والفلسطينيين. فإذا كان هناك قليل من التوازن في ما يتعلق بالانتقادات، نكون قد أبلينا بلاءً حسناً». لقد كان صادقاً بشكل مؤثر بسبب إقراره أنه لا يتخذ أي موقف من الوضع القائم، ويحاول الوقوف على مسافة واحدة من الفريقين. ولكن بإقراره العلني بهذا الأمر، يكون قد شجع ممارسي الضغوط على رفع صوتهم أكثر فأكثر والغدو أكثر تطرفاً، وكلما اتخذوا موقفاً متطرفاً زادت فرص تأثير الموقف الوسط بهم.

في الواقع، كانت هناك مجموعة واحدة فقط لم تقم بمهاجمتي
أبداً، بل كانت ثابتة في تأييدها لموقفي وتُثني عليه سواءً كان أكثر سلبية
حيال العرب أو اليهود: إنهم النازيون الجدد.

من مساوئ النقد غير المنطقي أنه يُعميك عن النقد المدروس.
على الأقل، هكذا أشرح سبب مرور عامين تقريباً قبل أن أفهم النقد
الموجّه من حركة السلام الإسرائيلية ومناصرين قلائل آخرين للقضية
الفلسطينية. لم ينتقدوا وسائل الإعلام لأن طريقة تناولها جانبي النزاع
كانت مُضرة لوجهة النظر الفلسطينية؛ لقد خطوا خطوة إضافية، منتقدين
المقاربة القائلة إن الجانبين مخطئان إذا كانا يتقاتلان. برأيهم، يُفترض
تغطية النزاع كما تمت تغطية نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا
في ثمانينيات القرن الماضي. فقد قال الناشطون في ميدان السلام إنه
يُفترض التنديد بالعنف، وبالإرهاب أيضاً وبشكل مُطلق، عندما تقوم
مجموعة من الناس تمتلك قوة عسكرية متفوقة بقمع شعب أعزل بشكل
أساسي. لم يقل أحدٌ خلال قيام نظام التمييز العنصري إنه عندما يتقاتل
السود والبيض يكون الجانبان مخطئين.

كنت قد سمعت هذا النقد مذ بدأتُ زيارتي الأولى إلى الأراضي
المقدسة، ولكنني لم أفهمه جيداً، والسبب بسيط: لم أكن أفهم في الواقع
نوعية الحياة في ظل الاحتلال. ولكن الأمر تبدّل في العام الأخير من
شغلي المنصب لأنني ذهبت للعيش في القدس الشرقية المحتلة.

طلب مني زملاء صحفيون حسنو النيّة يقيمون في إسرائيل، على
غرار كل المراسلين تقريباً، عدم الذهاب. لقد قالوا إنني لن أتمكن
من التعاطي مع الأمور. ففكرت ببساطة أنني إذا انتقلت قد أتمكن من
التخلص من ذلك التنقل المتواصل بين إسرائيل ولبنان. هكذا ذهبت،

وانعكس مزاجي المبتهج على المقالة التي كتبها عن الجحيم اللوجستي
المرافق للانتقال من منزل إلى آخر:

يتطلبك الأمر بعض الوقت أحياناً لتدرك أنك لم تعد على
الكرة الأرضية. لقد حدث لي ذلك الأسبوع الماضي عندما جلست
في مطعم فاخر في عمان لالتقاط أنفاسي بعد ثلاثة أيام جحيمية
انتقلت خلالها من منزل إلى آخر. وطلب رفيقي المساعد وأنا حساءً
وصل فاتراً. فأعدناه، وطلبنا حساءً مجدداً. فأعدناه، وأصرنا على
تناول الحساء. تعالى هنا، أو مات للنادل. وغرفت بعض الحساء
بالمعلقة، ووضع إبهامه فيه. تحسسه نريد حساءً. وأشرت إلى إبريق
الشاي. هكذا نريده حاراً.

لم يكن لعمي للملعة في الواقع بعد ذلك هو الذي جعلني
أتساءل عن حالتي الذهنية فحسب، بل مرور خمس دقائق لأدرك
مدى غرابة سلوكي. كان النادل في المطبخ يفكر، «طالما دافعت
عن الغربيين، ولكن لقد طفح الكيل. لو حدثت انتخابات، سأقتنع
للأصولي».

لقد قضينا الأيام الثلاثة الأخيرة بنقل أمتعتي من بيروت
إلى القدس. كان يفصلنا عن القدس أربع ساعات من القيادة في
خط مستقيم، ولكن الحدود مقفلة والمرور عبرها أمر معقد لأن
لبنان وإسرائيل يعتبران كل اتصال عملية تجسس. يمكنك القيام
بذلك من خلال قبرص حيث يُعيدون رزم كل الأمتعة في صناديق
جديدة ويرسلونها، ولكن مسؤولي الجمارك اللبنانية بشكل مُذهل
يريدون عشرة دولارات لقاء كل قرص مُدمج تريد تصديره، وإذا
لم تكن رزمة أوراق العمل المكتبي السميكة مرتبة في إسرائيل،
تبقى أمتعتك في المرفأ، ويتعين عليك دفع سبعين دولاراً في اليوم

كأجر للتخزين. إضافةً إلى ذلك، رفضت شركة النقل الإسرائيلية نقل أمتعتي من المرفأ إلى القدس الشرقية لأن الفلسطينيين يعيشون هناك. أهلاً وسهلاً في الشرق الأوسط.

لهذا السبب، استقلنا سيارة أجرة مليئة بالركاب في بيروت وانطلقنا إلى الأردن عبر سوريا. في اليوم التالي، كنا نأمل بدخول إسرائيل عبر المركز الحدودي المتهاون إجمالاً عند جسر اللنبي.

كانت الحدود السورية العقبة الأولى. يمكن للسائح الهولنديين شراء تأشيرات دخول هناك على ألا يكونوا صحفيين، ولسوء الحظ، كان يحمل جواز سفري تأشيرة دخول صحافية إلى سوريا انتهت مدة صلاحيتها.

«تأشيرة عبور؟» سألتُ بأكبر قدر من اليأس.

«عليك الحصول على إذن من الوزارة، والوزارة مغلقة».

«عشرون دولاراً؟» اقترح سائقي بعد أن طلبت منه ذلك.

«سنرى ما الذي يمكننا القيام به».

لقد فقدتُ أربعين دولاراً من مدّخراتي وانتظرت أربع ساعات، ولكننا توجهنا إلى مركز الجمارك الحقيقي للحصول على تأشيرة عبور واحدة. كان وقتاً عصيباً لأنه يُفترض بهم رسمياً تخمين قيمة أمتعتك والاحتفاظ بقيمة التأمين، على أن نستعيد المبلغ عند الحدود الأردنية. أجل، صحيح لا يحتفظون بمبالغ مماثلة من المال دون إعادتها إلى مستحقيها. فقيّمنا الوضع، وبعد قليل، عبرنا جبال مرتفعات الجولان المكلّلة بالثلج دون أن نخضع للتفتيش ولكن بعد دفع مئة دولار. لقد كلّفنا الخروج من سوريا مئة دولار إضافية،

وكان باستطاعتنا حينذاك تنفس الصُعداء لأن الأردن دولة مُحترَمة. بعد ذلك، دار نقاش مع السائق حول الأجرة، وكاد شخص وراءنا يقود بجنون أن يودي بنا إلى وادِ ضيق عميق، وكانت الحدود مَقفلة. لقد تم اعتقال متسلّين فلسطينيين. وكنا على وشك العودة عندما أُعيد فتح الحدود مجدداً.

في القدس الشرقية، كانت هناك عقبة أخرى بانتظارنا. لم يتمكن الدهانون، والسمكريون، والنجارون الفلسطينيون الذي كان يُفترض بهم ترميم منزلي من مغادرة قراهم طوال أسبوع. فوضعنا كل أمتعتنا في منزل أحد الأصدقاء، وعدنا إلى بيروت في صباح اليوم التالي: سيارة التاكسي إلى الحدود، ضريبة مغادرة إسرائيلية بقيمة ثلاثين دولاراً، ساعة ونصف من الانتظار في حافلة، ثمانيّة دولارات للحكومة الأردنية، مساومة سائق جديد بهدف الوصول إلى المطار حيث توجد رحلات جوية إلى بيروت. كان الطقس بارداً وكنا جائعين. فقلنا في أنفسنا، هل تعلم، إذا عبرنا عمّان يمكننا التوقف لتناول وعاء من الحساء اللذيذ والساخن، فنحن نستحقه.

بعد مغادرة منزلي في بيروت، لم يعد باستطاعتي تجاهل الأمور. لم أدرك هذا الواقع على الفور لأنني كنت السعادة المتجسدة بعد مغادرتي مباشرة. لقد بدأت الحياة في القدس الشرقية الأمر الأكثر إثارة للاهتمام على الإطلاق. هناك، وقفت في الصف أمام أي كيه إي أبيه وراء مستوطن يهودي يُرخي لحيه كبيرة، ومعه مجموعة فوضوية من الأطفال، ويحمل سرير طفل تحت ذراعه اليمنى، ويضع بندقيّة أوتوماتيكية على كتفه الأيسر. في إسرائيل، يُسمح للمستوطنين بحمل أسلحة ثقيلة. فالقدس الشرقية أرض محتلة ولا وجود لخدمات بريدية، لذلك كان

عليّ الوصول إلى صندوق بريد في المستوطنة اليهودية المجاورة. لم تكن شركة الاتصالات الإسرائيلية تريد القдом ومدّ خط آي أس دي أن؛ فالأمر بالغ الخطورة وسط كل هؤلاء المعادين.

كانت المكتبة الفلسطينية الرئيسية في شارع صلاح الدين في القدس قد رفعت رسماً كاريكاتورياً: في الصورة الأولى، شخص من الإسكيمو يقول، «أدعى مناحيم، والقدس لي!» وفي الصورة التالية، رجل أسود غاضب: «أدعى داود، والقدس لي!» فيضرب أميركي يرتدي ثياب راعي بقر الأرض بقدميه: «أدعى شيمون، والقدس لي!» ويقول هندي ساخط: «أدعى بنيمين، والقدس لي!» وفي الصورة الأخيرة فلسطيني مُربك: «أدعى محمد وُلدت في القدس، ولكن لا بد من أن يكون هناك خطأ ما».

باستطاعة الناس في الأراضي المقدسة أن يهزأوا بأنفسهم، ولكن متى سبق لك أن رأيت ذلك في الأخبار؟ ذات مرة، تدمّر التقني الإسرائيلي الذي يعمل لصالحه، وكان شديد الإعجاب بأجاس، من وجود براغيث في كلبه. «عليّ شراء بعض المبيدات الألمانية. الألمان جيدون في هذا الميدان - إيادة الطفيليات». وأخبرني أيضاً ما يلي: هناك أميركي وروسي وإسرائيلي واقفون أمام لافتة كُتب عليها نعتذر، لا يوجد لحم اليوم لأنه غير متوافر. فيسأل الأميركي، «ما معنى غير متوافر؟» ويسأل الروسي، «ما معنى لحم؟» ويسأل الإسرائيلي، «ما معنى اعتذار؟»

كان عالماً جديداً بالكامل، وكنت سعيداً جداً هناك لدرجة أنني أقمت حفلة منزلية مُفعمة بالحيوية والنشاط. ومن بين ضيوفي، مالك المنزل وشقيقته، وجارنا. كان دبلوماسي هولندي من تل أبيب موجوداً

أيضاً، إضافةً إلى زميل سويدي يدعى سفن. فدنا مني سفن وعلى وجهه سمات الانزعاج. «مالك المنزل ذاك وشقيقته، هما... لطيفان!» فرفعتُ كأسِي. ماذا كان يتوقع؟ «حسناً، أجل. قد لا يكون للأمر أي أهمية، ولكنهما... تعلم». كانت أول محادثة لسفن مع فلسطينيين عاديّين. فالمسافة بين تل أبيب والقدس الشرقية هي خمسة وتسعون كيلومتراً بالسيارة، ولا وجود لأي نقطة عبور حدودية لأن إسرائيل ضمت القدس الشرقية وتعتبرها جزءاً لا يتجزأ من البلد. ولكن لم يسبق لسفن أن قدم إلى هنا طيلة مدة إقامته في تل أبيب ثلاث سنوات؛ كان يبتلع روايات جهاز العلاقات العامة الإسرائيلي بأكملها.

لقد فتح مالك المنزل وشقيقته عينيّ على ماهية الاحتلال أيضاً، وكانت نهاية سعادتي. لقد زوّدتني جارتني بمعظم المعلومات. كانت عزياء كاثوليكية وُلدت في حيفا عام 1948. وعندما أُنشئت إسرائيل، فرّت العائلة إلى القدس الشرقية ولم تتمكن أبداً من العودة. كانت القدس الشرقية تتبع الأردنيين في ذلك الوقت، ولكن إسرائيل سيطرت عليها عام 1967؛ وهكذا، باتت جارتني في ظل حكم البلد الذي سرق من عائلتها كل شيء في السابق.

مع ذلك، فهي لا تشعر بالسلام. كانت تتلقى اتصالات هاتفية عند الثالثة صباحاً، وكلما أجابت تكون هناك بضع ثوانٍ من الصمت، ومن ثمّ يُقفل الخط. استمر ذلك طوال أيام حتى أصيبت جارتني بالإنهاك. لصوص؟ وتجنّبت الإجابة على سُؤالي حول سبب عدم اللجوء إلى الشرطة. «أنا سيدة متقدمة في السنّ عاجزة عن تدبّر أمورِي»، تقول باستمرار. كاد الأمر يقودني إلى الجنون، فأضفتُ وصلةً إلى السلك بحيث أتمكن من الإجابة على الهاتف، آملاً في أن يشعر المتصل بالخوف لدى سماعه صوتاً ذكورياً. في تلك الليلة، رنّ الهاتف بالفعل.

وعندما رفعت سماعة الهاتف، كان هناك صمت. واستمر الصمت خمس دقائق أخرى، لذلك قلت بالإنكليزية الأمور الأكثر قساوة التي تمكنت من التفكير فيها. وفي الاتصال الثالث، بدأ المتصل فجأةً يتكلم بإنكليزية غير طليقة. لم يكن يريد الإفصاح عن هويته أو عن سبب اتصاله، ولكنه عرّف نفسه قائلاً إنه «صديق للعائلة من الأردن». وأقفل الهاتف بعد ذلك، وأدركت أنه لم يلفظ حرف الـ «راء» في كلمة الأردن بالعربية، بل بالعبرية. كان إسرائيلياً! وتوقفت الاتصالات الهاتفية.

«نتلقى الكثير من المكالمات الهاتفية المماثلة»، قال لي مالك المنزل عندما كنت أَدفع له الإيجار. كان طبيباً محترماً وعصبي المزاج في أواخر العقد السادس من العمر. «المستوطنون يخيفون الفلسطينيين المتقدمين في السن، وبعد ذلك، يأتي أشخاص صُوريون ويعرضون شراء منزلك بقيمة تفوق قيمته الفعلية بضعفين أو ثلاثة أضعاف، ويمكنك البقاء هناك حتى وفاتك. ولكنه يصبح بعد ذلك منزلاً للمستوطنين. وهم يعرضون عليك أيضاً جوازات سفر إسرائيلية مما يثبت أنهم متوطنون مع الحكومة».

إذاً، هذه هي سياسة التهويد التي تحاول إسرائيل من خلالها التخلص من غير اليهود المقيمين في القدس الشرقية. وأصرّ مالك المنزل على أنه لم يأخذ أبداً بعين الاعتبار، ولو لثانية واحدة، العروض المقدّمة من قبل المتصلين خلال الليل. ومع ذلك، سيسمح له جواز سفر إسرائيلي من السفر إلى الخارج، وسيتمكن أبناؤه وبناته من متابعة دراستهم في أميركا والعتور على شركاء. ما هو عدد الفلسطينيين الكاثوليك المتبقين في القدس؟ لو خاضت إسرائيل معركة في سبيل الحصول على منزلي لفازت بها؛ إنه أمر واضح.

ذات مرة، قرعت جارتني جرس باب منزلي مدعورة. كان هناك منع

للتجوّل ذلك المساء بسبب احتفال إسرائيل باستقلالها، ويتعيّن على كل الفلسطينيين البقاء داخل منازلهم - أولئك المقيمين في القدس الشرقية أيضاً للمرة الأولى - كتدبير أمني. كانت الجارة ترتجف بسبب اقتناعها أن ما حدث عام 1948 سيحدث مجدداً. فألغيت موعدتي («آسف، لا يَسمح لي بمغادرة منزلي غداً»)، وخرجت لإحضار طعام من المتجر المحلي. ولكن لسوء الحظ، كان قد وصل إليه عدد كبير من الناس. وعدت إلى المنزل، ونظرت إلى الساعة، هل لا يزال أملك الوقت للتوجه إلى المتجر الكبير؟ ولكن ماذا لو ذهبت وعلقت هناك؟ سيكون عليّ النوم في فندق. لذلك، كان عليّ اصطحاب جواز سفري معي، وجهاز الكمبيوتر أيضاً، لأنني ملتزم بموعد زمني محدد.

فبقيتُ في المنزل، وبعد ساعة من الزمن، وقفت جارتي عند بابي مجدداً. كانت قد سمعت أنه سيكون هناك تفتيش للمنازل، وحذرتني طالبةٌ منّي إخفاء كل مقتنياتي القيّمة. كانت لديها وجهة نظر، حاول أن تثبت في مركز مسلّح أن جندياً استولى على مجوهراتك. وبدأ منع التجوّل، وأصدرت سيارة صوتاً حاداً عندما كانت مارةً بالقرب من منزلنا. هل هو متهورٌ فلسطيني أم مستوطن؟ لم يكن هناك منع تجوّل لليهود. ومن ثم، سمعت انفجارات، وقلقت للوهلة الأولى على جارتي. ولكن هذه الانفجارات لم تكن سوى ألعاب نارية بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية لاستقلال إسرائيل.

بعد مرور بعض الوقت، تعرّضنا لعملية سطو. لقد سُرقت السيارة، وأُفرغ المنزل من محتوياته، وأُصيبت الجارة بحالة من التوتر. هل نقصد مركز الشرطة؟ «أريد مساعدتك»، قال مالك المنزل، «عليك الإبلاغ عن السرقة». لقد شعرت بانزعاج شديد، فشرح لي بتردد أنه إذا قصد مركز الشرطة فإنه يجازف بأن يقول له الشرطي: «أنت تسكن هناك؟ إنه حيّ

يشير اهتمامنا. لا تريد أن نخبرنا بأي شيء؟ ربما يُفترض بنا التحقق من رخصة سَوِّك، والتصريح الذي يسمح لك بمزاولة مهنة الطب، وأعمال مكتبية أخرى. قد يتطلب الأمر بعض الوقت. راجعنا بأمر السرقة بعد ظهر كل يوم وطوال الشهر القادم، فنذهب في نزهة إلى حيِّك، وندع الجميع يرون مدى صداقتك مع الشرطة الإسرائيلية».

فقصدت مركز الشرطة بمفردي في المستوطنة المجاورة، نيف ياكوف. ولم يكن أحد يجيد الإنكليزية أو يرغب في التكلم بها، وأرسلت إلى شرطي يتكلم العربية. كان منشغلاً مع فلسطيني يقيم بجانب نقطة تفتيش، وعليه الوقوف في الصف كل يوم لمدة ساعتين للمرور عبر النقطة كلما أراد دخول المنطقة أو الخروج منها. وكان الفلسطيني قد تمكن من الحصول على ترخيص مرور عبر الطريق الخاصة باليهود. من الغريب كيف أنني اعتدت بسرعة ذلك النوع من التعابير؛ الطريق الخاصة باليهود.

«عد غداً»، سمعت الشرطي يصيح.

«ولكنك قلت ذلك أمس وأوّل من أمس. لقد قدمت إلى هنا عشر

مرات».

«إذاً، تعالَ عشر مرات أخرى».

ما الذي يدعو المرء إلى أن يخشى الشرطة أكثر من اللصوص؟ هل هو الاحتلال؟ ففكرت أن أطرح هذه السؤال كلما أجريت مقابلة مع شخص ما، وجمعتُ القصص التالية:

حدث الأمر قبل عملية السلام. كنت في السادسة عشرة من عمري ومُغرماًً بجارتي كما لو أنك تختبر الأمر للمرة الأولى في حياتك. بعد ذلك، رُسمت شعارات معادية لإسرائيل وعلم منظمة التحرير الفلسطينية على منزلنا. في اليوم التالي، أجبر الجنود والدي

على إزالة الكتابات. ففقدت رباطة جأشي وتم اعتقالي. وبعد ستة أشهر، أُطلق سراحى ولكن اسمي بات معروفاً من قبل اليهود، ونسيت أمر الحصول على إذن للعمل في إسرائيل. لم يكن لدي أي مستقبل، وتزوجت من أغرمت بها شخصاً آخر.

ابني البالغ من العمر ثماني سنوات أصمّ. نحن نعيش في القدس، والمدرسة الوحيدة للصمّ موجودة في رام الله. كنت بحاجة إلى ترخيص مرور لقطع تلك الكيلومترات العشرة إلى رام الله. بالطبع، كان اليهود يريدون شيئاً في المقابل. الآن، يتعين على ابني البقاء في منزل مستأجر في رام الله، وأسافر سراً عبر البلد في نهاية كل أسبوع لاصطحابه معي. إنه فتى قلق، ولكن ليس باستطاعتنا طمأنته عبر الهاتف في الأمسيات بسبب صممه.

والذي هو رئيس البلدية ولديه ما يكفي من المال لأدرس في باريس. قراءات أدبية، احتجاجات... ولكن كانت هناك على الدوام سحابة فوق رأسي، إذا فقدت بطاقة هويتي الأصلية لن تسمح لي إسرائيل بالعودة أبداً. كنت أتسكع مع فتاة ذات مرة وأصبحت بنوبة من الذعر التام. فركضت إلى غرفتي للتحقق مما إذا كانت بطاقة هويتي لا تزال حيث وضعتها.

حدث ذلك قبل عملية السلام. كان شقيقي في نزاع حول الأعمال مع عائلة متنفذة على صلة بمنظمة التحرير الفلسطينية. ذات يوم، قاموا باستدراجه إلى خارج المنطقة الريفية وقتلوه. بعد ذلك، كتبوا على كل الجدران إنه كان متعاوناً مع إسرائيل. ما الذي كان باستطاعتنا القيام به؟

كان والدي يعاني من خلل في القلب لدرجة أنهم لم يتمكنوا من معالجه في غزة. فطلبنا الحصول على إذن للسفر إلى الأردن،

ولكننا لم نحصل عليه. لقد ملأنا استمارة بشكل غير صحيح،
ووالدي الآن متوفٍ.

دخلت في شجار رهيب يوم أمس مع ابني الأصغر. لقد
سألته عن المهنة التي يريد القيام بها عندما يصبح أكبر سنًا، فقال
«شهيد». فقلت له إن الشعب المقموع بحاجة إلى جنود، ولكنه
بحاجة أيضاً إلى مفكرين، ومبتكرين، وعلماء. فسخر مني. لماذا
يُفترض به بذل قُصارى جهده في المدرسة سيّما وأنه لن يتمكن
أبداً من مغادرة نابلس للالتحاق بجامعة جيدة؟ وهو مُحق.

لازمت هذه الروايات تفكيري لأن من أخبرها ليسوا رجالاً غاضبين
ومُلتحين، أو ناطقين رسميين لا يتمتعون بالكفاءة، أو ضحايا ينتحبون
بشكل مسرحي وعلى نحو مُبالغ فيه. كانوا رجالاً ونساءً هادئين؛ آباء
وأمهات يحاولون المحافظة على شمل عائلاتهم؛ أجداد وجدات يدركون
أن الجيل التالي قد يتوقع حياة مماثلة لحياتهم. وكان الاستنتاج الوحيد
الممكن أن ذلك الاحتلال مساوٍ للإرهاب؛ عدا أنه دائم ومفروض من قبل
جنود وأجهزة مخابرات وليس من إرهابيين. فالاحتلال هو كالدكتاتورية
لأنك لا تملك أي حقوق. وباستطاعة أجهزة الأمن الإسرائيلية اقتحام
منزلك في أي وقت وأخذك أو أخذ أحد أفراد عائلتك، وباستطاعتهم
أن يعذبوك أو يسجنوك لسنوات من دون محاكمة. وفي أي وقت، يمكن
للجرافة تسوية منزلك بالأرض في سياق فرض عقوبة جماعية أو بهدف
بناء مستوطنة جديدة.

هكذا عاش الفلسطينيون منذ العام 1967، ولم تتغير عملية السلام
الكثير. فالسلطة الفلسطينية هي في الواقع محام دُفع به بين المحتلين
الإسرائيليين والشعب. فقبل عملية السلام، كان يتعين على الفلسطينيين
أن يطلبوا الإذن من الإسرائيليين للقيام بأي شيء؛ وبعد عملية السلام،

يتعيّن عليهم اللجوء إلى السلطة الفلسطينية التي يجب عليها طلب الإذن من إسرائيل.

حتى سيارتي تعرّضت للسرقة، كنت أقود سيارة مستوردة تحمل لوحة يونانية. وكل بضع ساعات، كانت تستوقفني وحدات خاصة بالمكافحة؛ يكونون أحياناً بثياب مدنية، وأحياناً أخرى بلباسهم الرسمي الموحد. «من أين حصلت على هذه السيارة؟» كنت أمرّ أحياناً بلحظات مريعة، أشكر فيها الله بسبب بشرتي البيضاء لأنني لا أتكلم العبرية أبداً ولا أعرف إذا كانوا سيصرخون «أخرج من السيارة وإلا أطلقنا النار عليك!» أو «لا تتحرك وإلا أطلقنا النار عليك!» كان رجال الشرطة عصيبي المزاج إلى حدّ كبير أيضاً: باستطاعة الإرهابي الانتظار حتى يقتربوا، و... يفجّر نفسه. ولكن ذلك الشعور بالعجز عندما يكون عليّ رفع يديّ والسير في اتجاه أحد أولئك الجنود البالغين من العمر تسعة عشر عاماً...

كان الجنود يقيمون أحياناً نقطة تفتيش أمام منزلي ويخرجون كل ذكر فلسطيني يتراوح عمره بين ثمانية عشر عاماً وأربعين عاماً من سيارته. كان عليهم الوقوف تحت الشمس الحارقة، طوال ساعات أحياناً، بينما يتم التحقق من أوراقهم الثبوتية، وكل من يتذمّر يتلقى ضربة قوية على رأسه. وكانوا يتوقفون عن توجيه الضربات تقريباً عندما يروني ببشرتي البيضاء ويدركون أنني قد أكون شاهداً على أعمالهم.

هذا ما يعانیه الناشطون في ميدان السلام عن الاحتلال. وعندما فكرت مليّاً في كيفية وصف الاحتلال، أدركت سبب قيام عدد قليل من الناس بفهم ما يتحدث عنه الناشطون. فالإكراه نفسه موجود في البلدان المحتملة كما في الأنظمة غير الديمقراطية. لم تكن هناك أي تطورات

ذات أهمية إخبارية، مما يعني أنه بإمكان المراسلين إعداد شيء ما عن الحياة اليومية ليس إلا. فالأحداث هي التي تغذي النشرات الإخبارية على الدوام. ولم يكن الاحتلال بحد ذاته خبراً، ولكن كل هجمة هي خبر. وهذا يعني أنه يمكنني ذكر الاحتلال في الأحاديث البيئية أو في التحليل من خلال التلميح إليه فقط ومن دون الخوض في التفاصيل. كيف سيتمكن إذاً مشاهدي في الوطن - متلقو الشكاوى والمحققون فيها، وواضعو القوانين المتعلقة بالمعاملة الجائرة - من تصوّر ما يجري؟ عليك إظهار الاحتلال على شاشة التلفاز من خلال أمثلة واقعية، ولكنه أمر يصعب القيام به.

فعلى سبيل المثال، وقبل الانتفاضة الثانية، اعتاد العديد من المثليين الجنسيين الفلسطينيين زيارة حانات تل أبيب سرّاً. وكان جهاز البوليس السري الإسرائيلي يلتقط صوراً لهم، ويهددهم بتوزيعها في قراهم إذا لم يعملوا لصالحه. وتُظهر قصة مماثلة كيفية قيام القوة المحتلة بسحق الناس بلا شفقة أو رأفة؛ ولكن حاول تصوير ما يجري. فالمثلي الجنسي لن يظهر على شاشة التلفاز لأنه سيتم افتضاح أمر ميوله الجنسية وتعاونه مع المحتل، وستنكر أجهزة المخابرات كل شيء أو تعتبرها من «أسرار الدولة». في الغالب، يمكنك الحصول على ناشط إسرائيلي في ميدان حقوق الإنسان يمكنه التحدث عن الأمر، مع خشية دائمة من أن يمتنع عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

لكل انفجار صورة تُظهر الوضع كما تراه إسرائيل. فيمكن تكرار مشهد حافلة مشتعلة أو مطعم مسودّ للغاية، وفي كل مرة تتضح الرسالة في غضون ثانيّين؛ إنه الإرهاب. ولكن في ما يتعلق بالاحتلال... لا يتعدى الأمر بضع طلقات نارية صادرة عن الدبابات، وجنوداً يتحققون من الأوراق الثبوتية، وصفوفاً طويلة من المدنيين. كيف يمكن للمراسلين

وصف المأساة، والقمع، والسلا عدالة الموجودة وراء هذه المشاهد؟ يمكنك سرد ما يجري ليس إلا، وكما نعلم، فإن أقصى ما يمكنك القيام به بالكلمات هو إبلاغ رسالة ما للمشاهدين؛ أما إذا حصلت على صور لهجوم ما، فإنك تصيهم في الصميم.

في السنوات الثلاث الأولى للانتفاضة، كان عدد المدنيين الفلسطينيين الذين قُتلوا بسبب العنف الإسرائيلي ثلاثة أضعاف عدد القتلى الإسرائيليين، واستمر الحديث عن «هجمات دموية» من دون ذكر «الاحتلال الدموي» إلا نادراً. وبعد هجوم فلسطيني أودى بحياة ست ضحايا إسرائيليين، قيل إن «حدة التوتر ارتفعت» في الشرق الأوسط؛ ولكن بعد سقوط خمسة عشر مدنياً فلسطينياً في أسبوع واحد بسبب العنف الإسرائيلي، قيل إن الوضع يمر بفترة «من الهدوء النسبي». كان على السلطة الفلسطينية الاستمرار بشرح ما إذا «كانت تتخذ تدابير كافية في مواجهة الإرهاب». ولم يكن على السياسيين الإسرائيليين أبداً شرح ما إذا «كانوا يتخذون تدابير كافية للتخفيف من وطأة الاحتلال». ناقش بعض الأشخاص على موقع الوب التابع للبي بي سي «كيفية وقف الإرهاب»؛ ولم يكن هناك أي منتدى حول «كيفية وقف الاحتلال».

فإذا قارنت الإرهاب بالاحتلال، تجد أن الأمور منحرفة بحيث إنه لا يكون باستطاعتك تقيّمها وإن في الصحف. باستطاعتي استخدام كلمة «إذلال»، ولكن كلمة مماثلة لا تعني أي شيء - بالنسبة لي على الأقل - حتى اختبرتها بنفسني. وعندما اختبرتها، كتبت المقالة التالية. وكتب لي أحد القراء بغضب قائلاً إنني تخطيت «الحدود الصحافية». كان مُحققاً بذلك لأن الإذلال ليس أمراً يمكنك شرحه ضمن الحدود الصحافية:

كنت جاثياً أمام مرحاض مليء بماء مبتدل عندما مرّرت لي

يدُ شوكة، وكان يجب عليّ التقاط الغائط وإخراجه من الماء وأكله لإضفاء جوٍّ من المرح. كان ذلك الكابوس قد انتابني العام الماضي ونسيته على غرار الأحلام الأخرى. ولكنني كنت يوم أمس عند حاجز على الطريق، فتذكرت الحلم مجدداً بكافة تفاصيله.

كان حاجزاً عادياً تماماً مع صف طويل من السيارات الفلسطينية المتوقفة عند حاجز يوجد فيه أربعة جنود إسرائيليين في الثامنة عشرة من عمرهم تقريباً بقصات شعر تواكب الموضة ويحملون أحدث أجهزة الهاتف الخليوي. كان أحد الجنود يومئٍ للسيارات تكراراً منذ المراحل الأولى لِعَسَقِ المساء بمصباح كهربائي أطول من ساعده. كان يتعيّن على كل الركاب الذكور الخروج من سياراتهم والكشف عن صدورهم وتعريضها للهواء البارد ليثبتوا أنهم لا يُخفون متفجرات. وأبقى الجنود الآخرون بقية الركاب في السيارات - المسنّات والأطفال الصغار - تحت أسلحتهم المتطورة جداً.

أخيراً، طُفح الكيل بأحد الفلسطينيين. فشرع برفع سترته بهدوء، ولكنه أفلتها عندما نظر الجنديّ حوله، فأسعد الفلسطينيين المنتظرين في سياراتهم. وعندما عاد إلى سيارته، باغته الجندي الذي يحمل مصباحاً كهربائياً كبيراً بثلاث ضربات سدّدها على رأسه عبر النافذة، وأوماً له بالانطلاق.

حينئذٍ تذكرت الكابوس الذي انتابني. في اليوم السابق، كنت في جنين مع زميل فلسطيني. وعندما كنا متجهين لمغادرة المدينة، صادفنا حاجزاً على الطريق، وتبيّن في ما بعد أنه لن يُسْمَحَ لزميلي بالمرور. كنا نتضوّر جوعاً ونتألّم بشكل يائس لقضاء حاجتنا في الحمام، ولكن الجنود حملونا على الانتظار لمدة ساعتين. وسُمح

لنا بعد ذلك بإكمال طريقنا من دون تقديم أي تفسير لما حدث. فهذا ما اعتقدناه على الأقل. وكان هناك حاجز آخر على بُعد متي متر من الحاجز الأول، ولكن هذه المرة لشرطة الحدود. «ولكن الجيش سمح لنا للتوّ بالمرور»، قلنا. «نادهم أو يمكننا العودة إلى هناك معك». فاقترب الشرطي وكان علينا المعاناة من البرد القارس في كانون الأول/ ديسمبر لمدة ساعتين آخرين، زارعين المكان ذهاباً وإياباً وأذرعنا وراء ظهورنا. ما الذي تقوم به في هذا الظرف؟ تتماشى مع الوضع القائم وتطلق دُعابات، أو تنفجر غضباً وتجازف بإمكانية إرسال زميلي إلى «الحجز الإداري» - التعبير المعتمد من قبل جهاز العلاقات العامة الإسرائيلي للسجن دون محاكمة لمدة ستة أشهر أو أكثر؟ يمكنكما الذهاب الآن، قال لي الشرطي وأوماً برأسه. أخيراً، بات بإمكاننا الانطلاق من دون تلقي أي تفسير كذلك. وطوال مدة عودتنا، بقي زميلي المبتهج صامتاً في حين أنني حاولت التعبير عن مشاعري.

يوم أمس، وعند الحاجز على الطريق، فهمت حقيقة تلك المشاعر وكيف ترجمها عقلي الباطن؛ إنه الإذلال. إن ما اخترته في جنين لم يحدث لي سوى مرة واحدة، ولكن كيف يكون عليه الحال بعد خمسة وثلاثين عاماً من الشعور بالتهديد من قبل شبان إسرائيليين؟ لا بد من أن ينجم عن ذلك أكثر من مجرد أحلام غاضبة

إليك الآن دُعاة: جلس إسرائيليان على الشاطئ في تل أبيب يقرآن، ومع أحدهما صحيفة مرموقة، ومع الآخر صحيفة معادية للسامية. «لماذا تقرأ تلك الصحيفة بحق الله؟» يسأل الأول. «كنت أقرأ صحيفة مرموقة

مثلك، ولكن لم يعد باستطاعتي تحمّلها وأسلحة دمار شامل، وانهيار الاقتصاد، وتظاهرات مناهضة لإسرائيل في أوروبا...»، يجيب الآخر، ويشير إلى الصحيفة المعادية للسامية. «أما وقد بدأت أقرأ هذه، فإنني أصبحت أفضل حالاً. يثبت في النهاية وجود مؤامرة يهودية عالمية، ونحن نتحكم بكل العالم في الواقع».

الفصل الحادي عشر

معضلة الهسيط

لقد مرت الأراضي المقدسة أيضاً بفترات هدوء لم يتوافر فيها الكثير من الأخبار، ومتلازمة القدس هي إحدى القصص التي يهتم بها الناس ويمكنك استخدامها كخبر بديل لملء الشواغر.

لم يكن يصعب عليّ التفكير بمتلازمة القدس عندما كنت أتابع مناقشات حول السلام في الشرق الأوسط على الإنترنت أو على المحطات الفضائية. لقد بدا الجميع عالقين في شرك هذه المتلازمة؛ ليس العرب فحسب، بل اليهود أيضاً والغريبيون. إنها على الدوام حالة شخص آخر يتعيّن عليه القيام بأمر ما لأن شخصاً آخر هو المشكلة؛ وإذا تحسّن سلوكهم يتحسن كل شيء. فالفلسطينيون العاديون يوجهون أنظارهم إلى قادتهم، والدول العربية، وأوروبا، وأميركا؛ على القنوات العربية، إنها السياسة الغربية على الدوام التي تحتاج إلى تغيير. وتشرح إسرائيل مشاكلها لبقية العالم معتبرة إياها معاداة للسامية. ومنذ 9/11، يستمر عدد متزايد من المعلّقين الغربيين بالقول: «يحتاج الإسلام إلى المرور بمرحلة من التثوير، يحتاج المسلمون إلى القيام بهذا أو ذاك». لم تكن رؤية الجميع يتخلّون عن مسؤولياتهم أمراً يبعث على

الأمل، ولكن خلال عامي الأخير كمراسل كنت أتساءل أحياناً عما إذا كنت مختلفاً عن الآخرين. هل يُفترض بي أن أشكل ثقلاً موازناً لأي تحريفات صادفتها؟ فإذا فاز فريق كرة قدم بإحدى المباريات بنتيجة 1-8، قد تقول إنه يكفي للصحفي التلفزيوني أن يُظهر الأهداف. وكان يُفترض بالخاسرين أن يلعبوا بشكل أفضل.

لكن ماذا لو كان الملعب موحلاً، وأحد الحكام المراقبين مقرّباً من الفريق الفائز، وبعض المخالفات لم يعاقب عليها مرتكبوها، أم أن أيّاً من هذه الاحتمالات غير موجود بل الفريق الفائز أفضل بكثير لجهة خداع الحَكَم؟ ماذا لو كان مدرّب الفريق الخاسر موجوداً هناك رغمًا عن أنف العديدين من مؤيدي هذا الفريق، أم تم استخدامه كمدرّب بمساعدة الفريق الآخر؟ بأي حال، لقد عيّنت إسرائيل والغرب عرفات «ممثلاً وحيداً للشعب الفلسطيني» على حساب قادة الانتفاضة الأولى. لقد ساعدته أوروبا وأميركا وإسرائيل على إنشاء جهازه الأمني (المصطلحات!) طيلة سنوات ليتمكن من طرد كل المدربين المنافسين خارج المباريات.

ألا يُفترض بالمراسلين النظر أبعد من الأهداف، وإظهار سبب انخفاض أداء الفريق، وكيف كان يمكن أن يكون أدأؤه لو أشرك لاعبون آخرون؟ فالصحفي الذي يقصر مهامه على لعب دور الوسيط يتخذ في الواقع جانب الفريق الأفضل فيحصد هذا الأخير المكاسب المعنوية من التغطية الإخبارية.

لقد كان أكثر من مجرد سؤال نظري وفقاً للمقياس السلوكي. ففي حرب إعلامية، يكون للمقاربات الصحافية نتائج سياسية. لقد رأيت ذلك يحدث خلال الهجوم الإعلامي الأكثر عنفاً الذي لم أشهد له مثيلاً

- فشل مفاوضات السلام في كامب ديفيد - . ففي صيف العام 2000، تحدّث القائدان باراك وعرفات آنذاك عن السلام. تعرّثت المفاوضات، وقدمت الحكومة الإسرائيلية على الفور قصة مُعدّة بشكل جيد: «سبخاء غير مسبوق»، عرض باراك إعادة أكثر من 95 بالمئة من المناطق المحتلة؛ إن الرفض الفلسطيني لهذا العرض أثبت أنهم لم يكونوا يريدون تحقيق السلام في المقام الأول؛ إن هدفهم الوحيد تدمير إسرائيل. بعد مدة قصيرة، اندلعت الانتفاضة الثانية، وأدخلت إلى الرواية الإسرائيلية: إنهم يخوضون معركة مفتوحة الآن. كل ما كان باستطاعة الناطقين الرسميين الفلسطينيين القيام به هو ارتجال تلفيقات عن «الجرائم الإسرائيلية البربرية» و«الشرعية الدولية» أي الثروة المألوفة.

بعد عام تقريباً، كشف مسؤول أميركي سابق عن تفاصيل تتناول كامب ديفيد. لقد ثبت في النهاية أن نسبة «95 بالمئة» لا تشمل القدس الشرقية والمناطق المحيطة بالقدس الغربية التي لم تُعتبر محتلة. ونسبة الخمسة بالمئة التي تمسكت بها إسرائيل مؤلفة من قطاعات مستطيلة الشكل تمر عبر فلسطين، وتحوّل المدن الفلسطينية إلى ثوب مرّقع وليس إلى منطقة قابلة للسكن لأن الحدود أيضاً تبقى في أيدي الاسرائيليين. كما علّق أحد الدبلوماسيين: «السجناء يسيطرون أيضاً على 95 بالمئة من مساحة السجن».

لقد كان «العرض السخي غير المألوف» الذي تقدّمت به الحكومة الإسرائيلية، ولكن الناطقين الرسميين الفلسطينيين لم يعطوا أبداً تفسيراً لقيام قائدهم برفضه، ناهيك عن سرد روايتهم الخاصة عن كامب ديفيد. كانت النتيجة تضاؤل عدد الناشطين الإسرائيليين في ميدان السلام؛ لو كان الفلسطينيون يريدون السلام، لماذا رفضوا العرض الإسرائيلي السخي غير المألوف؟

كان للعرض غير الملائم لوجهة النظر الفلسطينية عواقب سياسية، ولم يكن حادثاً معزولاً. ففي ربيع العام 2002، عرضت الجامعة العربية سلاماً تاماً مع إسرائيل في مقابل انسحاب كامل من المناطق المحتلة. كانت هناك نقطة عالقة (حق الفلسطينيين بالعودة)، ولكنها المرة الأولى في التاريخ التي تتقدّم فيها الجامعة بعرض مماثل. في ذلك المساء عينه، احتلت حماس العناوين الرئيسية بسبب ارتكابها هجوماً كبيراً على إسرائيل، وبعد ذلك لم تأخذ إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية بما عُرف بمبادرة السلام العربية. لم يتناول الإسرائيليون النقطة العالقة ولم يطرحوا عرضاً مقابلاً بل تجاهلوا الأمر كلياً. فمن دون وجود جماعة ضغط إعلامية قوية في الغرب، لم تتمكن الدول العربية من إعادة العرض إلى الأجندة، ولم يُعدّ يُذكر البتة في النشرات الإخبارية الغربية، وأُطلق العنان لحماس في وسائل الإعلام العربية؛ لماذا تجاهلت إسرائيل والغرب السلام لو كانوا يريدونه؟

في أوقات مماثلة، ترى الهوة العميقة بين الشرق والغرب، وبين إسرائيل والفلسطينيين. هل كان يُفترض بي التدخل والقول إن الناطق الرسمي الإسرائيلي يزور الوقائع؟ وإن الناطق الرسمي الفلسطيني قد لا يكون بالإمكان فهمه، ولكن ما عناه بـ «الشرعية الدولية» هو...؟

مع ذلك، يحتمل الأمر مزيداً من الاجتهاد. لقد قيل في غالب الأحيان إن النزاع غير قابل للحل، وإنه مقدّر لليهود والمسلمين التقاتل. ولكن لماذا نجحوا في الاتفاق والانسجام طوال أكثر من ألف عام؟ ففي العصور الوسطى، كان العالم الإسلامي المكان الوحيد الذي يشعر فيه اليهودي بالأمان (باستثناء هولندا). وحتى منتصف القرن العشرين، كان هناك ملايين اليهود المقيمون في العالم العربي، وتركيا، وإيران.

وكانت تكنولوجيا إنشاء غرف الغاز متوافرة منذ زمن، ولكن المسلمين لم ينشئوها قط.

لدى التحدث إلى الفلسطينيين والإسرائيليين العاديين، كنت ألاحظ على الدوام طريقة تحدّثهم عن بعضهم بعضاً بتعابير مماثلة تقريباً: «إنهم يكرهونا».

«حسناً، كنت أقول. «هل تكرههم أيضاً؟»

«بالطبع لا»، يكون الجواب. «نريد السلام».

لم أحصل على هذه الإجابة عشر مرات، ولا حتى مئة مرة، بل كلما سألت أحد الجانبين عما إذا كان يكره الجانب الآخر. لقد بدت لي المشكلة أن أحداً لا يجروء على إظهار خوفه، ولا يريد من الجانب الآخر أن يظن أنهم ضعفاء، وقد أدى هذا الأمر إلى هبوط حلزوني إذ يفسّر أحد الجانبين دفاع الجانب الآخر عن نفسه أنه اعتداء، فتتعزز مكانم القلق لديهما، وهكذا دواليك.

فإذا أردت إيقاف هذه الدورة، سيكون عليك مزاوله نوع مختلف من الصحافة. فالصحافة لن تكون مقتصرة على الإعلان عن الأهداف المسجّلة مثل 8-1 ولن تعلق أهمية على سبب الخسارة الكبيرة التي مُني بها هذا الفريق أو ذلك، بل هي تشرح كيف انتهى الأمر باللاعبين الإثنين والعشرين منقسمين إلى فريقين وما الذي يمكن القيام به حيال ذلك. لو كانوا فريقاً موحداً لما حصلت على ناطق رسمي غاضب بلسان أحد الفريقين في مواجهة ناطق رسمي غاضب بلسان الفريق الآخر، بل على شخص منتم إلى حركة السلام؛ ولوقع عمل عنفي ليس رداً على عمل عنفي آخر يتبادل فيهما الضحايا والمرتكبون الأدوار، بل رداً على قصة موخية تقول إن 99.99 بالمئة من الفلسطينيين والإسرائيليين لم يرتكبوا أي عمل عنفي في ذلك اليوم.

قد يكون الخوف توقاً يتحقق بذاته، ولكن يمكن للأمل والثقة أن يكونا كذلك أيضاً. ما الذي يحدث لو توقفت النشرات الإخبارية عن عرض مشاهد مسببة للخوف إفساحاً في المجال أمام عرض أمور دنيوية توحى بالأمل والثقة؟ وكم عدد الأشخاص الذين سيستمررون بفقدان السيطرة على أعصابهم إذا عرفوا أن أحداً لن يسمع عن تضحياتهم لأن وسائل الإعلام تتجاهل الأمر؟

مع ذلك، لم أحاول أبداً طرح وجهة نظر موازنة، ولكنني كتبت مرة واحدة فقط عن الأمر في صفحات الرأي. لقد امتنعت عن ذلك لثلاثة أسباب، أولها وجهة نظري الخاصة عن الصحافة: لو أردتُ تغيير العالم بدلاً من إظهار حقيقته، لعبّرت عن وجهة نظري وأصبحت فتاناً. أعرف زملاء صحفيين قاموا بذلك، كما أعرف ناشطين قاموا بخطوة معاكسة. «كل شيء يبدأ مع وسائل الإعلام»، قالوا. «نحن نأتي في الدرجة الثانية».

يُظهر هذا التعليق قلة المعلومات التي يملكها بعض الناشطين لصناعة الخبر. وعدم رغبتني في إجراء أي تعديلات أو طرح أي وجهة نظر موازنة هي السبب الثاني: يستحيل تقريباً القيام بذلك. الفكرة الشائعة عن المراسلين هي أنهم «يملكون القصة»، ولكن الخبر هو حزام ناقل في مصنع للخبز في الواقع. فيقف المراسلون عند نهاية الحزام الناقل، مدّعين أننا خبزنا ذلك الرغيف الأبيض بأنفسنا، في حين أن كل ما قمنا به في الواقع هو تغليفه.

خذوا تلك اللقطات التلفزيونية الفيديوية التي يضيف فيها المراسلون - على غراري - صوتهم إلى المشاهد: «يوم دموي آخر في الشرق الأوسط. لقد قتلت إسرائيل خمسة فلسطينيين اشتبه بارتكابهم

أعمال إرهابية. ووفقاً للسلطة الفلسطينية، كانوا رجال شرطة عاديين». فالمحررون وليس المراسلون هم من يتخذون القرار في شأن معالجة هذا الموضوع بالذات. لقد زوّدتهم وكالات الأنباء بقصة جاهزة مع نص تمهيدي، وصور، ومعلومات إضافية. ويعقد المحررون اجتماعاً لمناقشة القصة، وعندها فقط يتم الاتصال بي. ويمكنني اقتراح مواضيع، ولكن القرار يعود لهم في النهاية، وتستند الصور المرافقة في المقام الأول على المواضيع التي اختارتها وكالات الأنباء والسي أن أن.

يتبقى لديّ منبر واحد يمكنني من خلاله سرد نسختي الخاصة عن الحدث للرأي العام: مداخلتني خلال نشرة الأخبار التلفزيونية. «إلى مراسلنا في القدس. جوريس، ما هي نتائج عملية السلام؟» في هذه الحالة، يتعين عليّ توفير إجابات مُسبّقة عن الأسئلة المطروحة في هذه الحوارات، لذلك يكون النص المختار من مسؤوليتي. مع ذلك، يتأكد رئيس التحرير من أن تكون روايتي للحدث مرتبطة بالخبر، وما الذي يمكنك إخباره في ثلاث دقائق وخمس وأربعين ثانية؟ يمكن لقارئ الصحيفة التحديق بالسقف، والتفكير ملياً، وإعادة القراءة، والتفكير ثانية، وإكمال القراءة. أما بالنسبة إلى الأخبار التلفزيونية الكلية القدرة، فيلقى بكل شيء إليك في وقت واحد، ولا يلفت حديث الرأس المتكلم نفسه لمدة سبع دقائق انتباه أحد، ولا حتى انتباه الرأس المتكلم نفسه. ويمكنك مراجعة نص مكتوب، وعرضه على أحد الزملاء، والتخلي عنه في النهاية. أما في مداخلة، فعليك تفادي الخطأ منذ محاولتك الأولى حتى وإن كنت تدرك أن الجمهور لا يعرف شيئاً عن الموضوع، علماً أن زلّة لسان واحدة قد تحوّل انتباه المشاهدين عن فكرتك الرئيسية. وتعلم أيضاً أن ممارسي الضغوط وواضعي الرسائل الغاضبين يجلسون أمام التلفاز مع رُزم من الأوراق ومسجلات أقراص دي في دي جاهزة للعمل.

يقول لي زملائي في المحطة التلفزيونية إنك لا تستطيع إجراء مداخله جيدة إلا بالممارسة وإنه عليّ تعلّم كيفية التطرق إلى جوهر الأمور. فهذا بالتحديد ما تقوم عليه الحرب الإعلامية. هل إن جوهر المشكلة الاحتلال أم الإرهاب؟ هل تدور الحرب لأجل الأمن اليهودي أم الحرية الفلسطينية؟ لقد أصبحت متمرساً بهذه القضية في الواقع، ولكن الأمر مرتبط بالموافقة على الإعلان عن عدد الأشخاص الذين طالهم الانفجار، وليس على التطرق إلى سبب الانفجار.

السبب الثالث لعدم محاولة طرح وجهة نظر موازنة هو الأهم: لم أعد أفهم الوضع. لقد بدا لي أن إسرائيل تحصد كل شهر كافة جوائز الأوسكار تقريباً في هذه الحرب الإعلامية، ويمكنك القول إنه كان يُفترض بي إيجاد ثقل موازن لهذا التفوق. هناك على الدوام مواطنون بارزون في الميدان السياسي أو في وسائل الإعلام الهولندية مستعدون لشرح الأحداث من المنظور الإسرائيلي. فإذا فاز حزب العمل في الانتخابات، يقولون إن إسرائيل اختارت السلام؛ وإذا فاز الليكود، يقولون إنه سيكون باستطاعته تحقيق السلام بسبب تشدّده. كنت أصادف بانتظام أموراً مماثلة في المقالات: «قلبي مع الشعب اليهودي، ولكنني أظن أيضاً أنه يجب إيجاد حل للفلسطينيين». ونادراً ما كنت أسمع العكس: «قلبي مع الفلسطينيين، ولكنني أظن أيضاً أنه يجب إيجاد حل لليهود». فمناقشة حق إسرائيل بالوجود هو أمر محظور عملياً في هولندا، في حين أن طرح مسألة ما إذا كان يُفترض بالفلسطينيين الحصول على دولة هو أمر مقبول تماماً.

كان انطباعي الأول أن هولندا موالية لإسرائيل. ولكن في عامي الأخير كمراسل، سمعت هولنديين بارزين يقارنون إسرائيل بالنازيين،

وأظهر استطلاع رئيسي للآراء في أوروبا أن نسبة كبيرة من أولئك الذين طُرحت عليهم أسئلة اعتبروا إسرائيل «أحد أكبر الأخطار المُحدقة بالسلام العالمي». ما الذي يجري؟ ما هو التحريف الرئيسي في الأراضي المقدسة في الواقع، الخطوات الإعلامية المتخذة من قبل النظام الإسرائيلي، أم التركيز غير المتناسب على الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان التي توحى للناس كما يبدو بالفكرة القائلة إن أموراً مروّعة حقاً تجري في الأراضي المقدسة؟

هكذا، وبعد مقارنة أخرى بالنازيين، كتبت لمرة واحدة فقط مقالة غاضبة في صفحات الرأي. كنت بحاجة في الواقع إلى التنفيس عن اعتقادي أن هذه المقارنة لا صلة لها أبداً بالفكرة الرئيسية وأنها تزيد فحسب من خوف اليهود الإسرائيليين على وجودهم. وكنت قلقاً أيضاً من أن يكون عملي الخاص قد أسهم في رسم صورة إسرائيل كالدولة الأكثر تسبباً بالأذى في الشرق الأوسط. لقد كتبت صفحات و صفحات عن الانتهاكات الإسرائيلية، ولكن نادراً ما كان يجري العرض لأعمال القمع والمجازر الأكثر بشاعة التي ارتكبتها الحكام في المناطق المجاورة، أو يتم التخفيف من حدتها كثيراً.

لهذا السبب، شعرت بالحاجة إلى الإشارة إلى أن النازيين قتلوا يهوداً في شهر واحد أكثر من الخسائر البشرية التي مُني بها المدنيون الفلسطينيون في نصف قرن؛ وأن النظام الإسرائيلي لم يحاول أبداً إبادة الفلسطينيين؛ وأن الصحافة الإسرائيلية والسياسيين الإسرائيليين «يجردون حقاً الفلسطينيين من صفاتهم الإنسانية» ويعتبرونهم مجموعة وضيعة من الناس؛ ولكن ملايين العرب الإسرائيليين في إسرائيل ينعمون بحكم القانون أكثر مما ينعم به العرب المقيمون في أي مكان آخر من المنطقة. لقد انتهكت إسرائيل القوانين، ولكن حكام المنطقة لا يملكون

أي قوانين. فمن الأفضل لك أن تكون عربياً في ظل حكم إسرائيلي على أن تكون كردياً في ظل حكم صدام حسين.

كانت مقالة قوية، وأسفت على نشرها على الفور. فهي لم تولد ردود فعل غاضبة فحسب: «بأي حق يعتقد مراسلكم أن عليه تشخيص الخوف الموجود في قلوب اليهود على وجودهم؟» بل إن محرراً صحافياً ربّت على ظهري في حفل عشاء وقال: «ذلك التعليق الذي كتبتك عن تمتع الفلسطينيين بحقوق في إسرائيل أكثر من أي بلد آخر في المنطقة كان مفيداً لي جداً. أحسنت!» فشحب وجهي، وقلت إنني كتبت عن الواقع القانوني للعرب الإسرائيليين وليس عن الفلسطينيين في المناطق المحتلة. ولكن الرجل لم يستمع إليّ البتة. كانت الحرب الإعلامية مجرد مباراة بالنسبة إليه، ووجهة نظره ثابتة، ويبحث عن حجج تدعمها.

لم يُحدث الأمر أي فرق لأنني كنت قد أرسلت تقريرتي، وكنت أنتظر طبق التحلية بعد تلك السنوات المثيرة الخمس أي الاجتياح الأميركي للعراق.

منافٍ للعقل وغير مألوف

يتحدث العرب عن القشة التي قصمت ظهر البعير، ويتحدث الهولنديون عن القطرات التي أفاضت دلو ماء. لم يكن هناك ما يُعيقني، ولكنني شعرت فجأة بوجود ما يكفي من الأمور التي تحمّلني على التفكير ملياً، وقررت التوقف. فبعد كل هذه السنوات، أردت العيش مجدداً في وطني لمدة من الزمن. وسألني شخص من فريق التحرير عن السبب؛ ألن أتمكن من التعاطي مع الأمر؟ كان جوابي لا.

لم يكن الأمر كذلك، أو ربما كان كذلك. فما لم يعد باستطاعتي التعاطي معه هو أنني أتحسن في التعاطي مع الأمر. لقد أطلعتني الأراضي المقدسة على ما تعانیه من ظلم وجور، وما تتعرض له من حماقات، وعلى الخوف المُهلك الذي تشعر به. في البدء، كنت شديد الاهتمام بهم، ولكن هذا الاهتمام زال بعد مدة من الزمن. بعد ذلك، اكتشفت أن اعتيادي على الأمر لا يمكن القبول به؛ حتى زال هذا الشعور أيضاً. في لحظة وضوح، سألت نفسي عن مدى استعدادي لأكون فاقد الحسّ.

في مرحلة مُبكرة، تعرّضت لصدمة كبيرة في الأراضي المقدسة.

كنت غاضباً من المقاومة الشديدة التي أبدتها العديد من الإسرائيليين حيال اعتبار أنفسهم مرتكبين أيضاً؛ ومن ممارسة التمييز العرقي بحق العرب؛ والقومية الهستيرية التي تُبديها الدولة اليهودية من حين لآخر... كنت غاضباً أيضاً من واقع أن التلفزيون الفلسطيني يكرر إلى ما لا نهاية صور الأطفال الدارجين الذين تحوّلوا إلى أشلاء بعد تعرّضهم لإطلاق النار.

أنت تعتاد أيضاً الشعور بالعزلة. فغالباً ما كان ينمو لديّ انطباع بأنني أخطو في عالمين متوازيين: تصوّري للواقع، التصور الفلسطيني، التصور الإسرائيلي، وتصوّر وسائل الإعلام الغربية. وتبدّلت كلماتي من دون أن يلاحظ أحد ذلك من أخرج ومخبول إلى منافٍ للعقل وغير مقبول. وظهرت خبرتان خاصتان.

كانت إسرائيل تُقيم حواجز على الطرقات بانتظام داخل المناطق الفلسطينية. فيقول مذيع الأخبار أمراً مماثلاً: «بعد الهجمات، ضاعفت إسرائيل على الفور تدابيرها الأمنية» مرفقة بمشاهد لجنود يدقّون ببطاقات هويّة الفلسطينيين. وغالباً ما كنت أقف في شارعي وأراقب أحد حواجز الطرقات تلك. كانت السيارات الفلسطينية تصطف لساعات أحياناً. ومع ذلك، وعندما تبلغ السيارة مركز التفتيش، لم يكن الجنود الإسرائيليون ينظرون إلى داخلها. لم يكن يتم تفقّد الصندوق أو أي مكان آخر يمكن للشخص إخفاء متفجرة فيه. وكان بإمكان المشاة عبور الحاجز من دون إبراز بطاقات هويتهم. ويزداد الأمر غرابةً. ففي حين تكون حركة المرور معرّقة بسبب صف طويل ومتعرّج من السيارات المتوقفة عند الحاجز، يخترق صف آخر من السيارات المنطقة المجاورة. هنا، يشق السائقون طريقهم عبر أزقة ضيقة مما يؤدي إلى ازدحام. وفي النهاية، يتطلب اجتياز الطريقتين الوقت نفسه تقريباً، وكان يسهل مقارنتهما لأن

المنعطف غير السريّ ينفذ إلى ما بعد الحاجز على بُعد مئة وخمسين متراً منه، وبمراى من الجنود الإسرائيليين ومني.

هذه هي التدابير الأمنية التي عطلت حياة الفلسطينيين العاديين، مع ما يستتبع ذلك من عواقب مُهلكة لأن سيارات الإسعاف تُحتجَز أيضاً. كنت أصف بلا انقطاع حقيقة هذه الحواجز، ولكن بما أن وكالات الأنباء تعتبر حواجز الطرقات تدابير أمنية، فقد استمر محررو البرامج الإخبارية التلفزيونية المؤثرة برؤية هذا الواقع ونقله إلى العالم من منظار مشوّه. كنت أقوم أحياناً بنزهات في أرجاء رام الله للوقوف على الجوّ السائد. هل هناك سيارات باهظة الثمن في الشارع؟ هل هناك كثافة سيارات؟ بأي نوع من النظرات يرمقك الناس؟ في إحدى هذه النزهات، مررت بفندق سיתי إن حيث كنت أقصد المنطقة في أغلب الأحيان لتغطية «الاشتباكات بين رماة الحجارة الفلسطينيين والجيش الإسرائيلي». لكنه كان مُقفرّاً لأنه لم يكن باستطاعة أي جندي إسرائيلي دخول رام الله حينذاك، وفندق سיתי إن قائم عند حدود المدينة. لم أكن أعرف من الذي قدّم أولاً، ولكن جيّات عسكرية إسرائيلية ظهرت فجأة على التوالي - لا بد من أنه كان عليهم مغادرة حواجزهم للقيام بهذا الأمر بالتحديد، وتلاها بعد ذلك تلاميذ فلسطينيون قطعوا مسافة كبيرة من مدرستهم سيراً على الأقدام، وظهر عدد قليل من المتفريجين، وسيارة إسعاف، ومنصة لبيع الفلافل، وفريق تصوير. ومن ثم، بدأ الفتیان برمي الحجارة، وقام الإسرائيليون بإطلاق النار في الهواء. فجرؤ الفتیان على الاقتراب، وأطلق الجنود الإسرائيليون النار على أحدهم وأردوه، وسيارة الإسعاف تَعول، والفتیان يصيحون، والكاميرات تصوّر.

مرحباً جميعاً! هل كانت الكاميرات هناك لأن أمراً ما يحدث، أم أن أمراً ما حدث لأن الكاميرات كانت هناك؟ كنت أشعر أحياناً كما لو

أنني أعمل لصالح برنامجي سبائي تي في أو كانديد كاميرا. فالمنتجون والمشاهدون يعرفون ما لا يعرفه الناس الذين يتم تصويرهم، وهو أمر مضحك. فالنشرات الإخبارية في الشرق الأوسط متماثلة أيضاً ولكن من منظور مختلف من زاوية خمس وأربعين درجة. في هذه الحالة، يظهر المنتجون واللاعبون على شاشات المشاهدين في المنازل. في الدول العربية، لا يكون المرسلون راغبين في الكشف عن الأمور التي لا يعرفونها، ولكن المرسلين في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة يُيقون أفواههم مُطبقة حيال الأمور التي يعرفونها. بأي حال، لم أقرأ أبداً ولم أسمع بتصريح مماثل: «اقترحت الحكومة الإسرائيلية أن تُظهر هذا المستوطن على الهواء مباشرة» أو «وُفرت السلطة الفلسطينية لنا هذا النسب الناجي».

لم يكن باستطاعتي الشعور بالاستياء من الأمر، كما أن ذلك الشعور بالعجز أصبح عادياً جداً. كان الناس في الأراضي المقدسة يعانون، وقد لاحظت ذلك من خلال طريقة عبورهم الشارع، وفي نظراتهم التي لا تحمل أي تعبير في الحافلة، ومن خلال طريقة صدم عربات التسوق الخاصة بهم بعربتك... أو بكيفية قيام السيدات المسنات الإسرائيليات بعبور الشارع بمشية متعثرة عندما يقترب شخص ذو ملامح عربية، أو بكيفية إخفاء التلاميذ الفلسطينيين خوفهم عندما تحلق طوافة إسرائيلية فوق رؤوسهم، لأن الخوف لم يكن مكبوحاً. كانت وجوه العديد من الأشخاص تستصرخ حلاً، ولم يكن بإمكانني القيام بأي شيء. وكان آخرون - مستوطنون، ناشطون في ميدان السلام، أصوليون من المنطقتين - يبذلون ما بوسعهم لفرض حلولهم، وكلهم يعرفون ما الذي يتعين عليهم القيام به ويعتبرون أن عدم الثبات على مواقفهم يستدعي غضب الله؛ فكلما دفع أحدهم بقوة في اتجاه، يدفع الآخر بقوة أكبر في الاتجاه

الآخر. كان الأمر مُرهقاً لمدة من الزمن، ولكنني اعتدته.

يستجيب الناس للتهديدات بالقتال أو الفرار، ولكن الصحفيين لا يقومون بأي من الأمرين، مما يعني أنه كان عليّ إنكار الواقع وبعض الإشارات التي يرسلها دماغي. شرعت في عملي كشرطي مُرهق يتجاهل مشكلة ما في الحيّ، فينجح الأمر لفترة وجيزة، ولكن الخروج عن القانون ينتشر حتماً من شارع إلى شارع ويطال المدينة بأكملها. لا بد من أنني واجهت أمراً مماثلاً أيضاً. أولاً، لقد توقفت عن الشعور بالخوف، ولكن نواحي أخرى من جهازي العاطفي تحركت بعد استمرار التهديد. لقد أخبرني صديق في لبنان أن الحرب الأهلية عطلت حسّه بالواقع بشكل دائم. فقال لي: «لتنجو، عليك إقناع نفسك أن الواقع مختلف عما هو عليه في الحقيقة. فينجح الأمر وتنجو. ولكن كيف تكتشف بعد ذلك ما كان عليه ذلك الواقع... وما هو عليه؟»

في العام الذي قضيته هناك، قُتل مزيد من الصحفيين في الأراضي المقدسة أكثر من أي مكان آخر. ففحصت فئة دمي، وتعلمت كلمات إنكليزية جديدة مثل قبلة عنقودية، ورساصات طائشة، وتأمين ضد مخاطر الحرب؛ لا تغطي البوليصة «أضرار الحرب»، لذلك كان عليك دفع مئات اليوروات كتأمين شامل. وحصلت على سترة واقية من الرصاص وخوذة، ولكن تعرف كيف يكون عليه الحال. فتلك الأشياء ثقيلة للغاية، وسرعان ما تمثّلتُ بمعظم زملائي الصحفيين، عندما تقوم الكاميرات بالتصوير، أعتمر خوذتي وأرتدي سترتي، ومن ثم أضعهما في السيارة. لقد شعرت كما لو أن قرداً يرتديهما ويتنقل وسط الفلسطينيين الذين لا يرتدون أي وسيلة للحماية.

هكذا اجتزت دورة العنف بسلام. وأرى الآن أنني نجوت من تلك

المرحلة كما لو أن السترة الواقية من الرصاص لم تكن ضرورية، وأن كل شيء ليس سوى استعراض، إنتاج مسرحي غير محترف يتعين عليّ الارتجال فيه. كان دوراً ذهنياً استمرت بلعبه مهما حدث.

كنت أقيم في منزلي الجديد في القدس الشرقية قبل أسابيع قليلة عندما حصل انفجار عند تقاطع طرق على بعد 150 متراً من منزلي. كان الهدف موقفاً للحافلات ينتظر فيه المستوطنون نقلهم إلى منازلهم. فوقفت هناك على سطح منزلي أشاهد الفوضى العارمة التي عمّت المكان وقفت والهاتف الخلوي بيدي أُجري بواسطة اتصالاً بالاستوديوهات: «ماذا قلت؟ أمام بابك مباشرة؟ انتظر قليلاً، سأسأل الرئيس... يقول إنه إذا كان هناك العديد من الإصابات سنقوم بأمر ما حيال ذلك، ربما بعد السادسة والنصف؛ يعتمد الأمر على ما إذا كان ذلك النقاش البرلماني سيتهي في تلك الفترة أم لا... تبا، آسف، هناك من يتصل. إنها جاكارتا، حظاً سعيداً، آه».

بعد أسبوعين، انفجرت قبلة أخرى في المنطقة، واستهدف تقاطع الطرق نفسه ثانية. في المرة الأولى، لقي مرتكب الهجوم حتفه بمفرده، وأصيب خمسة وعشرون شخصاً بجراح. في المرة الثانية، قُتل سبعة إسرائيليّين مع المهاجم، وعثر جاري على يد في حديقته. «أخرج من هناك»، قد تقول في نفسك، ولكن بدلاً من حزم حقائبي، درست السلوك والشعائر المرافقة لهجمات مماثلة كما يفعل عالم الإنترنتولوجيا.

لقد بدأ الأمر مجدداً من السكون، وعلت من ثم صيحات الناجين، وُسْمِع صوت صفارات الإنذار التي انطلقت من كل مكان وكأن المدينة برمتها تصرخ ألماً. في العادة، يكون أشخاص من «نجمة داود الحمراء» أول من يصلون إلى المكان. ويضع هؤلاء المتطوعون في الصليب الأحمر اليهودي قطعاً طويلة من القماش بجانب الجرحى لتعلم الفرق

الطبية من يتعين عليها معالجته في المقام الأول؛ الأحمر يشير إلى الوضع الحرج للمصاب، والأسود يعني أن المصاب متوفٍ. «عليك أن تقرر في جزء من الثانية من الذي ستقوم بمحاولة إنقاذه»، قال لي أحد المتطوعين، «ومن الذي لن تحاول إنقاذه». وتقوم الشرطة بوضع أغطية على الجثث، في حين يُدلي الناطقون الرسميون الذين يكونون قد وصلوا بسرعة فائقة بتصاريح لفرق التصوير الذين يكونون قد وصلوا بالسرعة نفسها. بعد ذلك، يصل عدد قليل من الناشطين وهم يُطلقون هتافات: «الموت للعرب، ليتنصر الجيش، لا عرب يعني لا إرهاب». وبعد عودة كل هؤلاء الأشخاص إلى منازلهم لتناول العشاء، يصل فريق الزكا، وهي منظمة يهودية مؤلفة من متطوعين يجوبون المنطقة المجاورة للحدث بحثاً عن أعضاء، وأطراف، لا بل بُع دماء أيضاً، ويقومون بدفنها وفقاً لقوانين دينهم. ويتولى الجهاز المولج مهمة صيانة البنية التحتية بإزالة آثار التفجير المتبقية بسرعة فائقة بحيث يكون باستطاعتك المرور بالمكان في اليوم التالي من دون رؤية أي أثر.

لماذا لم أعاد؟ في كتابه من بيروت إلى القدس، يناقش توماس فريدمن، مراسل النيويورك تايمز، الحرب الأهلية اللبنانية الدموية. فيصف عشاء أنيقاً تسأل فيه المضيفة السؤال التالي: «هل تناول الطعام الآن أم ننتظر وقف إطلاق النار؟» لقد أصبحت الحرب والإرهاب أمرين طبيعيين: تخصص لهما مكاناً في حياتك لأن هذا ما يقوم به الآخرون. وقال فريدمن إنه سبب عدم مغادرة اللبنانيين بينما تتطاير الأطراف في الهواء، أطراف الأشخاص الذين كانوا قد قالوا لشركائهم في صباح ذلك اليوم الأمر التالي: «لا تقلق بشأنني، يا حبيبي. تعرف أنني دائم الحذر».

كان الخطر يحدق إليّ باستمرار بالرغم من احتراسي، ولكنني أصبحت أقل اهتماماً به. كنت أعلم أن الناس يموتون كل يوم، ولكنني تعلمت الاتفاق مع الحاصد المروّع. وقد منحني هذا الأمر روح التحكم بزمام الأمور وشعوري بالأمان؛ ما دمت لا أفكر فيه بالطبع. فهل يُفترض بي أن أقود سيارتي إلى المنزل من مطار بن-غوريون سالكاً الطريق عبر إسرائيل التي تشهد ازدحاماً كبيراً أحياناً طوال ساعات، أم يُفترض بي سلوك الطريق الخاصة بالمستوطنين اليهود التي تعبر المنطقة المحتملة؟ فهذه الأخيرة توصلني إلى منزلي بسرعة أكبر، ولكن هناك قنّاصة فلسطينيون في محيطها لا يتحققون أولاً مما إذا كان مستوطن يهودي يقود السيارة أم لا؛ يكتشفون ذلك في وقت لاحق من خلال نشرات الأخبار. من جهة أخرى، ما هي فرص عدم تعرّض سيارتي لإطلاق النار؟ هل يُفترض بي أن أستقل سيارة أجرة إلى شاطئ تل أبيب، أو الحافلة الأرخص أجراً بعشرة أضعاف، علماً مني بوجود إمكانية تبلغ نسبتها 0.0001 بالمئة لإصابتها بشظايا؟ هل يُفترض بي التوجه إلى المتجر الفلسطيني الذي لا تتوافر فيه كل السلع وأسعاره مرتفعة، أم إلى السوبرماركت الإسرائيلي الأرخص سعراً حيث تتوافر كل السلع، ولكن هناك إمكانية ضئيلة ليكون هدفاً لاعتداءات؟

هذا هو الوضع الحذر الذي أقحمت نفسي فيه، ولكل شخص طريقته الخاصة لإتمام أعماله. لقد دعاني أحد الأصدقاء، وهو عالم فيزياء نظري، إلى العشاء ذات مرة في القدس الغربية اليهودية؛ غير الآمنة. كيف يُفترض بمراسل صلب العود الاستجابة للدعوة؟ فشعر بتردي وطمانني قائلاً إنه يعرف ما الذي يقوم به. فتقلنا بالسيارة في القدس الغربية، وعندما مررنا بجانب مطعم ذي نوافذ ضخمة بالقرب من الطريق صاح قائلاً: «ذلك المكان هو الموت بحد ذاته! انظر، يسهل دخوله؛ لا

بد من أن يكون الناس الذين يتناولون الطعام فيه انتحارين!» فوفقاً لما يقوله، يملك المهاجمون لائحة بالأماكن التي يمكن تفجيرها. «ينتقل أحد هؤلاء الأشخاص في الأرجاء بالسيارة مدوناً الأهداف المحتملة. حسناً، لقد حصل ذلك المطعم على نجمة!» وعُدَّ المعايير لوجبة آمنة: يُفترض بالمكان أن تكون مأكولاته لذيذة، وأن يكون الحجاب واقفاً بعيداً عن متناولي العشاء وإلا اكتفى المهاجم بالارتقاء عليه لاستهداف المتواجدين في المكان. ومن المساعد أن يكون هناك عرب إسرائيليون أيضاً داخل المطعم، ويُفترض تجنّب الطوابق السفلية والأماكن المغلقة لأن الانفجار الذي لا يجد متنفساً له إلى الخارج يُحدث دويّاً كبيراً، ولهذا السبب، يفضّل المهاجمون الأزقة الضيقة على الساحات. وبينما كنا نتناول الطعام، قال لي صديقي بعد ساعة ونصف من مناقشة مباريات كرة القدم، والنساء، وقوانين الجاذبية، إنه تناول القهوة في الأسبوع السابق في المقهى المحلي، ودفع وغادر، وسمع بعد ذلك دويّاً واستدار، فرأى انفجاراً. «لم أكن أتوقع ذلك»، قال، «ولكنه أمر منطقي. فمكتب رئيس الوزراء موجود في المنطقة، أرادوا توجيه رسالة. كان يُفترض بي التفكير في ذلك».

كل شيء مختلف في ظل الإرهاب، ولكن الأمر لن يكون كذلك مرة أخرى؛ فلدى إعادة التفكير في ما حدث، يتبين أنه الأمر الأكثر تسبباً بالدُعر. وبالرغم من التهديد الدائم، كانت تراودني الأفكار التافهة نفسها كالعادة. هل يتبقى لدى الجزائر بعض لحم الدجاج الخالي من العظام؟ هل أغظت زوجة السفير بسلوكي المخمور؟ هل سخر مني مالك المرآب ذاك؟ وقد ينتقل موضوع الحديث في حفلة للمغتربين من الرياضات ليتناول تلميحات عن المقاهي الموجودة في أماكن آمنة بعيدة عن الأنظار، أو عن طريق خلفي لم يتواجد أي قنّاص على امتداده، أو

عن مقهى اتخذ تدابير أمنية جديدة. ولا تتصل لتقول إنك نجوت من هجوم لأنه يتم إيقاف عمل شبكة الاتصالات بعد ذلك، ولكن الرسائل النصية تُرسل من دون أي مراقبة. وكانت هناك النبرة نفسها المعتمدة في أمستردام، والميل نفسه للتفوق على الضيوف الآخرين بأحدث الأفكار المثيرة. وهناك أيضاً قلق دائم ينكر الجميع وجوده. كنت شديد الحماسة للإنكار، وقد انسحب ذلك على عملي.

قضيت مدة من الزمن في رفح في قطاع غزة. فما يزال بإمكانني أن أتصور نفسي أومئ برأسي لزميلي وهو يصرخ بغضب: «لنخرج من هنا. لنخرج من هنا الآن!» أجل، أجل، وأومات برأسي مرة أخرى، دعني أنهي هذا الاتصال الهاتفي فحسب؛ تعرف مدى صعوبة الحصول على اتصال دولي في غزة. لكن العيارات النارية القريبة ازدادت ضجيجاً بحيث غدا من المستحيل إجراء محادثة عبر الهاتف، وكان عليّ إقفال الخط. عندها فقط، أدركت ما الذي يحدث: كان هناك إطلاق نار على بُعد خمسة وعشرين متراً. بالطبع، كنا نعلم أنه غالباً ما تجري مواجهات بين الفلسطينيين وقوات الحدود الإسرائيلية هنا، حتى في النهار. فهذا ما جئنا لأجله، وكان هناك ما يشير إلى حدوث تلك المواجهات في كل مكان؛ منازل فلسطينيين مجروفة، ثقوب أحدثتها الرصاصات، وهجمات بالصواريخ... كنت قد رأيت هذه المشاهد في البرامج التلفزيونية، ولم أتمكن من تخيل وجود رجال فلسطينيين من سني وسط هذه الأتقاض الإسمتية يحاولون إرداء نظرائهم الإسرائيليين الموجودين في أعلى أبراج المراقبة، وبالعكس.

كانت هناك رصاصات حقيقية تترّ في الأرجاء، ولكن الناس المقيمين في الجوار لم يكونوا متزعجين كما يبدو. ما داموا لم يلوذوا بالفرار، فهذا يعني أن لا خطورة في الأمر، وبإمكانني إنهاء اتصالي.

لكن الخوف بدا على زميلي وكان يرتجف بأكمله. فأحضر له فتیان الحی كرسياً، وأزوه كل اللصاقات التي حصلوا عليها من فرق التصوير الأجنبية التي التقوها. وشعروا بالملل بعد ذلك، وبدأوا بتقليد شفة زميلي المرتعشة. فصرخ أحد الفتیان «بو!» وأدعى البقیة أنهم خائفون: «أه، كم هو مخيف!»

حاولت الاتصال بالصحيفة مجدداً لأنه سيكون من المستحيل وضع مقالة، وعليهم معرفة ذلك. ولدى التحدث عبر الهاتف، أميل عادةً إلى السير ذهاباً وإياباً. لذلك، وبينما كنت متجهاً نحو أرض المعركة بسبب توقف إطلاق النار، صاح الفتیان: «لا، يا سيداً!»

اقترب العنف أكثر فأكثر. وفي ذروة أكبر موجة من الهجمات التي تعرّضت لها القدس، كنت أقصد الجزء اليهودي من المدينة فقط عندما يكون عليّ إجراء مداخلات لصالح المحطة التلفزيونية. وهكذا، وجدت نفسي في صباح 1 نيسان/ أبريل المشرق على بُعد أمتار قليلة من مكان حدوث أحد الهجمات. بعد ذلك على الفور، اتصلت بغرفة الأخبار لأقول إنني قد أتأخر على فقرة سؤال وجواب المباشرة. فاستقلّيت سيارة أجرة على عجل، وركزت على ما سنقوم بمناقشته؛ كنت قد طلبت عدم الإشارة إلى هذه المتفجرة. فوصلت في الوقت المحدد، وقال زملائي في الوطن إنني أبلت بلاءً حسناً كالعادة. بعد ذلك، ذهبت لاحتساء شراب في فندق بالقدس الشرقية مع عدد قليل من الزملاء في أن أو أس. لقد زالت الصدمة الأساسية، وعدت للتقليل من أهمية الأمور من خلال إطلاق ملاحظات ساخرة مثل، «هناك متفجرة خلفك... كذبة أول نيسان/ أبريل!» أو إطلاق دُعابات عن دعوة الفلسطينيين هجوماً فاشلاً «متفجرة فلافل»، وأن الهولنديين يدعون شارع بن يهودا شارع إلزَم الحذر.

لم أعد إلى المنزل حتى بعد ما مررت به. لقد أصبحت أكثر احتراساً، ولكن هذا الحذر الشديد زال في العام التالي. فالعيش والعمل في منطقة حرب هو أمر مماثل للاستحمام بمياه ساخنة تستمر بسكبتها على جسدك، وبعد قليل يغدو الأمر أكثر سخونة من أي شيء آخر دون أن تتمكن من التخلص من هذا الوضع.

القسم الثاني

الفصل الثالث عشر

دمه جديدة، أسلاك قديمة

لو لم تقم الولايات المتحدة باجتياح العراق، لما تمكنتُ أبداً من البدء بوضع كتاب عن الفلتر، والتحريف، والمناورة المعتمّدة من قبل وسائل الإعلام لدى عرضها للأحداث. ولكن الحرب العراقية كشفت عن فلتر لم ألاحظ وجودها حتى ذلك الحين، وقد حدث الكثير من الأمور بسببها. كانت الفترة المؤدّية إلى الحرب إعادة عرض سريع لخبراتي الأولى في العالم العربي والأراضي المقدسة؛ لقد اكتسبت الدمى أسماء جديدة ولكن الأسلاك المتصلة بها مألوفة.

اتضح لي في الكويت أن أعمال الفلتر والتشويه والمناورة التي شهدتها السنوات السابقة لم تكن أحداثاً عرضية بل نموذجاً يُحتذى. كان الجيش الأميركي منشغلاً هناك بإعداد الجنود الذين سيجتاحون العراق في غضون أسبوعين. ووصلت إلى الفندق في منتصف الليل، وتنقلت بين القنوات التلفزيونية من خلال جهاز التحكم عن بُعد، ولاحظت على الفور انحرافاً مألوفاً في اللغة. هل كنت في العراق، المقاطعة التاسعة عشرة، أم في دولة الكويت الصغيرة؟ وتطرقت السي أن أن والمحطات العربية إلى حرب الخليج، ولكن كم عدد المراسلين الذين كانوا هناك

في الواقع؟ لقد بدأت المنطقة نفسها بتعداد الحروب بدءاً بالحرب الإيرانية-العراقية في الثمانينيات؛ وتلى ذلك الاجتياح العراقي للكويت عام 1990 وتحريرها من قبل الأميركيين بعد ستة أشهر، مما يجعل من حرب التحرير حرب الخليج الثالثة. ولكن السي أن أن اعتبرت حرب الخليج الثانية لأن أميركا لم تتورط في الحرب الإيرانية-العراقية.

كان اختيار الكلمات يشير إلى وجهة نظر معيّنة، وظهر هذا الأمر جلياً في النصوص القائمة تحت الصور التي تكوّن فكرة عن الوضع بثلاث أو أربع كلمات. فدعا القناة التابعة لحزب الله حرب الخليج الثانية «الحرب على العراق»؛ ووضعت فوكس نيوز الأميركية الاجتياح في سياق «الحرب على الإرهاب»؛ واعتمدت السي أن أن عبارة «ضربة موجهة للعراق»؛ ولم يحد التلفزيون العراقي عن عبارة «الحرب الأخيرة». وصدّق مشاهدو كل محطة أن التعابير المعتمّدة تشرح الجوهر الحقيقي للنزاع. ولا بد من أن تكون كل مجموعة من الوثائقين بصحة ما يسمعون ويشاهدون قد ظنت أنه من الرائع نقل الوقائع بشكل موضوعي أخيراً.

ذكرتني أيضاً طريقة وضع قطع الشطرنج في هذه الحرب بالأراضي المقدسة. فأميركا متفوقة على العراق عسكرياً بقدر تفوق إسرائيل على الفلسطينيين عسكرياً، ولكن إزالة بغداد عن الخارطة بين ليلة وضحاها أمر مستحيل. أولاً، يجب إعداد الرأي العام العالمي للأمر. لقد كانت حرباً إعلامية أخرى، ولكن على نطاق أوسع، كما اكتشفت في صباح اليوم التالي في مركز الصحافة الذي أنشأه الجيش الأميركي في فندق شيراتون في مدينة الكويت. فجلست في مكاني على كرسيّ غير مريح قابل للطّي بين حوالى مئة وخمسين مراسلاً. بعد ذلك، ظهر ناطق رسمي عسكري ماهر وواثق بنفسه، وعرض بإيجاز لكافة التطورات الأخيرة

بإتسامة كبيرة. كان معظم زملائي يأملون في دخول العراق كصحفيين مُلحّقين بوحدات الجيش الأميركي، وقد جاؤوا إلى الشيراتون لمعرفة ما إذا كانت هناك أي تفاصيل مؤكّدة. ولكن لسوء الحظ، لم يكن باستطاعة الجيش قول أي شيء بعد، قال مسؤول العلاقات العامة بتهذيب، ناهيك عن أي صحفي يمكنه الانضمام إلى أي وحدة. «أريد منكم أن تكفوا عن القلق»، اختتم. «سوف نتأكد من أن يقوم رؤساؤكم بالدنو منكم بعد الحرب والتربيت على ظهوركم والثناء على العمل الجيد الذي قمتم به».

انتهى المؤتمر الصحافي الموجز. وخلال وجبات الطعام السريعة المجانية، التقيت صدفة بمتمرّس مُحبّط في التلفزيون الهولندي. لم يكن للجيش الأميركي أي سبب لوضع صحفي من دولة غير ذات أهمية كدولتنا في وحدة جيش مثير للاهتمام. وكان الصحفي أمام خيار واحد: تملّق والتماس الناطق بلسان الجيش، وانتهاء الأمر بالصحفي بعد كافة أنواع التذلل في مستشفى ميداني في الكويت أو في منشأة في البحرين؛ أم يمكنه ممارسة الضغط من خلال وزارة الدفاع في لاهاي التي تتدخل لصالحك شريطة عدم إخراجها في وقت لاحق. وها أنت في الصحراء، معتمداً على الجنود المحيطين بك لتوفير الطعام والحماية لك، وبلغهم بعد ذلك أنك تحدثت في أخبار يوم الثلاثاء عن قيام ثلاثة من أولئك الجنود أنفسهم بانتهاك حقوق الإنسان بشكل خطر.

كوّن المؤتمر الصحافي، الموجز في الشيراتون، نظرتي الأولى الخاطفة على فولاذ ماكينه العلاقات العامة الأميركية المصقول، وظهر على شاشات التلفزة أكثر من ذلك. كانت الحكومة الإسرائيلية ممتازة في المناورة، ولكن مبتكري عالم ديزني يقومون بعملهم الآن. كان هناك أفضل المستشارين في ميدان الاتصالات، ومجموعة وافرة من الناطقين

الرسميين، وموارد لا محدودة... لقد وطئ أقوى قرد في الدغل الأرض بقوة في هذا المكان وليس في الكويت فقط. وكانت هناك عروض في مقر الأمم المتحدة مع دليل على وجود مصانع لإنتاج أسلحة عراقية، وسَّيل لا نهاية له من الاتهامات بتورط عراقي بهجمات 11 أيلول/ سبتمبر، وخطب غير عملية حول الديمقراطية. وقامت مؤسسات استشارية على علاقة بالحكومة بتزويد المحررين بالتقارير، ومقالات الرأي، وقنابل ذكية أخرى يطلقها جهاز العلاقات العامة. وأرسل مركز القيادة الرئيسي، وهو المقر الإقليمي لقيادة الجيش الأميركي، سيلاً غير متته من البيانات الرسمية إلى العالم انطلاقاً من قاعدة صغيرة في قطر أنفق مبلغ 250.000 دولار على إنشائها.

كم كان توجيه سبيل المعلومات احترافياً، وقد تردد صداه في التغطية الإعلامية بقوة ووضوح أكبر مما هو عليه الحال في الأراضي المقدسة. كان الغرب ذاهباً إلى الحرب، مما يعني اهتماماً شعبياً كبيراً ووجوب قيام وسائل الإعلام الغربية بملء برامجها الإذاعية وصفحات صحفها بأخبار الساعة، ولكن بأي معلومات إذا لم يكن هناك أي تطورات لوضع تقارير عنها؟ لقد وفرت السي أن أن الجواب عن هذا السؤال على أساس يومي: كان المقر الإعلامي للجيش الأميركي يوزع معلومات يومية نادراً ما تكون أخباراً ولكنها قابلة للنشر على الدوام. ويطلبون بعد ذلك من شخص صُوري آخر من السي أن أن الظهور في مركز القيادة الرئيسي: «لقد تأكد دخول سفينة القيادة التابعة للأسطول الثالث إلى الخليج العربي، وستكون جاهزة للمعركة في الساعات الإثنتين والسبعين القادمة. لا يمكن للمراجع العليا تأكيد أي شيء بالطبع، ولكن كل شيء يشير إلى وقوع هجوم وشيك. عودة إليك، يا جيم».

تمسك الأخصام بالسيناريو المتبع في الأراضي المقدسة، ولعب

العراقيون الدور الذي لعبه الفلسطينيون، مُظهرين سياسة إعلامية أكثر ضعفاً. فقد كان وزير الإعلام، الصحاف، يظهر كل يوم على كافة القنوات التلفزيونية ويوجه مزيجاً من الشتائم والتباهي («وفقاً لتقديري... سنذبجهم كلهم كالعادة»). وفي تعليقه باللغة العربية، استخدم الصحاف تعابير غريبة جداً لدرجة أنني لم أكن الوحيد الذي بحث عن معنى التعبير المهين الذي وجهه للأميركيين والبريطانيين - «علوج»: إنه تعبير مُبهم يعني حميراً غير مروّضين»، كما جاء في قاموسي.

كان الصحاف الغريب الأطوار صالحاً لمقالة قصيرة. ولكن كما هو الحال مع الفلسطينيين، تساءلت عما قد يحدث لو لفت صدام انتباه وسائل الإعلام بهدف تسجيل بعض النقاط: «أَتَهُمْ باستمرار بتطوير أسلحة دمار شامل سراً، ولكن لماذا لا يُسمح لي بذلك في حين أن إسرائيل يمكنها القيام به؟ لننظف كل المنطقة من أسلحة الدمار الشامل!»

كان بإمكان صدام ربما وضع هذا الاقتراح على الأجندة الغربية من خلال مكتب علاقات عامة لائق وجماعة ضاغطة من المتعاطفين. وبإمكانني تصوّر وابل من مقالات الرأي، والرسائل، والمقالات الصحافية، والتقارير الجاهزة. فأى حكومة غربية باستطاعتها المجاهرة أنها ضد انعقاد مؤتمر إقليمي لنزع الأسلحة؟ ولكنها ليست كنوع الحملات التي يخوضها صدام. فعلى غرار السلطة الفلسطينية، يمكن عزو خياره إلى طبيعة الحكم المعتمد كما ثبت بعد الحرب. لم يكن يريد صدام تنظيف الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل - بوصفك دكتاتوراً، يمكنك ممارسة قدر أكبر من النفوذ في الوطن إذا تمكنت من إخمد الثورات بضربة واحدة، كما أثبتت عملية تسميم آلاف الأكراد بالغازات في نهاية الثمانينيات، وانهارت المقاومة بعد ذلك - . لهذا السبب، سمح صدام باستمرار الانطباع الدولي أنه يمتلك ذلك النوع من الأسلحة إلى أن بلغ

النهاية المريرة: كان بالإمكان تجنّب حدوث عصيان مسلّح بين أتباعه. إنها وجوه جديدة، ونماذج قديمة. مرّة أخرى، لم يُسمح للمنظمات الأصولية اللا عنفية بالتعبير عن آرائها. وسمح هذا الأمر للحكومة الأميركية بالجزم أن صدام يعمل مع القاعدة، وأن إزالة النظام العراقي سيكون ضربة قاسية للإرهاب. ولو كان القسم الأكبر من الرأي العام الغربي على علم بالهدف الرئيسي للقاعدة المتمثل بالإطاحة بالحكام العرب العلمانيين مثل صدام حسين، لكان من الصعب ربما تسويق الجزم الأميركي. كانت المعارضة الداخلية في العراق مؤلفة من أصوليين في الواقع.

استمرت الأمور المتماثلة بالازدياد. كنت راغباً في إلقاء نظرة على أرجاء بغداد، ولكن طلبي المقدّم للحصول على تأشيرة دخول رُفض تكراراً - إحياء مألوف وهو أمر لا يمكنك شرحه للأعلى مرتبة وللنقاد الذين لم تكن لديهم أي خبرة مباشرة مع النظام. كيف يكون باستطاعة ملكة جمال ألمانيا زيارة العراق من دون أن يكون باستطاعة صحيفة أن أر سي القيام بذلك؟ كنت قد أجريت اتصالات، ووجهت رسائل فاكس، وعرضت رشوات طوال أسابيع متتالية... ولكن لا بد من أن يكون شخص ما في وزارة الإعلام العراقية قد وضع إشارة بجانب أن أر سي. لقد دخل كل مزوّد وسائل الإعلام الهولندية بالأخبار إلى العراق في الأشهر التي سبقت الاجتياح باستثناء أن أر سي.

راودتني الشكوك القديمة مجدداً كالتساؤل حول قدرة وسائل الإعلام في الواقع على شرح طبيعة النظام. هل يعرف مئات آلاف المتظاهرين في أوروبا المناوئين للحرب ما الذي فعله صدام بأتباعه؟ لم أكن مُدركاً أن العديد من المتظاهرين يفكرون في أمر مختلف عن: «الحكام من أمثال صدام سيئون بالطبع، ولكن الحرب مريعة في الواقع،

لذلك نحن ضدها تحت أي ظرف - السلام، يا رجل!» ولكن طريقة حكم صدام هي الحرب برأبي، حرب النظام على شعبه.

من الغريب تماماً أن يكون العديدون من المثاليين الذين تظاهروا ضد الاجتياح هم من دعوا إلى الاجتياح في أثناء أزمة كوسوفو ومن دون استصدار إذن من الأمم المتحدة إذا لزم الأمر: «علينا القيام بأمر ما». كان صدام حسين قاتلاً لعدد أكبر من الناس مقارنةً مع ميلوزوفيتش، وتتساءل عما إذا كان للتغطية الإعلامية دور. فأثناء أزمة كوسوفو، تمكن الصحفيون من تصوير نتائج التطهير الإثني، وبات للوحشية وجه. لم يكن هذا النوع من التقارير اللافتة للنظر ممكناً في العراق؛ في أفضل الاحوال، كان بإمكانك حمل العراقيين الذين فرّوا من البلد قبل سنوات على التكلم، إذا جرؤوا على ذلك، لأن العديدين تركوا أنسباء لهم وراءهم. ولكن للرأس المتكلم أثر أقل بكثير؛ ليس عليك سوى أن تطلب من الفلسطينيين أن يشرحوا لك معنى الإرهاب.

في الفترة السابقة للاجتياح، كانت هناك أمور مجهولة أيضاً، ومن أكبرها رد فعل العراقيين العاديين. لقد توقع البيت الأبيض أنه سيتم استقبال الجنود الأميركيين في البلد استقبال «المحرّرين بالأرز والزهور» أحد التعبيرات المستخدمة.

باستثناء عدد قليل من أجباء المانحين، توقع كل الخبراء والأنظمة تقريباً في العالم العربي بحدوث كارثة لأميركا. لم أجد الأمر مثيراً للاهتمام في الواقع بسبب تزايد ارتياحي الشديد بالروس العربية المتكلمة. كانت الأنظمة ضد اجتياح أميركي بالطبع، ولكن تم تسويق رسالة نشر الديمقراطية التي سيلها مزيد من الأمور إذا نجحت؛ إنه توقّع غير مُعجّر بالنسبة إلى الحكام والقادة في قصورهم.

كانت هناك دولة واحدة حملت ردود فعلها على الاجتياح الوشيك للعراق معنى: الكويت. لقد احتل صدام حسين البلد ودّمّره عام 1990، وقامت أميركا باخراجه منه بعد ستة أشهر. كان صدام يهدد الكويت بانتظام في السنوات التي تلت التحرير بشن هجمات جديدة، وكان لهذا الأمر نتائج كارثية على اقتصاده وسوق الأسهم. من يستثمر في بلد قد يقوم صدام بنهبه في أي لحظة؟

لقد تحدثت إلى مالك سفينة، ورجل أعمال، ومحام، وعالم اقتصاد، وكويتيين ليبراليين آخرين. كانوا ذوي ثقافة عالية، ويتكلمون الإنكليزية بطلاقة، وذوي شخصية محبّبة، وناجحين، وأثرياء. كانوا يريدون بشكل يائس التخلص من صدام، ولكنهم طرحوا السؤال نفسه بطرق مختلفة: لماذا يُفترض بأميركا نقل الديمقراطية للعراق إذا كانت تُبقي الحكام الآخرين في سدّة الحكم في بقية المنطقة؟ هل سيكون نظام منتخَب ديمقراطياً في بغداد قادراً على أتباع منحى مستقل، ولا سيما إذا تعارض مع المصالح الأميركية؟ هل سيكون حزب عراقي قادراً على الفوز بالانتخابات مع إطلاق وعود بدعم فلسطين، ورفع أسعار النفط، ومنح كل العقود لأوروبا والصين؟ أم أن البيت الأبيض يريد «نسخة غير فاعلة عن صدام» يكون أقلّ عداءً لإسرائيل.

لو كنت في ذلك الوقت في مستهل عملي كمراسل، لشعرت أنني مُجبرٌ على إدراج هذه الأمور في النشرة الإخبارية. لقد ظن الأميركيون أنهم سيُستقبلون بفرح وأذرة مفتوحة.

كنت قد تحدثت إلى صحفي زميل أثناء المؤتمر الصحافي الموجز للجيش الأميركي في فندق شيراتون. «هل وصلت إلى هنا للتوّ؟» سألني. «من الأفضل لك أن تسرع. المزارعون في الشمال هم القصة. قد يعملون

في حقولهم للمرة الأخيرة غداً، لأن الجيش الأميركي سيصل إلى هناك. لقد حصلت على أسماء وأرقام».

فأومأت برأسي شاكرًا، وكنت لا أزال مذهولاً أن ذلك الأمر التافه يمكن أن يكون القصة، وذلك بالرغم من خبرتي التي امتدت خمس سنوات. ولكن التفسير كان بسيطاً: كانت الماكينة الإعلامية الأنكلو-أميركية تهيمن على دَفَق الأخبار، إضافةً إلى أن القصة هي حشد الجنود الأميركيين. متى سيوجهون الضربة؟ وإجلاء المزارعين هو خير مثال على ذلك - يمكنك التقاط صور عن الأمر بسهولة في إطار المنافسة المستمرة مع صحفيي الصحف.

كان كل شيء بادياً من قَبْل. فالحملة الإعلامية المتطورة تقوم على الصورة - أرزٌ وزهور - ويصبح من الصعب تغيير ذلك في ما بعد. لهذا السبب، كان الناطق بلسان الجيش في الشيراتون مسترخياً. كنا مكبّلين، وهو يعرف ذلك.

الفصل الرابع عشر

«الراية تدرّ المال»

كنت سأترك عملي بعد سقوط بغداد، لذلك علمت أن أسابيقي الأخيرة على أرض الأحداث قد حانت عندما دخل الجنود الأميركيون بغداد. ربّما إنه زمن الكشف عن الحقائق، ولكنني لم أر في بداية الأمر سوى تكراراً للنماذج المألوفة. هل أن «صليبين صهاينة» و«جنوداً أميركيين وبريطانيين مجتاحين» هم من يقاتلون؟ أم «الحلفاء»؟ هل إن «المقاومة الوطنية العراقية» أو «الموالين لصدّام» هم أخصامهم؟ هل يشاهدون «قصفاً ثقيلاً لمدن ذات كثافة سكانية» أو «عملية الصدمة والرعب»، وهو اسم طالبتّ سوني بإطلاقه على لعبة كمبيوتر جديدة بينما كانت الحرب لا تزال مُستعرة.

كان لكل معسكر مصطلحاته الخاصة، ويدّعي أنه الفريق الصالح وفقاً لنسخته الخاصة في رواية الأحداث. وأوردت فوكس نيوز اتهامات بتعاونٍ عراقي فعلي مع القاعدة، بانية استنتاجاتها على هذه الاتهامات. كيف يمكن للأوروبيين إذاً أن يكونوا ضد التخلص من الرجل الذي تسبب بهجمات 11 أيلول/ سبتمبر؟ بالطبع، إنهم يكرهون أميركا! وقامت محطة حزب الله التلفزيونية بالأمر نفسه، متهمّة الموساد الإسرائيلي

بارتكاب الهجمات: كيف يمكن للأميركيين إذاً إلقاء اللوم على العراق؟ بالطبع، إنهم يكرهون الإسلام!

لقد واكبَّت الحرب انطلاقاً من عاصمة دولة عربية هامة؛ المكان الذي انطلقتُ منه قبل خمس سنوات، أم الدنيا، القاهرة. كانت الحكومة المصرية تساعد الأميركيين من وراء الكواليس حيث أمكن، ولكن ما الذي كان يجري في الأوساط الشعبية؟ كان أمراً مجهولاً. ولكن بسبب الحرب، هناك الكثير من الأماكن التي يمكننا أن نُظهر فيها الخطوط الكفافية لتلك الأمور المجهولة. وبدأت بكتابة عمود في الصحيفة بعنوان «الشارع العربي». لقد جلت في المدينة وأجريت أحاديث مع مصريين عاديين عبّروا عن المشاعر الشعبية الأنف ذكرها. ولم يكن بالإمكان نشر هذه المعلومات على شاشات التلفزة إلا في إطار النبا العاجل: «إنه ضد الإسلام... إنه أمر سيّء جداً» - إذا تجرّأ الناس على التحدث. ولكن المقالة توفّر مكاناً أكبر، ويمكنك نقل آراء المتحدثين دون ذكر أسمائهم:

إنه عقاب من الله بالطبع. الله كلّي القدرة، إذاً، فكل ما يجري رهن بمشيئته. لا يمكن فصل الزلزال الأخير في تركيا عن الطريقة التي رفضت فيها تركيا الإسلام؛ وهناك ظاهرة الأيدز أيضاً، أليس كذلك؟ لقد عبّر الإمام عن رأيه أيضاً. الاجتياح الأميركي هو عقاب بسبب افتقارنا إلى التقوى. الجميع مهتمون بالمال، والمنزل، والهاتف الخليوي... لقد رفعنا صلواتنا للتوّ لانتها ما يجري بسرعة فيهِزَم الأميركيون بسرعة ويغادرون. هناك مسؤوليات كبيرة على عاتق مصر لأنها مهد الحضارة.

لو كان الأميركيون مسيحيين حقيقيين لما قاموا بذلك. لماذا يتدخلون؟ لكل شعب نظامه الخاص وقائده الخاص. نحن نحب

مبارك، ومبارك يجبنا. أثناء حرب الخليج الأولى، كنت أعمل في العراق في إعداد الحلويات. بعد عمليات القصف، كان صدام يخرج إلى الشارع، فيسارع الناس إلى لمسها؛ من الواضح أن الجميع يحبونه وهو يحب الناس.

أميركا هي أقوى بلد في العالم لأنها تتألف من خمسين ولاية، ولكن الجيش العراقي هو ثاني أقوى جيش في العالم ويقوم بالواجهة الآن. لهذا السبب، تعارض ألمانيا الحرب؛ هم يدركون أنهم سيكونون المستهدفين في المرحلة التالية. قال بوش إن الله جعله رئيساً لإنقاذ العالم من الإسلام. بوش ذاك... لقد قرأت مؤخراً عن قيام جنود إسرائيليين بالمرافقة على النساء الحوامل الفلسطينيات، هل يكون المولود فتى أم فتاة؟ ويشقون من ثم بطن النساء لمعرفة من المَحِق. هم يجردون النساء أيضاً من ملابسهن ويقتادوهن في أفضاص معدنية في جولة في أنحاء إسرائيل. أستشيط غضباً عندما أسمع أموراً مماثلة. كيف يمكن القيام بأمر مماثل؟ السياسة هي للسياسيين. لست سوى أجير مدني عادي، وأقود في المساء سيارة مُستأجرة. الحرب؟ صدقاً، أنا لا أتابعها كثيراً. أعود إلى المنزل في منتصف الليل وعليّ النهوض عند السادسة صباحاً. لا أشعر بالرغبة في التفرُّغ لمتابعة الأخبار. إنه أمر رهيب، يقول الناس. هجوم على الإسلام. أمل في أن ينتهي الأمر بسرعة.

هل كنت تعلم أن إسرائيل ستفجر المسجد الأقصى بعد سقوط بغداد؟ إنه العنوان الرئيسي لصحيفة الأسبوع أمس. كل مستشاري كليتون وبوش تقريباً هم يهود، وبعضهم يجاهر بذلك وآخرون لا يحذون حذوهم. هم يهود سرّيون، مثل صدام. لقد اجتاحت الكويت ليتمكن الأميركيون من وضع جنودهم في الخليج

بجانب النفط والأماكن المقدسة. لقد أضعفوا الإسلام لأن اليهود يعلمون أن ليس باستطاعتهم القيام بالكثير ضد إسلام قوي. لقد دوّنت كل ذلك، وامتلاً بريد أن أر سي الإلكتروني بالرسائل: إن مراسلكم يجعل العرب يبدون مدعاةً للسخرية. لقد ثبت مرة أخرى أنك أجريت هذا الحديث بنفسك، إذاً أنت تعرف أن الناس يقولون هذا النوع من الأمور دون تردد وبنبرة تسليم وليس غضب. هم لا يغضبون إلا عندما يبدأ رأيك بالتعارض مع رأيهم.

كان عملاً روتينياً غريباً. ففي النهار، كنت أجري أحاديث لنشرها في عمود «الشارع العربي»، وأشاهد التلفاز في المساء. لقد بدا الأمر مماثلاً لفترة بدئي بالعمل كمراسل عندما تعرّضت بغداد للقصف أثناء عملية ثعلب الصحراء، وكنت أوجز نشرات إعلامية انطلاقاً من غرفتي في الفندق بعمّان. لم يكن عليّ القيام بذلك لأنني توقفت عن العمل لصالح الإذاعة والتلفزيون، وكانت أن أر سي تطلب مني إعداد مواضيع متممة.

لذلك، تستت لي مشاهدة التلفاز، ولفت أمر ما انتباهي بالتدرّج، ليس ما قيل وعُرض على القنوات الغربية، بل بالتحديد ما لم يُقل ويُعرض. ففي الفترة التي سبقت الاجتياح، كانت وسيلة الإعلام أنكلوسفير المرجعية قد تبنت وجهة نظر ما كينة العلاقات العامة الأميركية، واستمرت على هذا المنوال أثناء الحرب. ووقّر الصحفيون الذين ألحقهم الناطق العسكري الرسمي بالجبهة في فندق شيراتون في الكويت صوراً لجنود يفرون من نيران العدو، ويزحفون تحت الجدران، وبيبلغون موقعاً يمكنهم من خلاله التخلص من العدو. ولم تُلتقط صور للأعداء العراقيين، علماً أنه باستطاعتك رؤية الخوف والتوتر أو الارتياح على وجوه الأميركيين. كان الأمر كلعبة فيديو، انتهت اللعبة بالنسبة إلى فرقة الحرس الجمهوري التي هُزمت، وتنطلق أميركا في مواجهة فرقة عسكرية جديدة.

لقد اعتُمدت المقاربة الهوليودية الشخص الصالح / الشخص السيئ، وتطابقت كل التحاليل تقريباً مع التحليل الذي أرسله مركز القيادة الرئيسي من قطر: السيطرة على مرفأ مدينة أم قصر هي من أولى الأولويات لا لأسباب عسكرية بل «لإيصال السلع الإنسانية للشعب العراقي بأسرع وقت ممكن». ويُفترض منع القتال داخل المدينة ليس مخافة عدم الاستفادة من التفوق التكنولوجي الأميركي ووقوع خسائر كبيرة في الأرواح، بل لأن «قتال الشوارع سيؤدي إلى وقوع العديد من الإصابات في صفوف المدنيين». في نهاية اليوم، كانت الأهمية معلّقة على مشاعر الشعب العراقي ومزاجه، وردّد المراسلون والناطقون العسكريون الرسميون هذه الأقوال معاً، مما أوحى ضمناً أن الحرب أمر جيد وأنه ليس علينا سوى شرح الأمر لشعب العراق.

تم تنظيف كل القطع المهشّمة من منبر مركز القيادة الرئيسي. فدعت السي أن أن الأمر «كُن أول من يعلم»، التنافس الإخباري. «حصلنا للتوّ على تأكيد من مركز القيادة الرئيسي أن أم قصر هي الآن بين أيدي رجال الكومانندوس الأميركيين. عودة إليك، يا جيم». في حرب الخليج عام 1991، حدث الأمر نفسه إلا أنه لم يكن يوجد أي محطة تلفزيونية عربية في ذلك الوقت يقوم مراسلوها بدحض البيانات الأميركية الرسمية. ويمكنك الآن الانتقال من جيم إلى الجزيرة التي كانت وسط حديث هاتفي مباشر مع القائد العراقي في أم قصر.

«لدينا تأكيد الآن». هل صدّق صحفيو السي أن أن والبي بي سي ذلك؟ كانوا يعلمون بالتأكيد أن مهمة الجيش ليس الإفصاح عن معلومات يعوّل عليها، بل شل حركة العدو بأقل خسائر ممكنة؟ وإذا كان عليك الكذب لبلوغ هذا الأمر... فكل شيء وارد في الحب والحرب.

إلى جانب كل تلك المؤتمرات الصحافية الأميركية، ألم يكن من

المفيد تذكير الناس بكيفية تضليل وسائل الإعلام منذ اثني عشر عاماً؟ كان العراق قد سحق الكويت بقدميه وعزم البيت الأبيض على شن حملة عسكرية. ولكن معظم الشعب الأميركي كان ضد الأمر، وفقاً لاستطلاعات الرأي، حتى شهدت فتاة كويتية في الخامسة عشرة من عمرها أمام الكونغرس أنها رأت جنوداً عراقيين يأخذون أطفالاً من محاضنهم ويدعونهم يموتون على الأرض، ليكون بالإمكان نقل هذه المحاضن إلى بغداد مباشرة. عُرض تصريح الشاهدة على شاشات التلفزة، وحصلت عملية تحرير الكويت على تأييد واسع النطاق.

وسط هذا الفيض من العلاقات العامة في مركز القيادة الرئيسي، لماذا لم يكن الإعلام الغربي صريحاً حيال الطريقة التي عمل بها في الماضي؟ لقد فكرت لمدة قصيرة من الزمن بميل الصحفيين إلى تصديق أنهم يراقبون فحسب دون أن يتم التأثير فيهم. ولكنه ليس الأمر الوحيد الذي لم يظهر على شاشات القنوات الغربية.

فغالباً ما كان يشير المراسلون والمذيعون الغربيون إلى حالة عدم الاستقرار في العراق؛ بالرغم من كل شيء، فالبلد مؤلف من ثلاث مجموعات سكانية لا قاسم مشترك بينها، الأكراد في الشمال، السنة في الوسط، والشيعة في الجنوب. وليس هناك تفسير لكيفية حدوث ذلك. وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت هذه المناطق مقاطعات مستقلة ضمن السلطنة العثمانية، وقد استولت عليها بريطانيا العظمى بعد ذلك وشكلت منها ما يعرف بالعراق. كان الأمر أشبه بضم البولنديين والألمان الشماليين والشعب الهولندي الشمالي في مجموعة واحدة، وإخبارهم أنهم باتوا يشكلون بلداً جديداً. كانت وصفا لعدم الاستقرار تعمدت بريطانيا وضعها: إن عراقاً غير مستقر يبقى معتمداً على المعونة والحماية

البريطانية ويمثل لأوامر لندن. وكما قال وزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كسينجر في كتابه المشهور دبلوماسية: «رُسمت حدود الشرق الأوسط من قِبَل القوى الأجنبية، والأوروبيين إلى حدِّ كبير، في نهاية الحرب العالمية الأولى بهدف تسهيل هيمنتها على المنطقة». لذلك، كان العديد من الخطوط الحدودية في العالم العربي مستقيمة، رسمتها الحكومات الغربية مستخدمةً مسطرةً على الخارطة، ولم يأخذوا بعين الاعتبار مصالح الشعوب المحلية بالتأكيد.

لقد ضخمت التقارير الواردة في وسائل الإعلام الغربية «المشاعر المناهضة للغرب» في الشرق الأوسط. وقد يتبادر إلى ذهنك أن دقيقتين من الشرح التاريخي تسمح بفهم هذا الأمر، على سبيل المثال، شرح عن إيران. كان لإيران حكومة ديمقراطية في الخمسينيات، ولكن السي آي أيه أجلست الشاه على العرش بعد انقلاب على رئيس الوزراء مصدق الذي قرر تأميم صناعة النفط. فأعاد الشاه بناء البلد محوِّلاً إياه إلى دولة موالية للغرب أنشأت جهاز مخابرات فاعلاً ووعيد الشفقة، واتصفت بفساد يوحى بالرهبة؛ هي مرآة لبعض الأنظمة القائمة في المنطقة اليوم. لقد أدى الغضب إلى قيام الثورة وثم الجمهورية الإسلامية. وإخمد هذه الثورة، قامت الحكومات الغربية بتسليح صدام بالغازات السامة، إضافةً إلى أمور أخرى، خلال الحرب الإيرانية-العراقية. ولكنهم زوّدوا إيران أيضاً بالأسلحة، وعلى نحو سرّي، في مقابل قيام إيران بإطلاق سراح الرهائن الغربيين في لبنان، فضيحة كونترا الإيرانية. ويقول هنري كسينجر في هذا الشأن أيضاً: «من المؤسف أن أياً من الفريقين لن يصاب بالهزيمة». لقد مات مليون شخص.

بعد ذلك ظهر بن لادن. كم عدد المشاهدين الغربيين الذين عرفوا أن أشخاصاً مثله دُربوا طيلة سنوات وسُلِّحوا من قِبَل السي آي

أيه؟ ويمكن شرح ذلك بكلمات قليلة أيضاً: في العام 1979، اجتاحت الاتحاد السوفياتي أفغانستان للمساعدة على إسقاط النظام الشيوعي. رداً على ذلك، قامت السي آي أيه بإنشاء المجاهدين بالتعاون مع بعض الدول العربية. وخاض المجاهدون - وكان أسامة بن لادن من أفراد هذه المجموعة - حرب عصابات ضد الروس وحققوا انتصاراً، وذهب بعضهم من ثم للقتال في مصر والجزائر. وعندما اجتاحت صدام الكويت، عرض بن لادن قيامه ومجموعته بطرده، ولكن دول الخليج فضّلت استدعاء أميركا لمساعدتها. فاعتبر بن لادن هذا الأمر دليلاً قاطعاً على أن الأنظمة لم تكن تسعى إلا إلى الاستمرار حتى وإن عنى ذلك استدعاء القوى الغربية التي كانت قد تسببت بمشاكل للعالم الإسلامي في المقام الأول. وغيّر بن لادن أهدافه مما أدى إلى هجمات 9/11 التي كانت المبرّر لاجتياح العراق... واكتملت الحلقة.

قد تظن أن هذا النوع من المواد المتممة هي جزء من المعادلة بالنسبة إلى المشاهدين الغربيين. كان هناك وقت كافٍ للبت المباشر، وإذا كان بالإمكان إنفاق آلاف الدولارات يومياً لإرسال مراسل إلى بغداد لإيجاز تقارير وكالات الأنباء، يتعيّن حينذاك وضع ميزانية للبرامج الوثائقية أو برامج خاصة أخرى قصيرة تشرح الدور الذي لعبته الحكومات الغربية في الشرق الأوسط في العقود الأخيرة. لماذا لا يُذكر هذا الأمر في المحطات الغربية إلا نادراً خلال سقوط وابل من القنابل على بغداد؟

هناك أمور أخرى لم يتم التطرق إليها في النشرات الإخبارية لوسائل إعلام الاتجاه السائد. ففي حين كانت محطات عربية تعرض للعواقب الإنسانية الناجمة عن القصف ساعةً بساعة، قامت المحطات

الغريبة بأمر آخر. في كل مساء، كانت أقسام الرسوم التخطيطية تُعدّ لوحةً عن المنطقة متممة بالخرائط، والطائرات، والسفن، والدبابات، وصور صغيرة، وأسهم، ونجوم صفراء وحمراء. وفي لقطات الفيديو المكررة على السي أن أن أو الدعايات التي تروّج لبرامج المحطة، كنت ترى مقاتلات تهبط على حاملات طائرات، ويقوم الرّبّان برفع إبهامه: لقد تخلصتُ من القنابل. لقد أظهرت الصور المتحركة المُعدّة بواسطة الكمبيوتر كيفية تمكّن قاذفات ستيلث المتسلّلة من تفادي الرادار. انظروا كم نحن أذكّاء، تقول الأفلام. يمكننا صناعة صاروخ يستهدف مرحاضاً بعد قطع مسافة ستمئة كيلومتر، والمرور فوق درجات السّلم.

لم يكن هناك أي صور متحركة مُعدّة بواسطة الكمبيوتر تُظهر ما الذي حدث بعد الانفجار، كيف تنشر قنبلة عنقودية 140 لغماً يمكن لكل منها تدمير دبابة. وقليل من هذه الألغام لا ينفجر، وهكذا تحصل على ألغام غير منفجرة في أماكن يلعب فيها الأطفال. ولم يكن هناك أيضاً أي رسوم على الكمبيوتر تُظهر ما يحدث للجسم البشري عندما تنفجر قنبلة خوائية من الجيل الجديد في المحيط.

كان مراسلك جالساً في غرفة الفندق يهزّ قبضته قبالة التلفاز. وبعد أمسيّتين كهذه الأمسية، كتب المقالة التالية:

اختبرت القصف بنفسي، وغالباً ما أفكر في الأمر في هذه الأيام. حدث ذلك في غزة، ولم يكن بالإمكان مقارنة ما حدث في الأيام الستة الماضية مع ما تعرّض له سكان بغداد والموصل وتكريت لجهة اتساع رقعة القصف أو مدة القصف. مع ذلك، هناك بعض التشابه. يمكنك على الدوام سماع أنباء عن وقوع إصابات في صفوف المدنيين، وإذا لم يكن عدد الجثث مرتفعاً جداً تكون حرباً نظيفة. يا له من هراء.

إذا كنت في مكان تساقط القنابل، فإن ما تشعر به أكثر من أي شيء آخر هو العجز. فحياتك هي بين يدي شخص ما موجود وراء لوحة مراقبة أو في مقصورة الرّبّان؛ باستطاعته اتخاذ قرار يؤدي إلى موتك أو إعاقتك. في غزة، شعرت بخوف مُعْثٍ جداً بحيث إنه كان عليّ التخلص منه على الفور. لقد بدا أن الفلسطينيين المحيطين بي يقومون بالأمر نفسه أيضاً وأنا في عرض مسرحي. أه، ها هي قبلة أخرى تسقط. كان باستطاعتنا الرقص أمام الكاميرات كالعراقيين الذين ترونهم يرقصون أمام تلفزيونهم الوطني الآن. «عراقيون لا يهابون القصف الذي تعرضوا له الليلة الماضية»، هو عنوان لمشهد على السّي أن أن. «عراقيون لا يشعرون بالخوف بعد قصف الليلة الماضية».

إنه هراء. لقد تحدّث عمال إغاثة فلسطينيون في غزة عن قبلة رفعت حدة العنف المحليّ وأدّت إلى إجهاضات تلقائية، ونوبات قلبية. ولم تكن الكلمات الأولى للأطفال بابا أو ماما بل «قبلة»، «شهيد»، و«طائرة»؛ رسوم مقاتلات، ورساصات، ودماء، وضعها أطفال يريدون الانضمام إلى المقاومين عندما يكبرون بدلاً من أن يصبحوا لاعبي كرة قدم أو ممثلين، ولا يلعبون لعبة الإمساك بأحدهم الآخر، بل لعبة الجنود ودافني الموتى. ووفقاً لعالم نفس محليّ، «يصرخون الله أكبر أمام الكاميرات، ولكنهم يبلّون أسرتهم ليلاً». ولم يعد يجروّ الأهالي على ممارسة الجنس لأنهم يخشون وقوع هجوم ويكون عليهم الرقص بسرعة إلى أطفالهم. لقد أخبر أحد الآباء في غزة كيف تقوم ابنته البالغة من العمر ثماني سنوات بارتداء ملابسها سرّاً قبل الخلود إلى النوم، وذلك لتمكّن من الرقص إلى الملجأ مباشرةً خلال القصف.

هناك الاتصالات الهاتفية الهستيرية عندما تعود شبكة الاتصالات للعمل، هل نجا الجميع؟ هل لا يزال العمل الذي تكسب العائلة منه رزقها قائماً؟ هل تمّ نهبه؟ فبوليصات التأمين لا تغطي أضرار الحرب، ولا يملك معظم الأشخاص تأمينات. وعندما تسقط القنابل، لا يمكنك الخروج، ويشمل هذا الأمر سيارات الإسعاف وسيارات الإطفاء. لذلك، إذا سقطت على درجات السلم أو وقع لك حادث آخر، يتعيّن عليك انتظار توقف القصف تماماً. يجعل هذا الأمر الأهالي عصبيّ المزاج أكثر فأكثر لأن الأطفال يركضون في أرجاء المكان عندما تسقط القنابل. هم يختبئون في الحمام أو يحاولون الركض بأقصى سرعة في الشارع، ومن الطبيعي أن يسألوا متى يتوقف القصف.

قال لي عمال الإغاثة إن الأهالي الفلسطينيين يائسون جداً لطمأنة أطفالهم بحيث إنهم يلفظون كلمة غداً، أو في غضون ساعة. ولكن القصف يستمر، ويفقد الأطفال ثقتهم بأهلهم، وهم ملاذهم الأخير.

هذا ما أفتقده أكثر من سواه في وسائل الإعلام: صور أطفال صغار يزحفون إلى داخل حفرة، ويضربون ويركلون أهلهم بشكل هستيري لأنهم مُربكون؛ آيات من القرآن تُتلى من المآذن خلال القصف لمساعدة الناس على التخلص من خوفهم الشديد. لم أر ذلك أبداً ولا حتى على الجزيرة. إنهم يتمسكون بالخطر العربي لعرض الأسى وقابلية التعرّض للأذى، ويُرفقون صور القتلى والجرحى المريعة بنصوص عن «مثابرة الشعب العراقي البطولية».

لقد بلغني في وقت لاحق أن هذا الأمر يحدث للمراسلين في

غالب الأحيان: تؤدي فترة من الاضطراب إلى استعادة ذكريات تعود لفترات مماثلة، وتكون فجأة بحاجة إلى إفساح الطريق لمشاعر كنت قد كتبتها مع الوقت. لم أضع مقالة أخرى طوال مزاولة مهنتي أدت إلى هذا الكم من ردود الفعل، خير مثال على أنك لا تستطيع وضع أفضل كتاباتك في غالب الأحيان إلا خارج الإطار الصحافي.

إنها المواد التي يمكنها إظهار واقع الحرب، كقيام قناص متمرس مثلاً بوصف ما يكون عليه الحال لدى اختيار عراقيين كما لو أنهم بطء؛ فالأسلحة الأميركية بعيدة المدى بحيث إن العراقيين لا يدركون أبداً وجود أحد في المحيط حتى تصيبهم الرصاصة. أو دَع إسرائيلياً يشرح لك حرب الشوارع. أنت تتحدث عن زقاق، ويفتح باب فجأة. فتطلق النار قبل النظر إلى الهدف لأنك إذا لم تطلق النار وكان الهدف شخصاً مسلحاً يُقضى عليك؛ وقد تكون فتاة في الثامنة من عمرها بقميص النوم وعلى وجهها أمارات الدهشة، فتخرّ على الأرض ميتة.

هذه هي الحرب، ولكن تقارير السي أن أن تشبه في أغلب الأحيان الإعلانات التي يستخدمها الجيش لتطويع جنود: «الأسطول الحربي البحري يؤسّع عالمك». «فوق كل شيء - سلاح الطيران». عرضت محطات عربية مشاهد قاسية بطريقة لا يمكن تصوّرها لجذات حزينات وقلقات ورؤوس أطفال ممزّقة، ساعة بعد ساعة، وإن بطريقة تثير غضب وتحديّ المُشاهد أكثر مما تثير الحزن والتعاطف. وظهر في مشهد آخر لم أتمكن من الكف عن التفكير فيه بعض الجنود العراقيين القتلى في حفرة وهم لا يزالون ممسكين بالراية البيضاء.

في أوقات مماثلة، بدت الهوة بين الشرق والغرب كبيرة جداً ليس لأننا مختلفون عن بعضنا، بل لأن صوراً مختلفة تُنسب إلى الناس

وَتُعْرَضُ لَنَا. وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَانَ الْعَرَبُ يَشَاهِدُونَ عِرَاقِيَيْنِ مَفْجُوعَيْنِ
تَحْوَلُ أَفْرَادَ عَائِلَاتِهِمْ إِلَى أَشْلَاءَ، وَتَبَعَثَتْ أَطْرَافُهُمْ فِي الْمَكَانِ؛ لَقَدْ ضَاعَ
كُلُّ شَيْءٍ. وَيَسْمَعُونَ مِنْ ثَمِ الرَّئِيسِ الْأَمِيرِكِيِّ يَزْهُو بِالْإِنْتِصَارِ الْمُحَقَّقِ
وَعَيْنُهُ عَلَى الْإِنْتِخَابَاتِ الْقَادِمَةِ، وَيَرْفُضُ الْإِجَابَةَ عَلَى سَوْأَلِ حَوْلِ اعْتِبَارِ
«الْأَضْرَارِ الْجَانِبِيَّةِ» إِصَابَاتٍ عَرْضِيَّةٍ.

لَوْ قَامَتْ وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ الْغَرِيبَةِ بِوَاجِبِهَا خِلَالَ الْحَرْبِ، لَجَلَسَ
الْمَشَاهِدُونَ أَمَامَ أَجْهَازَةِ التَّلْفِزَةِ يَبْكُونَ وَيَتَقَيَّأُونَ. أَلَمْ يَحْدِثْ ذَلِكَ لِأَنَّ أَيًّا
مِمَّنْ يَمْتَلِكُونَ خِبْرَةَ فِي الْحَرْبِ تَقْرِيْبًا لَمْ يَعْمَلْ أَوَّلًا مَعَ فِرْقِ التَّحْرِيرِ؟
هَلْ يَعُودُ سَبَبُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْمُحَرَّرِينَ وَجَدُوا لَعْبًا عَسْكَرِيَّةً
تَحْمَلُ أَسْمَاءَ مِثْلِ أَبَاتَشِي وَتُومَاهُوكِ وَدِيْزِي كَاتِرَ أَمْرًا مُثِيرًا؟ يَتَبَانِي
قَلْقٌ فِي أَنَّ يَكُونُ السَّبَبُ أَسْوَأَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَبْلَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ، كَشَفَتْ
الْإِنْتِرْنَشُونَالُ هِيرَالْدُ تَرْبِييُونَ عَنِ النَّصِيحَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَلَقَّتْهَا مَحَطَاتُ
الْإِرْسَالِ الْأَمِيرِكِيَّةِ الرَّئِيسِيَّةِ مِنَ الْوَكَالَاتِ الْإِسْتِشَارِيَّةِ. لَقَدْ سَاعَدَ هَؤُلَاءِ
الْخَبْرَاءُ التَّسْوِيقِيُونَ الْمَحَطَاتِ عَلَى اكْتِشَافِ مَا يَحِبُّ جُمْهُورُهَا أَنْ
يَشَاهِدَهُ. فَمَحَطَاتُ الْإِرْسَالِ الْأَمِيرِكِيَّةِ هِيَ مَوْسَسَاتٌ تِجَارِيَّةٌ بِالرَّغْمِ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ. وَكَانَتْ التَّوْصِيَّاتُ وَاضِحَةً: كَلِمَا كَانَ التَّقْرِيرُ أَكْثَرَ وَطَنِيَّةً، أَزْدَادَ
عَدَدَ الْمَشَاهِدِينَ. لَا يُفْتَرَضُ أَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ تَظَاهِرَاتٌ مَنَاهِضَةٌ لِلْحَرْبِ،
وَرَوَايَاتٌ عَنِ ضَحَايَا يُرْثَى لَهُمْ، بَلِ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَنَاشِيدِ، وَاسْتِعَارَاتِ
أَدْبِيَّةٍ مَجَازِيَّةٍ عَنِ الْوَطَنِ، وَنَجُومٍ وَخَطُوطٍ مَرْفُوفَةٍ، فِي الْإِسْتُودِيُو، فِي
الشُّعَارِ، فِي اللَّقَطَاتِ الْفِيْدِيُوِيَّةِ. وَأَوْجَزُ أَحَدِ الْمُسْتَشَارِينَ الْأَمْرَ بِثَلَاثِ
كَلِمَاتٍ: «الرَّايَةُ تَدْرُ الْمَالِ». وَهَذَا مَا ثَبَتَتْ صِحَّتُهُ فِي النِّهَايَةِ. فَارْبَعُونَ
مِنْ أَصْلِ خَمْسِينَ بَرْنَامِجًا مِنَ الْبَرَامِجِ الْأَكْثَرِ اسْتَقْطَابًا لِلْمَشَاهِدِينَ فِي
أَمِيرِكَا أَثْنَاءَ الْحَرْبِ كَانَتْ بَرَامِجٌ لِفُوكْسِ نِيوزِ وَصَفَتْ صِدَامَ حَسِينِ بِأَنَّهُ
«الْفَتَى الْكَبِيرُ السَّيِّئُ مِنْ بَغْدَادِ»، وَتَبَيَّنَتْ الْمِصْطَلَحَاتُ الْغَنِيَّةُ بِالْمَعْنَانِي،

والمقاربة، والمواضيع التي نقلها إليها مركز القيادة الرئيسي في قطر، والتي تصف المحتجين المناهضين للحرب في أوروبا أن «الشيوعيين قاموا بتنظيم صفوفهم».

لقد كان ذلك فلتراً إضافياً للأخبار: الزبائن. ففي أوروبا أيضاً، أظهرت التقديرات أن الناس يفضلون قيام مذيعهم المألوف، وليس خبيراً مُملاً، بإطلاعهم على المستجدات. ويفضّلون كذلك مشاهدة أفلام قصيرة عن الولايات المتحدة وليس تحاليل معقّدة عن تضارب المصالح ومواضيع تاريخية تشوّه صورة بلدهم. وفي أوروبا كما في أميركا، يُحكّم على رؤساء التحرير في المقام الأول من خلال نسبة القراء والمشاهدين.

كان الأمر يدعو للحزن وليس إلى ازديادك حكمة، ولم تكن الأشهر والسنوات التي تلت الاجتياح تدعو إلى التفاؤل. فلم يتم الترحيب بالجنود الأميركيين في العراق بالأرز والزهور، بل بالقنابل والرّماتات اليدوية. وبالرغم من عدم العثور أبداً على ما يثبت وجود تعاون عراقي مع القاعدة، يستمر نصف الرأي العام الأميركي تقريباً بعد خمس سنوات من 9/11 بالاعتقاد أن صدام حسين مسؤول عن الهجمات وأن معظم مختطفي الطائرات عراقيون. وثبت في النهاية أن الفكرة القائلة إن العراقيين سيرحبون بالجنود الأميركيين رُوّجت لها المعارضة العراقية في المنفى التي استعانت بمؤسسة ذي راندوم غروب الاستشارية. وثبت أيضاً أن احتفال العراقيين في ميدان الفردوس بالإطاحة بالتمثال الضخم لصدام حسين - «بغداد تحتفل بالتحريف»؟ - لم يكن احتفالاً شعبياً بل أمراً مدبراً من قبل مئتي عراقي تقريباً وضابط عسكري أميركي حاذي الذكاء. عودة إليك، يا جيم.

خاتمة

تغطي الأحداث في هذا الكتاب الفترة الممتدة بين عامي 1998 و2003، وقد حدث تبدل كبير في بعض الأمور منذ ذلك الحين. وبدأ عدد من المحطات التلفزيونية الإخبارية الناطقة بالعربية البث، ويستخدم شبان هواتفهم ليصوّروا سرّاً مضايقات جنسية في الشارع وينقلونها إلى فايس بوك، وغادر أرييل شارون وياسر عرفات المسرح السياسي، وظهرت إدارة أميركية جديدة، وخيضت حربان في غزة لبنان.

في الوقت نفسه، بقي الكثير على حاله بشكل أساسي منذ العام 2003. فالتغطية الإخبارية لوسائل إعلام الاتجاه السائد في الشرق الأوسط لا تزال كما كانت منذ سنوات قليلة، ولا يوجد أي سجل جوهري حول تأييد الدعم الغربي للحكام العرب أو رفضه، وكيفية التوفيق بين هذا الدعم الذي دام عقوداً من الزمن وبين المُثل العليا المزعومة التي تعتنقها الحكومات الغربية المُحِبّة للحرية. ويُذلت جهود قليلة لشرح دوافع مجموعات كالقاعدة، والمُعضلات التي تواجهها وتصوّرها لذاتها، مما يزيد من صعوبة إلحاق الهزيمة بها. ولا تزال ماكينات العلاقات العامة للناتو وإسرائيل سرّية إلى حدّ كبير، ولا تزال لها اليد الطولى في فرض مفرداتها ومبادئها. ولا علم لي بوجود وسيلة إعلامية تابعة للاتجاه السائد في أي مكان من العالم تشرح سبب اختيار مواضيعها، ووجهات نظرها، ومصطلحاتها، والمعايير التي تعتمدها للإصغاء إلى فرقاء معيّنين في النزاع دون غيرهم.

عندما ظهر هذا الكتاب في هولندا صيف العام 2006، قررت عدم تضمينه خاتمة تحتوي على اقتراحات لإحداث تغيير. لقد بدت لي المشاكل كبيرة ومتنوعة جداً لدرجة أنها تحتاج إلى إعادة تفكير جوهري في المسلمات الأساسية لصناعة الخبر. وبما أنه لا وجود لحلول فورية وجليّة، أملت في حدوث نقاش حول المشاكل نفسها.

لقد كنت مخطئاً، وقد اكتشفت ذلك من خلال الكتاب نفسه. فإذا لم تضع حلولاً بنفسك، سيقوم آخرون بذلك، وقد لا تفهم ما يضعه الآخرون. في هذه الحالة، اعتبر النقاد، والزملاء، والمحرمون الصحفيون أن الكتاب يدعي أنه «لا جدوى من الصحافة». حتى إن بعض زملائي الهولنديين استفاضوا في شرح ما ورد في كتابي لدحض هذا الادعاء واثبات مدى جدواها. كان أمراً سخيلاً وساراً في آن: تضع كتاباً يحمل رسالة تقول إن كل رسالة تشوّه عندما تغطيها وسائل الإعلام، وماذا يحدث؟ تشوّه هذه الرسالة أيضاً.

قد لا يكون زملائي حمقى، بل غياري، لأن ربع مليون نسخة من هذا الكتاب بيعت في هولندا وحدها حتى الآن. وهو اليوم في المجر، وإيطاليا، والدانمارك، وألمانيا، وكانت لي بعض المواجهات المضحكة في بعض هذه الدول مع بعض الزملاء أيضاً الذين قالوا، حسناً، قل لي بجملة واحدة ما هو موضوع كتابك، فأجيب: يتناول الكتاب استحالة شرح الوضع بجملة واحدة. فيضحك الزملاء بتهذيب، نوعاً ما، ومن ثم يقولون: انظر، لدينا اثنتا عشرة ثانية فقط لهذا الاقتباس.

بالعودة إلى الماضي، أتمنى لو أنني كنت أعرف في ذلك الوقت العبارة التي قلتها مؤخراً: يتناول هذا الكتاب العوامل التي لا يمكن للصحفيين التحكم بها، ولكنها تؤثر في ما يقوم أولئك الصحفيون بتغطيته وفي كيفية تغطيته. وهكذا، يتعيّن إذاً عدم تجاهل أو إخفاء أو

حجب تلك العوامل، بل دمجها بطريقة من الطرق في تغطية واحدة مما يساعد المشاهدين والقراء المشككين على فهم ما يرون ويقرأون بشكل أفضل.

كيف يكون ذلك؟ يبدو أن التغطية تواجه خمس مشاكل رئيسية على الأقل كما هو الحال الآن. أولاً، يجب على وسائل الإعلام الإخبارية أن تجد طرقاً لإبلاغ مشاهديها وقرائها بما تسعى وراءه: الخبر. فحتى 9/11، لم يكن أحد في الغرب، باستثناء المسلمين الغربيين ومجموعة صغيرة من الخبراء المحترفين، يعرف الكثير عن الإسلام. وبعد ذلك، جعلت القاعدة من الإسلام الخبر - كما نعلم، تتناول الأخبار المشاكل والنزاعات - وبالنتيجة، قُدِّم للمشاهدين والقراء الغربيين مئات ومئات الروايات التي تضع الإسلام والعنف في إطار واحد. فلا عَجَب بلوغ العديدين الاستنتاج القائل إن الإسلام عنيف فطرياً. فإذا كان الصحفيون يضيئون على المشاكل والنزاعات في الغالب، فهذا ليس خطأهم لأن الأخبار تتناول هذه المواضيع في العادة. ولكن من مسؤولية الصحفيين التأكد من أن مشاهديهم وقراءهم يُدركون أن ما يرونه أو يقرأونه هو الاستثناء وليس القاعدة.

ينطبق الأمر نفسه على ما يدعى معلومات متممة. فالمشكلة التي نواجهها هذه الأيام مع وسائل الإعلام لا تتمثل باستحالة العثور على مواد متممة جيدة: نشرات مثل إكونوميست، بي بي سي، وأفلام أن بي آر الوثائقية، ومقالات أطول في نيويورك ريفيو أوف بوكس ولندن ريفيو أوف بوكس. وتكمن المشكلة في أن أحداً تقريباً لا يقرأ هذه الأمور، ويكون الخبر البارز غير مفهوم من دون ما يُدعى مواد متممة. وكما قال أحد النقاد الألمان، تنتشر بين الصحفيين آلية التهرب المتمثلة في أنه ما دام باستطاعة القراء والمشاهدين العثور على مواد جيدة في مكان ما

من الوسط الإعلامي، فمن غير المهم إذاً أن تكون بقيّة وسائل الإعلام زاخرةً بأخبار دون المستوى المطلوب.

يتعلق السبيل الثاني إلى التغيير بتغطية المجتمعات غير الديمقراطية. فمكان ما - كـبعض دول الشرق الأوسط مثلاً - ليس دولةً مع جيش، بل جيشٌ مع دولة. فهذا الأمر خافٍ عنّا بسبب قيام النظام باستخدام تعابير مألوفة لنا: رئيس، برلمان، شرطة، حزب... ولكن هناك نظام مختلف تماماً وراء هذا المظهر الكاذب. لذلك، يستحيل ممارسة الصحافة في دولة بوليسية إلا باستخدام تعابير متناقضة؛ من الممكن أن تكفّ الدكتاتورية عن أن تكون دكتاتورية إذا وُجدت فيها الصحافة المعهودة.

لقد ردّ بعض الزملاء على هذا الرأي قائلين إنها مسألة جهد: أنت بحاجة ببساطة إلى العمل بجهد أكبر ويكون لديك مصادر معلومات أفضل. ولكن إذا قمتَ بهذا الأمر، وتمكنتَ من العثور على عضو في المعارضة مستعدّ للإدلاء بتصريح يمكن اقتباسه، وتحققتَ من بعض الوقائع، سيكون هذا «النجاح» أكبر فشل. فبوضع مقالة إخبارية تُظهر ديمقراطية دولة ما تكون قد أخفيتَ عن غير قصد الأمر الأكثر أهمية: أن الدولة التي تغطيها ليست ديمقراطية على الإطلاق، إضافةً إلى كل الاستنتاجات التي قد تنجم عن ذلك.

وعندما تُقرّ أن الوسائل التقليدية لاختيار المواضيع الصحافية الملائمة للنشر تتلاءم فقط مع النظام السياسي الذي يربعاها - الديمقراطية - يُفتح الطريق أمامك لوضع تقارير غير تقليدية. حبذا لو أنني كنت أعرف ذلك.

ثالثاً، نحن بحاجة إلى تضمين التغطية واقعاً فني حين يوضّح الخبر ما يجري في العالم، يؤثر هذا الإيضاح في العالم نفسه. ويجب

القيام بصفة خاصة بأمر ما في شأن تهرّب مؤسسات وأقسام العلاقات العامة من العقوبة بسبب طريقتها المتّبعة في العمل، وهي قادرة على الاستمرار باعتماد هذه الطريقة لأن وسائل إعلام الاتجاه السائد مستمرة بالادعاء أن هذه المؤسسات غير موجودة في الواقع. فإذا دخل مراسل ما ملحقاً بالجيش إلى منطقة معارك، لا يُفترض الإشارة إلى هذا الأمر فحسب، بل جعله محور الاهتمام. ويُفترض بالمراسل أن يستهلّ رسالته بكل المواضيع المطروحة في الرسالة، وذلك من خلال جملة على هذا النحو: «بالطبع، لا فكرة لديّ عما يُخفونه عني، ولا يمكنني التحدث إلى الجانب الآخر، ولكن ما يصدمني حتى الآن في هذه الجولة مع جنود البحرية هو...» من الطبيعي أن تكون هناك حاجة إلى إعادة تفكير جذري في الافتراضات الأساسية الأنف ذكرها. ويصبح قدر كبير من الروعة التي يستمتع بها المراسلون مثيراً للسخرية فجأة عندما توسّع الإطار وتكشف النقاب عن طريقة عملهم الفعلية.

ترتبط هذه النقطة بميدان آخر للتحسين. فوسائل الإعلام موازية للسياسيين والمؤسسات، وعندما تفشل وسيلة إعلامية فإن ذلك قد يؤدي إلى عواقب خطيرة. لذلك، عندما يُكتشف أمر قيام وسائل إعلامية بالمبالغة أو الكذب (من خلال الإغفال أو الإشارة) يُفترض قيام وسائل إعلامية أخرى بمعاملتها بالطريقة نفسها التي يعامل بها سياسيون ومؤسسات يلجأون إلى الغش. فعندما تُخبر السي أن أن كذبة، قد يكون الأثر أكبر بكثير من الأثر الذي يتركه قيام حكومتي الهولندية الغبية الصغيرة بإطلاق كذبة ما. ولكن الأمر يُعتبر في الحالة الأخيرة خبيراً؛ وفي الحالة الأولى، يتم ذكره في أفضل الأحوال في صفحة التتمات.

هناك اقتراحان أخيران. تحتاج وسائل الإعلام الإخبارية إلى الارتقاء إلى مستوى مشاهديها وقرائها لجهة تنوع وجهات النظر المحتملة في

شأن موضوع معيّن. ويحتاج القراء والمشاهدون إلى أن يتم تذكيرهم أن ما يتم الإجماع عليه هو عدم وجود أي إجماع؛ حتى في هذا الأمر. تبدو مواقع الوِب ملائمةً بشكل مثالي لنقل وجهات النظر تلك. فالمحرر الأجنبي يستخدم «حاجز الفصل»، أو «جدار التمييز العنصري»، أو «سياج»، أو أي تعبير آخر متوافر لذلك الشيء الإسمنتي القائم في الضفة الغربية؛ أعني في يهودا والسامرة⁽¹⁾؛ في الأراضي الفلسطينية؛ في الأراضي المحتلة - آه، لا، المتنازع عليها. أم أنها «محرّرة»؟ ما حاولت أن أظهره في هذا الكتاب، يتخطى بأهمية مفرداته المستخدمة الموضوع المطروح. ومن الرائع قراءة أكثر من تفسير لحادث إخباري، ولا سيما عندما يكون ذلك التفسير مرتبطاً بشرح لوجهة النظر العالمية الضمنية. فالقاعدة تصوغ معظم أعمالها بتعابير دفاعية. وإذا أردنا أن نفهم ما تدعو إليه القاعدة، يجب علينا أن نطلع على كيفية التعريف بنفسها، وليس فقط على نظرة المؤسسة السياسية الأجنبية الغربية لها. من يعرف التقنية السردية الرائعة التي قد تتكشف عن هذه الشروحات. فالمكاتب الأجنبية لوسائل الإعلام تتمتع بمقدار كبير من الخبرة تساعدنا على اتخاذ قرار في شأن القصة الصالحة لتكون خبراً أم لا، ألخ. لماذا لا نختبر الأمر من خلال عمود في صحيفة أو في موقع على الوِب يشرح فيه المحرر الأجنبي يوماً المعيار المتبع لتحديد الخيارات الصحافية لذلك اليوم؟ قد يحملكم هذا الأمر على الاطلاع على أخبار اليوم، فتحددون ما هو مشكوك بأمره، والمناطق التي لا تتم تغطيتها، والقصص التي لم تتم معالجتها بسبب عوامل خارجة عن إرادتنا...

(1) يهودا والسامرا هي المصطلح اليهودي الذي يستخدم للتعبير عن الضفة الغربية

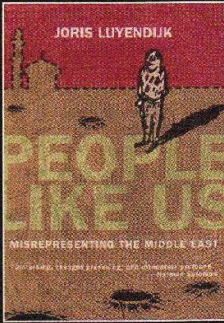
أخيراً، هناك التفسيرات والقوميات المتأصلة في كافة وسائل الإعلام المرتكزة على السوق. لقد أتخذ قرار بطريقة من الطرق في تاريخ ديمقراطياتنا بوجود التعاطي مع الخبر كمنتج وليس كسلعة. فالمنتج يلائم السوق حيث تسود النسخة الأكثر شعبية. والسلعة تلائم المجتمع المدني إضافة إلى الحماية التي تؤمنها الشرطة، على سبيل المثال، والعدالة التي يؤمنها الجهاز القضائي. (في أوروبا، تُعتبر العناية الصحية سلعة أيضاً).

من الصعب جداً معرفة كيفية استمرار الديمقراطيات عندما لا تعكس المعلومات التي يستند إليها المقترعون لاتخاذ قراراتهم الانتخابية ما يحتاجون إلى سماعه بل ما يحبون سماعه. فإذا منح الناس الطعام الذي قالوا إنهم يحبونه، يصبحون بدينين. وإذا أعطيتهم المعلومات التي يريدونها، يصبحون جاهلين وقانعين بما لديهم. أجل، لقد انتخبت الولايات المتحدة باراك أوباما، ولكن بنيتها التحتية من المعلومات ما زالت غير قابلة للاستعمال. وما لم تحدث هذه التغييرات، فإن داعية جاهلاً آخر للسياسة الشعبية ومتشوقاً للقتال سيفوز بالانتخابات عاجلاً أم آجلاً، فيقحم الولايات المتحدة - والغرب الديمقراطي معها - في مغامرة عسكرية كارثية أخرى.

مقاربة أخيرة: إن الناس الذين كتبتُ لهم هذا الكتاب وهذه الخاتمة هم الأقل احتمالاً لقراءته. ولكنني مجرد متفائل بأوروبا القديمة. أمل ذلك.

حاشية: لأسباب يُفترض أنها باتت جليّة الآن، قمت بتغيير عدة أسماء، كما أنه تم اختصار بعض المقالات التي اقتبستها..

في «بشر مثلنا»، يروي جوريس لويينديك قصة سنواته الخمس التي قضاها كمراسل في الشرق الأوسط. فبالرغم من صغر سنّه كمراسل، ولكن بفضل طلاقة لسانه بالعربية، تحدّث لويينديك إلى رماة الحجارة، وسائقي سيارات الأجرة والأساتذة، والضحايا والمعتدين، والطلاب والعائلات. لقد أرّخ لخبراته مع الأنظمة، والاحتلال، والإرهاب، والحرب من مصادرها الأساسية، كما أن قصصه سلّطت الضوء على عدد من الأزمات الرئيسية، بدءاً بحرب العراق وصولاً إلى الأزمة الإسرائيلية-ال فلسطينية، إضافةً إلى مواضيع أخرى هامة.



رغم هذا الانغماس في تفاصيل الحياة اليومية، فهو يرى أنه كلما شهد أموراً إضافية قلّ فهمه لما يجري، ويشرح هنا كيف أصبح مدركاً أكثر فأكثر للهوة العميقة بين ما يراه على أرض الواقع وما تورده وسائل الإعلام العالمية. وكمراسل، كان عليمًا بمجموعة كبيرة من الأخبار ذات المعاني الضمنية المتضاربة، وقد لمس مراراً وتكراراً كيف تفضّل وسائل الإعلام الغربية تكرار القصص التي تتضمّن معتقدات ومعارف الغربيين الشعبية المبسّطة حول العرب.

هي رواية التحرر من الأوهام وتفحص المرء لمشاعره في المناطق الأكثر احتلالاً للعناوين الرئيسية في العالم. يُقدّم «بشر مثلنا» - الذي أصبح شديد الرواج في مسقط رأسه هولندا - أمثلة قوية ممزوجة بالفكاهة لنوضح الطرق التي تعتمدها وسائل الإعلام الغربية لعرض صورة نمطيّة عن الواقع في الشرق الأوسط.

وُلد جوريس لويينديك عام 1971. درس اللغة العربية والعلوم السياسية في جامعة أمستردام وجامعة القاهرة. في العام 2005، مُنح جائزة صحفي العام من قِبَل نبي جورنالبيست، وذلك بعد أن قام الاتحاد الهولندي للصحافيين بالمفاضلة بين الصحفيين الدوليين الأربعة الأكثر تأثيراً.

Cover photo: © nali - Fotolia.com

ISBN 978-9953-87-858-4



9 789953 878584

ص.ب. 13-5574 شوران 1102-2050

ببروت - لبنان

هاتف: 8/785107(+961-1)

فاكس: 786230(+961-1)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



جميع كتبنا متوفرة في موقع **نيل وفرات.كوم** www.neelwafurat.com - www.nwf.com